محمد أمير ناشر النعم

جدل القول

هموم وأوهام في الفكر الإسلامي

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed



جدد القول

هموم وأوهام في الفكر الإسلامي

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دَار الجَديد
Dar al Jadeed

الــطبـعـــــــــة الأولـــــى، ٢٠٢٣
تحريـــــر: قلـــم دار الجـديـــــــــد
دارة محســـن سليـــم ـ جبل لبنـــــان
خطوط الغلاف بريشة: محمد عماد محّوك
نديم صائم الدهر
تـرقيــــم دولـي: 3 234 11 9953 978
www.LokmanSlim.org | www.dar-al-jadeed.com



جَـــدَدُ القول

[الجَـدَدُ]: مـا اسـتوى مـن الأرض لا وعــث فيــه ولا اضطـراب ولا رخــاوة، و[جَـدَدُ القـول] هـو مـا لا عـوج فيـه ولا التـواء. والجَـدَدُ أيضًـا: الأرض الصلبة، وفـي المثـل: «مَـنْ سَـلَكَ الجَـدَدَ أَمِـنَ العِثَـارَ».

فـي هـذا الكتـاب ثمانيـة وعشـرون عنوانًـا وموضوعًـا توزّعـت علـى أربعـة أبـواب تناولـت همـوم الثقافـة الإسـلامية، وتلمّسـت وجـوه الخلـل ومظاهـر القصـور فيهـا، وحاولـتْ فـي الوقـت نفسـه تقديـم رؤًى، ولـو بشـكل مجمـل، علّها تسـاعد علـى تجـاوز تلـك الوجـوه والمظاهـر.

مؤسسة دارالجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

إلى رشدي ناشر النعم
والـــدي

مؤسسة دَارالجَـديْد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

في الكتاب

مؤسسة دار الجديد

Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

تمهيد: المشكلة الثّقافيّة للمسلم المعاصر

فـي الثُّلـث الأَوّل مـن القـرن العشـرين أَعلـن برنـارد شـو: «سـيأتي علـى البشـر زمـان يَدينـون فيـه بِديـن واحـد، ويتكلّمـون لغـة واحـدة، أَمّـا ذاك الدّيـن فهـو الإِسـلام المُجـدَّد، وأَمّـا اللّغـة فالإنكليزيّـة»[١].

وبِالنّظـر إِلـى الفتـرة الّتـي قيـل فيها هـذا الـكلام فـإِنّ أَوّل مـا يتبـادر إِلـى الذّهـن أَنّـه مزحـة مـن مُزحـات برنـارد شـو، المُنطوِيَـة علـى المبالغـة ودَمْـجِ المُتناقضـات أَو المُتباعـدات: الإِسـلام | الإنكليزيّـة، لإِضفـاء جـوٍّ مـن التّرفيـه المُتَبَّـل بالسُّـخريّة والإِثـارة. ذلـك أَنّـه قيـل فـي زمـنِ أَوْجِ سَـكْرَةِ الاسـتعلاء والصّلـف والجبـروت الأوروبـيّ، والّـذي لـم يتـورّع أَربابـه عـن تسـمِيَته بِزمـن الاكتشـافات الاسـتعماريّة والفتوحـات الاسـتعماريّة، زمـن سـيادة الرّجـل الأَبيَـض فاتـح العالَـم وقاهـره، الّـذي عبّـر عـن نفسـيّته أَدقّ تعبيـر الأَديـب الانكليـزيّ روديـارد كيبلينـغ حيـن قـال: «الشّـرق شـرق، والغـرب غـرب ولـن يلتقيـا»[٢]. وقـد فُهـم مـن هـذا القـول أَنّ الفاعـل العامـل العالِـم لـن يلتقـي الخامـل العاطـل الحالـم، أَو بتحديـد أَدقّ، إِنّ الحـيّ لـن يلتقـي المَيْـت، لأَنّ الشّـرق كان فـي نَظَـرِ ذلـك الزّمـن يلفُـظ أَنفاسـه الأَخيـرة، بعـد أَن أُطيـح بـه فـي غيابـة رمـال صحرائـه وفيافيـه.

ولكـن بِالنّظـر إِلـى برنـارد شـو نفسـه، وبِالنّظـر إِلـى أَفـكاره وتأمّلاتـه الّتـي

---

(١) تحريـر جميـل صليبا وكامـل عيّـاد وخليـل مـردم بـك، مجلـة الثّقافـة، السّـنة الأولـى ١٩٣٣، ص. ٣٣٢.

(٢) هـذا البيـت الشّـعريّ هـو مطلـع قصيـدة عنوانهـا: The Ballad of East and West، ويـرى بعـض النّقّـاد أنّ هـذا البيـت جـرى اقتباسـه اقتباسًـا خاطئًـا بالمعنـى المعاكـس تمامًـا لِمـا أَراده كيبلينـغ.

انظُر: http://www.kiplingsociety.co.uk/rg_eastwest1.htm.

راعها أَن تنساق وراء طنطنات ذلك العصر، يمكن الجزم بِأَنّ هذا الرّجل كان في أَعلى درجات الجِدّ والمسؤوليّة حين نطق بهذا الكلام، فقد كان يتمتّع بِأُفُقٍ شبيه بِأُفُقِ غوته القائل في **الدّيوان الشّرقيّ** للمؤلّف الغربيّ: «لله المشرق والمغرب، وفي راحتَيْه الشّمال والجنوب جميعًا، فَالكُلّ منه وإليه»(٣).

ومن هنا فقدْ رأينا أَنّه لم يَكَدْ ينتهي ذلك القرن حتّى انجلى عن إقرارٍ بِصحّة تلك المقولة في شِقّها الثّاني، أَعني سيادة اللّغة الانكليزيّة. أمّا في الشِّقّ الأَوّل منها فكانت الأَعوام التّالية حافلة بالإرهاصات، وغدت طلائع صحّة هذا القول تتتابع، وبوادر صدق هذا الاستشراف تتوالى، فانتقلنا، على سبيل المثال، من الحديث عن الأَقليّات المُسلِمة الوافدة إلى الغرب، إلى الحديث عن الأَقليّات المُسلِمة الغربيّة، من أَبناء الغرب نفسه، ومن سُكّانه ومُواطِنيه، وغدا من الواضح لدى ثُلّةٍ من المفكّرين أَنّ القُطْبَ الّذي يتّجه إليه مجرى التّاريخ هو ما تُعبّر عنه الآية الكريمة: «هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» [الصف:٩]، ورصد الرّاصِدون تلك الطّلائع، وأَحصى المُحْصون هاتيك البوادر، ونظّر المُنَظِّرون لشروط النّهضة وأَسباب الإقلاع في مسيرة الظّهور والإظهار، ولنا أَن نختار مثالًا لذلك ما كَتَبَه المفكّر الفرنسيّ روجيه غارودي تحت عنوان: **الإسلام دينُ المستقبل**، أَو ما كتبه المفكّر الجزائريّ مالك بن نبي حول دَوْر المُسلم ورسالته في الثّلث الأَخير من القرن العشرين حيث قدّم المسوّغات الّتي تضع استشراف برنارد شو في عالم المعقول والمقبول، بل في عالم الحاجة المُنزّلة منزلة الضّرورة، غير أَنّه ربط ذلك كلّه بشرط وحيد أَلا وهو تجاوُز أَزمة الحضارة الّتي يُعاني منها الفرد المُسلم، ويَضْرِب لذلك المثل الرّمزيّ التّالي: «هل تَرَوْنَ أَرضًا عطشى تنتظر الرّيّ من

---

(٣) Goethe, Johann Wolfgang von, *West-östlicher Divan*, Stuttgart, 1819. p. 9.

الماء؟ هل نستطيع ريّها بماء يجري تحت مستواها؟ الجواب: لا. لن يسقي الماءُ الأَرض بالصّعود إليها، وإنّما بالانحدار، وذلك بِحُكْم السُّنَن الإلهيّة عن طريق الجاذبيّة. إذًا: إذا أَراد المُسلم أن يقوم بِدَوْر الرّيّ بِالنّسبة إلى الشّعوب المُتحضّرة، وأَراد بِعبارة أَوْضح، أَن يقدّم المبرّرات الجديدة الّتي تنتظرها تلك الأَرواح الّتي تتألّم لِفراغها وحَيْرتها وتيهها، إذا أَراد المُسلم ذلك فَلْيَرفع مستواه بحيث يستطيع فِعْلًا القيام بهذا الدَّوْر، إذ بمقدار ما يرتفع إلى مستوى الحضارة بمقدار ما يصبح قادرًا على تعميم ذلك الفضل الّذي أَعطاه الله له أَعني دينه، وعندها فقط يصبح قادرًا أَيضًا على بلوغ قِمَم الحقيقة الإسلاميّة، واكتشاف قِيَم الفضيلة الإسلاميّة، ومن ثمّ ينزل إلى هضاب الحضارة المتعطّشة، فيَرْويها بالحقيقة الإسلاميّة والهدى»(٤).

والآن وبعد أَن تجاوَزْنا الثّلث الأَخير من القرن العشرين برُمَّتِه يجب أَن نَقِفَ وقفة مساءلة ومراجعة وتقييم: أَين كنّا؟ وأَين صرنا؟ وهل بلغ ماؤنا مستوى الأَرض العطشى؟ وهل تجاوزه وسَما عليه؟

والجواب: على الرّغم من تجاوزنا عتبة ذلك القرن، وانتقالنا إلى رحاب قرن جديد، فإنّ من طلائعنا لَمَنْ تسلّل لُواذًا، وتوارى خجلًا، وإنّ منها لَمَنْ خرّ صريع نَوم عميق، وإنّ منها لَمَنْ ظلّ يُراوح في مكانه باحتشاد فَوْضَوِيّ رهيب، وكانت النّتيجة أَنْ دَعَمْنا مقولة كيبلينغ، وأَضعفنا رؤية غوته، وكذّبنا استشراف برنارد شو بعد أَن أَثبتنا للعالَم أَجمع أَنّنا لم ننضج له بتاتًا(٥).

وهذا ما دفع الباحثين والمفكّرين المُسلمين للحديث عن أَزمات شتّى

---

(٤) مالك بن نبي، **مجالس دمشق**، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٥، ط. ١، صص. ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٥) كتب المفكر الألماني ميشيل بلومة، كتابًا عنوانه:

Islam in der Krise, ***Eine Weltreligion zwischen Radikalisierung und stillem Rückzug***, Patmos-Verlag 2017.

أي: الإسلام في أزمة: دين عالمي بين التطرف والتقهقر الصامت. وقد دلّل على أنّ نسبة المسلمين الذين باتوا يتشككون في عقيدتهم تتزايد تزايدًا كبيرًا، وأنّ هنالك انسحابًا صامتًا من الإسلام لا يُشار إليه، ولا يُتكلم عنه.

تعصـف بنـا وتهزّنـا حتّـى لَتـكاد تقلعنـا مـن جذورنـا، ونحـن إن تناولنـا أَزمـة معيّنـة بالتّشـخيص والفحـص والتّعليـل والتّحليـل فمـا ذاك لِأَنّهـا أَوْلـى بالحديـث مـن الأَزمـات الأُخـرى، ولكنّنـا نتناولهـا بِحُكْـم اهتمامنـا واختصاصنا وتوجّهنـا.

تجلّيات أَزمة الثّقافة المُسلمة

لأَنّ الثّقافـة هـي مخـزون القِيَـم والمعـارف، أَوْ لِنَقُـلْ: العقـل الباطـن المحرّك، علـى اعتبـار أَنّهـا: «ذاك الّـذي يبقـى حينمـا ننسـى كلّ شـيء»[٦]، كمـا عبّـر إدوار هريـو، ولِأَنّهـا، فـي الوقـت ذاتـه، السّـلوك الظّاهـريّ المُجَسِّـد لذلـك المخـزون فَـإِنّ أَزمتهـا تتجلّـى فـي ناحِيَتَيْـنِ:

١ـ غَوْغائيّة في إِدراك المفاهيم والمُعطيات المعرفيّة الإِسلاميّة.

٢ـ خلل في التّحويل والتّطبيق.

أَمّـا الغَوْغائيّـة فـي إِدراك المفاهيـم والمعطيـات المعرفيّـة الإِسـلاميّة فتعنـي انعدامًـا فـي التّوثيـق وفـي التّحقيـق، أَوْ ضعفًـا شـديدًا فيهمـا.

وتتجلّى الغَوْغائيّة في مستوى التّوثيق في المظاهر التّالية:

١ـ عـدم تحـرّي الدّقّـة فـي النّقـل، والتّقصيـر فـي التّأكّـد مـن صحّـة نسـبة تلـك المفاهيـم والمعطيـات إِلـى الإِسـلام، ويظهـر هـذا مـن خـلال الكَـمّ الهائـل مـن الرّوايـات الّتـي نتناقلهـا ونَنْسُـبُها إِلـى مَـنْ لا علاقـة لـه بها، سـواء أَكانـت أَحاديـث تُرفَـع إِلـى النّبـيّ صلّـى اللـه عليـه وسـلّم لتسـويغ مـا هـو قائـم مـن العـادات المُسـتحكمة، أَو آراء ومقـولات تُنسَـب إِلـى المذاهـب المخالِفـة تشـنيعًا عليهـا، وإِظهـارًا لهـا فـي مسـتوًى فظيـع مـن الضّحالـة فـي فَهْـمِ الإِسـلام، تبريـرًا لِأَحـكام الفِسْـقِ أَو الكفـر الّتـي توصَـم بهـا.

---

(٦) مالك بن نبي، **مشكلة الثّقافة**، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤، ط. ٤، ص. ١٣٥.

٢ـ الخَلْـط بَيْـن العـادة والدّيـن: وإنـزال العـادة منزلـة الدّيـن، وتصديرهـا إلـى المسـلمين وغيـر المسـلمين علـى أنّهـا عامّـةً شـاملة، ولكـن شـتّان مـا بينهمـا، فالدّيـن وَضْـعٌ إلهـيّ مرتبـط بالإنسـان، حيثمـا كان الإنسـان. أمّـا العـادة فَوَضْـعٌ قائـم علـى البيئـة والظّـرف الاجتماعـيّ، ومرتبـط بهمـا، لـذا كان مـن الطّبيعـيّ أنْ تختلـف العـادة مـن بيئـة إلـى بيئـة، ومـن مجتمـع إلـى مجتمـع، ومـن زمـن إلـى آخـر.

٣ـ جَعْـلِ الفهـوم نصوصًـا: ومعاملتهـا معاملـة النّصـوص، بـل حَجْـبِ النّصـوص بهـا وحلولهـا محـلّ النّصـوص. وهنـا تُطالِعنـا مشـكلةٌ هـي فـي رأيـي مـن أخطـر المشـكلات الثّقافيّـة الإسـلاميّة فـي الغـرب، ألا وهـي مشـكلة ترجمـة القـرآن الكريـم، فكثيـر مـن التّرجمـات تتجـاوز منطـوق الآيـات إلـى فهـوم المترجـم، أو إلـى فهـوم جماعتـه أو حلفـه أو مشـربه، وتُقَدِّمُهـا علـى أنّهـا هـي منطـوق الآيـات، وسـوف نذكـر مثـالًا لذلـك فـي مـا يأتـي.

إنّ هـذه الغَوْغائيّـة الّتـي تجتـاح العالَـم الإسـلاميّ بأسـره، هـي المسـؤولة عـن إيجـاد أكثـر مـن نسـخةٍ للإسـلام، ولِأجـل ذلـك يتكـرّر الاعتـراض المُحِـقُّ ويتجـدّد: عـن أيّ إسـلامٍ تُحدّثوننـا؟ عـن الإسـلام الأفغانـيّ، أمِ الإسـلام الإيرانيّ، أمِ الإسـلام السّـعوديّ، أمِ الإسـلام السّـودانيّ؟ إلـى آخـر مـا هنالـك.

وأمّا الغَوْغائيّة في مستوى التّحقيق فيتجلّى في:

١ـ الأخـذ المشـتّت للمفاهيـم والمعطيـات الإسـلاميّة، واعتمـاد بعضهـا دون بعـض.

٢ـ عَدَمِ ضَبْطِ معانيها المُرادة ودلالاتها المقصودة ضبطًا واضحًا.

٣ـ عَـدَمِ مُراعـاة تماسـكها ومنطقيّتهـا وتكاملهـا، وطغيـان جانـبٍ منهـا علـى بقيّـة الجوانـب.

فـي حيـن أَنّ النّبـيّ صلّـى اللـه عليـه وسـلّم يقـول في حديـثٍ يَرْويـه صاحب دلائـل النّبـوّة: «لا يقـوم بهـذا الدّيـن إلّا مَنْ حاطـه بـكلّ جوانبه»(٧).

وأَن تَحوطـه بـكلّ جوانبـه يعنـي: أَنْ تعرفـه وتتصـوّره أَوّلًا، وأَنْ يكـون تصـوّرك لـه متكامـلًا ثانيًـا، فَالْكُلّيّـات مـع الجزئيّـات تُشَـكِّلُ كُلًّا منسـجمًا، ولَوحـة متناسـقة الأَلـوان مترابطـة الأَجـزاء، فهـل يعـي المسـلمون أَنّهـم بحاجـة إلـى التّوثيـق والتّحقيـق: فَالأَخْـذُ المشـتّت للمفاهيـم والمعطيـات لَثْـغُ عَقْـلٍ طفولـيّ، وتأتـأة فـي المعنـى هـي أَشـدّ عَيْبًـا مـن التّأتـأة فـي اللّفـظ، والنّـاس اليـوم فـي بحثهـم عـن مضمـونٍ يتبنَّوْنَـه إنّمـا يتلمّسـون التّكامـل فـي مفاهيمـه، والانسـجام فـي أَجزائـه، والتّوافـق والتّناسـق بَيْـنَ جزئيّاتـه، لأَنّ مسـيرة الإِنسـان تكامليّـة، وهـو باحـث عـن الكمـال مـن خـلال التّكامـل.

خَلَلٌ في التّحويل والتّطبيق

إذا كانـت الثّقافـة هـي تجسـيد المخـزون المعرفـيّ وتحويلـه إلـى سـلوك ظاهـريّ، فـإِنّ مِمّـا يفـتُّ بعضدهـا ضخامـة المُعطـى المعرفـيّ، وهزالـة التّحويـل والتّجسـيد، وهـذا بالتّحديـد مـا نعانـي منـه، فهزالـة التّحويـل عنـوان عريـض مـن عناويـن ثقافتنـا، وَسِـمَةٌ لافتـة مـن سِـماتها، وهـو هَهنـا مُتفـاوِت الأَشـكال فـي السّـخف، فمـرّة هـو تحويـل مُتَعَثِّـر لا يُواكبـه إلّا الزّلـل، وأُخـرى هـو تحويـل متعسِّـف يتحـاذى فيـه العـدل والظّلـم، وثالثـة هـو تحويـل حرفـيّ ناتـج عـن تصلّـب شـرايين الفَهْـمِ، ورابعـة هـو تحويـلٌ غَيْـرُ مُنسـجمٍ لا يعـود علـى المُعطـى المعرفـيّ إلّا بالنّقـض.

ولا أَجدنـي هنـا محتاجًـا لِسـرد الأَمثلـة والقصـص الواقعيّـة علـى هـذا الخلـل، ولا لالتقـاط صُـوَر مـن مظاهـره، فهـي تنبجـس بَيننـا بغتـة دون سـابق إنـذار،

(٧) أَبـو نعيـم أحمـد بـن عبـد اللـه الأَصبهانـي، **دلائـل النّبـوّة**، تحقيـق محمـد رواس قلعـه جـي وعبـد البـرّ عبّـاس، دار النّفائـس، بيـروت، ١٩٨٦، ط. ٢، ص. ٢٨٢.

وتقفز في وجوهنا من حيث لا نحتسب، لذا أكتفي هنا بذكر العناوين لِأقول:

لِنَنْظُرْ في معطياتنا المعرفيّة:

ـ المؤسّسة للعمل والجِدّ والمثابرة، وكيف جَلَوْناها في التّحويل بطالة وتهاونًا ومهاترة.

ـ والدّاعية للجهاد والصّبر والمصابرة، وكيف غدت في التّطبيق تقاعسًا وَلَجاجة ومكابرة.

ـ والرّاعية للتّثبّت والضّبط والإتقان، وكيف أَضْحَتْ نَوْعًا من التّضييع والتّراخي والفلتان.

ـ والدّاعمة للتّزكية والمراقبة والإحسان، وكيف باتت ضُروبًا من العفونة والغفلة والنّسيان.

والقائمة تطول لِتَشْمَل العدل، والصّدق، والرّفق، والتّيسير، والسّماحة، والنّظافة، وإماطة الأذى عن الطّريق، وتَرْكَ المرء ما لا يعنيه، وإن ذهبنا في إحصاء هذه المفردات لَعَدَدْنا منها على الأقلّ بِضْعًا وسبعين مفردة.

على أنّ هذا الخلل يظهر لدى الأَقلّيّات المسلمة في الغرب بشكلٍ أَفدح بحسب قاعدة: «وبضدّها تتميّز الأشياء»، فالغرب، مهما قيل عنه، يبقى أكثر وفاءً وانسجامًا في تحويله وتطبيقه لمعطياته المعرفيّة مِنّا، لذا سبقنا وبزّنا، وَبِذا غَدَوْنا، بالقياس إليه، في حالة إفلاس حضاريّ ولذلك وَجَبَ علَينا إعلان حالة الإفلاس!

فَلْنعترف، والاعتراف، كما يُقال، يُزيل الاقتراف، فَلْنعترف أَنّنا أَفلسنا، ولَو بَيننا وبَيْن أَنفسنا، من أَجل أَن نُزيح عن كاهلنا ركام المرحلة السّابقة الّتي خنقت روحنا وآمالنا. إنّ هذا الإعلان هو أولى درجات التّحضير للمرحلة الجديدة الّتي يجب أَن نفتح فيها صفحاتٍ جديدةً

فـي دفتـرٍ جديـدٍ، وعندهـا فقـط يمكـن أن نسـدّد ديوننـا لأنفسـنا وللآخريـن.
أمّـا الآن فيجـب وَضْـعُ حَـدٍّ للانـزلاق والاسـتهتار والمكابـرة والتّضييـع. يجـب أن نعتـرف بِصـدق، وكفانـا أن نكـرّر سـؤال: مـاذا خسـر العالَـم بانحطـاط المسـلمين، وكأنّنـا لـم نـدرك حتّـى هـذه اللّحظـة أنّـه لـم يكـن مِـن خاسـر أكبـر سـوانا، فَقَـدْ خسـرنا أنفسـنا قبـل أن يَخسـرنا العالَـم.
إذًا فَلْنُمسـك بدفترنـا الجديـد، وَلْتكـن عناويـنُ صفحاتِـه قائمـةً علـى التّوثيـق والتّحقيـق، وتقديـم النّمـوذج المُقنـع. نحـن مطالَبـون بالتّوثيـق، لِأنّـه الضّامن الوحيـد للثّقافـة كـي لا تتحـوّل إلـى مجـرّد فولكلـور مشـوّش ومضطـرب، يُسـتدعى فـي المناسـبات فقـط، فولكلـور ملـيء بالخرافـة! ونحـن مطالَبـون بـالتّحقيق لِأنّـه الكفيـل الوحيـد بتخفيـف التّشـوّش والتّناقـض، فـالتّحقيق لا يقـوم إلّا علـى الفَهْـمِ، بـل علـى أشـدّ الفَهْـمِ، الّـذي يختـزن فـي طيّاتـه: الدّرايـة والإلْمـام والشّـمول والاتّسـاع، والرّسـم والتّحديـد، والضّبـط والتّدقيـق، ويقـع فـي صُلـب ذلـك الفَصْلُ بَيْـن الدّيـن والسّياسـة، ومَنْـعُ العُهْـرِ بَينهمـا، ومَنْـعُ النّـاس مـن المتاجـرة بِاسْـم الدّيـن لغايـات سياسـيّة، وبهـذا يقـوم التّحقيـق بِـدَوْرِ الصّمغ الّـذي يُمسـك مفـردات المُعطـى المعرفـيّ الإسـلاميّ أن تنزلـق فـي وِهـاد الفوضـى والتّشـتّت والاختـلال.

تحقيق المصطلحات والمفاهيم

كثيـرة هـي المصطلحـات والمفاهيـم فـي ثقافتنـا الإسـلاميّة الّتـي تحتـاج إلـى إعـادة رَسْـمٍ وإلـى تجديـد ضَبْـطٍ، ذلـك لامتلائهـا بإيحـاءات يغلـب عليهـا الظّـنّ أنّهـا لـم تكـن مُـرادة مـن قِبَـل الشّـارع البَتَّـة، ولكـن مـرادة مـن قِبَـل التّخلّـف والجمـود والانحطـاط، وهـذا مـا يعـود علـى تحويلنـا بالوَبـال، ففـي حيـن نريـد لأفرادنـا أن يكونـوا فـي تحويلهـم نمـاذج مقنعـة إذا هـم نمـاذج مُفجعـة، وبَينمـا نريـد لهـم أن يُشـكّلوا بمجموعهـم واقعًـا داعمًـا، إذا

بهم يتحوّلون واقعًا فاحمًا، وَلْننظر، على سبيل المثال، في المصطلحات والمفاهيم التّالية: التّديّن، التّقوى، الورع، العمل الصّالح، الحجاب، الجهاد ولنفكّر في إيحاءاتها المُرافقة لها ولننظر في مَنْ يحكمها: هل هو المعنى والجَوهر، أَمِ الصّورة والمظهر؟ وهكذا دَواليك.

ترجمة القرآن وتحقيق المصطلحات

كثير من المصطلحات والمفاهيم القرآنيّة قد تُرجمت من دون تحقيق، فكانت التّرجمة سببًا في التّشويش والإقلاق.

انظُروا على سبيل المثال إلى ترجمة قوله تعالى: «وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» [الأنفال: ٦٠]. فهنالك بعض المترجمين، كالمترجم عبد الله يوسف علي(٨)، ترجم كلمة «تُرْهِبُونَ» بـ Terror وهذه الكلمة هي كلمة سياسيّة في الاستخدام المعاصر، وذات دلالة بشعة في التّصوّر الغربيّ، وبشاعتها تزداد يومًا إِثْرَ يَوْم، بَينما ترجمها محمد أسد(٩) بـ Deter أَيْ: تردعون، وهي ترجمة أَكثر حذاقة وكفاءة، ولا تثير في النّفس ذلك الأَثر السّيّئ الّذي تثيره الكلمة السّابقة.

وهذا مجرّد مِثالٍ من أَمثلة عديدة، وعسى أَن يتتبّع باحث هذه القضيّة ويدرسها حقّ دراستها، ويشير إلى مَواطن الخلل في هذه التّرجمات الّتي تعود على المعنى بالإرباك.

مُسلمو الغرب والتّحقيق

إذا كان المفكّر لا يرى عمقًا إلّا في الفكر الّذي بَيْنَه وبَيْن فِكْرِه صِلَة

(٨) Abdullah Yusuf Ali, *The Meaning of the Holy Qu'ran,* English-Arabic and Arabic Edition.

(٩) Muhammad Asad, *The Message of the Quran*, The Book Foundation, April 1, 2005.

قُربى، فإنّه يجب على المسلم الغربيّ أَوِ الّذي يعيش في الغرب، ولا سيّما الباحث والمثقّف منه، أَن يكون رائدنا في البحث عن صلات القربى الفكريّة بَين الإِسلام والثّقافة الإِسلاميّة، وبَين الفكر الغربيّ والعالَميّ، شرط أَن تكون هذه الصّلات شرعيّةً وغَيْرَ متكلّفةٍ، وهذا ما يصبّ في مصلحة تقريب الثّقافة الإِسلاميّة للآخرين وتحبيبها إِليهم، ولنا في أَوّل أَقليّة مُسلمة في تاريخنا قدوة حسنة، فها هو جعفر بن أَبي طالب، يُقيم صلة القربى الفكريّة بَينه وبَين النّجاشي ملك الحبشة حين يتلو عليه آيات من سورة مريم، فيرقّ النّجاشي له ولأَصحابه، ويمنعهم من أَعدائهم المكّيّين.

ويا لَيْتَ البحث عن هذه الصّلات يستنفد جميع المسارب، ويطرُق جميع الاحتمالات، من خلال عقد المُقارنات والمُقاربات بَيْن الشّخصيّات والأَفكار والنّصوص، والمحذور الوحيد الّذي نَحْذَر ونُحذّر مِنه هو الوقوع في وَهْدَة الاستعلاء، وكبرياء الأَسبقيّة الفكريّة.

إِنّ الثّقافة الإِسلاميّة ستبقى خِداجًا حتّى يُجَسِّدَها حَمَلَةٌ أَوْفِياء يُشكّلون نماذج مقنعة في شتّى حالاتهم وأَوْضاعهم ومجالاتهم، وفي ميادين الحياة كافّة، وعليه فإِنّ العالَم لن يطمئنّ إِلى ديننا ولا إِلى ثقافتنا إِلّا عندما يجدها مُطَبَّقَة ومُجسّدة في صورة مقنعة ومحبَّبة، بلا تكلّف ولا تعسّف، باعتبارها نموذجًا من النّماذج البشريّة الممكنة الّتي تصنعها الثّقافة الإِسلاميّة.

ويُعجبني في هذا المقام وَصْفُ نيكوس كزانتزاكيس لقِسٍّ قال عنه: «كان ذلك القسّ يجوب العالَم، وهو يتحدّث ويمازح السّيّدات، ولكن خَلْفَ هذا المظهر الخارجيّ اللّاهي والدّيناميكيّ كان المسيح يتدلّى»[١٠].

---

(١٠) نيكوس كزانتزاكيس، **تقرير إلى غريكو**، ترجمة ممدوح عدوان، دار الجندي، دمشق، ٢٠٠٤، ط. ١، ص ١٤٨.

البـــاب الأوّل

الفِقْهُ والفَقيهُ والمُتفقِّهُ

مؤسسة دَار الجَديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

الفِقْهُ الإسلاميّ المعاصر فِقْهُ الهموم المتقزّمة

في نهايات القرن التّاسع عشر بدأ ظهور لفيف من الفقهاء اتّسموا بالعبقريّة والمَوهبة الفنيّة والعقل الحصيف. اشتغلوا بمَوضوعات كبيرة نمَّتْ عن شعورهم بتفوّقهم على لحظتهم الرّاهنة، وكان منهم بل في طليعتهم الفقيه محمد قدري باشا المصري ١٨٢١ ـ ١٨٨٦، والإمام محمّد عبده ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥، وكان منهم بل على رأسهم شرّاح المجلّة: العلاّمة الحمصي الشيخ خالد الأتاسي ١٨٣٧ ـ ١٩٠٨، والعلاّمة التّركي علي حيدر ١٨٣٧ ـ ١٩٠٣[١]، والأستاذ المسيحيّ المارونيّ سليم رستم الباز ١٨٥٩ ـ ١٩٢٠[٢]، والقانونيّ المُصلح الفلسطينيّ فهمي الحسيني ١٨٨٦ ـ ١٩٤٠، ثمّ الْتَحَقَ بسِربهم فيما بَعْدُ طائفة من الفقهاء أَناخت عقولهم ونفوسهم بِساحة العِلم، ولم تتعدّاه إلى سِواه، فقعّدوا ونظّروا وبرهنوا أنّ الفِقْهَ الإسلاميّ في جوانبه المتعدّدة، وفي مذاهبه المختلفة

(١) يُدعى في اللّغة التّركيّة علي حيدر الكبير تمييزًا له عن آخرين يحملون الاسم نفسه. استلم مهامًّا رفيعة المستوى قضائيّة وإداريّة وعلميّة، وألّف العديد من الكتب، وعلى رأسها **شرح المجلّة**، هذا الشّرح الّذي ترجمه إلى العربيّة العلاّمة المصلح الفلسطينيّ فهمي الحسيني. وتنبع أهميّة هذه الشّخصيّة من كونها من رجال التّنظيمات العثمانيّة الّذين كان لهم أثر حاسم في السّلطنة، وكانت مواقفه الفقهيّة والفكريّة تنوس بين المحافظة والتّجديد.

(٢) درس سليم رستم الباز الفقه الحنفيّ على يد مؤسّس جمعيّة المرسلين اللّبنانيّين المارونيّة الأُسقف يوحنا حبيب الماروني ١٨١٦ ـ ١٨٩٤، وأخذ إجازة منه سنة ١٨٧٦، وكان البطريرك المارونيّ يوسف حبيش ١٧٨٧ ـ ١٨٤٥ أرسل يوحنا حبيب لدراسة الفقه على يد الشّيخ إعرابي الزيلعي في طرابلس، فأتقنه ونبغ فيه، ولذلك عيّن الأمير بشير الشّهابي الأُسقف يوحنا حبيب قاضيًا على نصارى جبل لبنان.

مَصون عن السّفاسف، لأَنّ أُسُسَه تقوم على نظريّات ومبادئ غايةً في الدّقّة والإِحكام، والسّعة والمراعاة، وكان منهم بَل على رأسهم العلّامة عبد الرّزّاق السّنهوري ١٨٩٥ ـ ١٩٧١ المجلّي **لمصادر الحقّ في الفقه الإِسلاميّ**، والعلّامة ابن العلّامة الشّيخ مصطفى الزّرقا ١٩٠٤ ـ ١٩٩٩ الّذي فَصَّل للفقه الإِسلاميّ ثَوْبًا جديدًا في كتابه الشّامل: **المدخل الفقهيّ العامّ**، والدّكتور أَنور إِبراهيم باشا صاحب المؤلَّف القَيِّم: **المسؤوليّة الجزائيّة في الشّريعة الإِسلاميّة**، والأُستاذ القِبطيّ شفيق شحاتة الّذي قدّم رسالة دكتوراه بعنوان: **النّظريّة العامّة للالتزامات في الشّريعة الإِسلاميّة**، وحدّث ولا حرج عن المحقِّق الشّيخ أَحمد إِبراهيم ١٨٧٤ ـ ١٩٤٥ صاحب **رسالة الأَهليّة ونظام النّفقات في الشّريعة الإِسلاميّة**، أَو عن المحقِّق العلّامة الشّيخ علي الخفيف ١٨٩١ ـ ١٩٧٨ صاحب **الحقّ والذّمّة وتأثير المَوت فيهما**، أَو عن الشّيخ أَحمد فهمي أبو سنة ١٩٠٩ ـ ٢٠٠٣ صاحب **العُرْف والعادة في رأي الفقهاء**، أَو الشّيخ العلّامة مصطفى شبلي ١٩١٠ ـ ١٩٩٧ في كتابه المهم: **تعليل الأحكام**، أَو الدّكتور فتحي الدريني ١٩٢٣ ـ ٢٠١٣ في أُطروحته المميّزة: **نظريّة التّعسّف في استعمال الحقّ في الفقه الإِسلاميّ**، علاوةً على الإمامَيْن محمود شلتوت ١٨٩٣ ـ ١٩٦٣ ومحمد أَبو زهرة ١٨٩٨ ـ ١٩٧٤ في مؤلّفاتهما العديدة المشهورة.

ثمّ خَلَفَ من بَعْد هؤلاء الأَفاضل الرّوّاد خَلَفٌ لم يبلغوا قطُّ ـ سوى قِلّة قليلة ـ مبلغ عظَمتهم، ولم يرقَوا إِلى سماء سُموّهم، وإِن استعاروا قفاطينَهم وعمائمهم بل ومصطلحاتهم، فتمتّعوا بهذه الثّروة الثّمينة على غَير استحقاق، ثمّ بدّدوها تبديد السّفيه، وهدروها هَدْرَ المعتوه، ظنًّا منهم أَنّ حضور الفقه في التّأطير والتّكييف لكلّ شاردة وواردة أَمر لا مندوحة عنه، وهكذا أَخذوا على عواتقهم، في تلهّفٍ غَير محدود،

إعنـاتَ النّـاس وتكبيلَهـم، إذ حصـروا مهمّتهـم فـي تطويـق الإنسـان تطويقًـا مُحْكَمًـا، فانطلقـوا إلـى فتاويهـم دونمـا هَـوادة، فـي فقـه منفلـت مـن عقّاله، ولا سـبيل إلـى الإمسـاك بزِمامـه، فازدحمـوا بالفتـاوى، واحتدمـوا بالأحـكام، وجعلوهـا رَواسِـم، أي كليشـيهات، وأَربكـوا أنفسـهم بأَنفسـهم، وأَربكونـا معهـم، بَـل عكّـروا صفْوَنـا وكـدّروا فِطرتنـا، وأَنقضـوا ظهرنـا، وخرجـوا علينا بنتـاج فقهـيّ أَقـلّ مـا يُقـال فيـه إنّـه فقـه الهمـوم المتقزّمـة، أَو إنّـه الفقـه الإسـلاميّ المعاصـر فـي وجهـه الشّـائه الشّـاحب.

وفـي أَثنـاء ذلـك انقسـموا فريقَيْـن، وكلّ فريـق غـدا أَسـيرًا لمَوْقـفٍ اسـتغرقه كلّ الاسـتغراق:

ـ فريـق صَـحَّ أَن نُطلِـق عليـه وَصْـفَ المذهبـيّ لأَنّـه تَقيَّـد بمذهـب إمـامٍ معيّـن مـن أَئمّـة المذاهـب الأَربعـة تحديـدًا.

ـ وفريـق أَطلـق علـى نفسـه اللّامذهبـيّ مُنْكِـرًا هـذا التّقيّـد، وداعيًـا إلـى العـودة والرّجـوع إلـى الكتـاب والسُّـنّة.

لكـنَّ انقسـامًا لا تصحبـه مناوشـات، ولا تعقبـه معـارك، سـيبدو غريبًـا علـى أَخلاقنـا وسـجايانا، ونشـازًا فـي لَحْـنِ عاداتنـا وأَعرافنـا، وفـوق ذلـك سـيكون غَيـر جديـر بـأَن يُذكـر أَو يُـؤرَّخ لـه فـي قـادم الأَيّـام! مـن أَجـل ذلـك فقـد شـمَّر كِلا الفريقَيْـن وهـرول، وصـاح ضـدّ الفريـق الآخـر: يـا خيـل اللـه اركبي! أَمّـا فرسـان النِّـزال والطِّعـان، والتّرصّـد المُغـرِض، فـكان مـن أَشـهرهم الفقيـه محمـد زاهـد الكوثـري ١٨٧٩ ـ ١٩٥٢ مـن فئـة المذهبيّيـن، الّـذي احْتَـوَشَ كبـش اللّامذهبيّيـن محمـد حامـد الفقـي ١٨٩٢ ـ ١٩٥٩، يَليهـم، زمنًـا، الدّكتور محمـد سـعيد رمضـان البوطـي ١٩٢٩ ـ ٢٠١٣ الّـذي ناجـز الشّـيخ ناصـر الدّين الألبانـي ١٩١٤ ـ ١٩٩٩ والأُسـتاذ محمّـد عيـد عبّاسـي ١٩٣٨.

وشـهِدنا، علـى مـدى سـنوات خلـت منهـا البركـة، معـارك ومسـاجلات عناوينهـا أَحـدُّ مـن أَطـراف الأَسـنة! فالكَوثـريّ لا يَجِـدُ حَرَجًـا مـن أَن يكتـب

بحثًا عنوانه: اللّامذهبيّة قنطرة اللّادينيّة، والألبانيّ والعباسيّ لا يتورّعان عن أن يُعلِنا: المذهبيّة هي البدعة. وأمّا الدّكتور البوطي فلا يتلكّأ أن يكتب كتابًا عنوانه: **اللّامذهبيّة أَخْطَرُ بِدْعَةٍ تُهدّد الشّريعة الإسلاميّة.** وهنا يَضْرِبُ الجميع أَرْوَع الأمثلة في الحِرْص، حرص كلّ فريق على زجّ الفريق الآخر في النّار، على اعتبار أَنَّ «كلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النّار».

وقد أَنتجت لنا هذه الحركة النِّزاليّة لَوْنًا من أَلوان الأَدب المتَّسم بسحر التّعبير المتدفِّق، ويمكن أَن نُطلق عليه اسم أَدب اللّعنات والشّتائم المتبادلة الّتي لَو أَحصاها المُحصي في كتابات هؤلاء المذكورين فقط لَخرج بِمَوْسوعة فيها كلّ أَلوان البيان والمعاني والبديع، وفيها أصانص ما توصّل إليه شعراء الهِجاء على مدى خمسة عشر قرنًا [٣].

وكان من دواعي الكرب، فيما بعد، تكاثُر كلّيّات الشّريعة والفقه وأُصوله وتناسلها، حيث ما فتئت تمدّنا بفقهاء الحاضر والمستقبل، من المذهبيّين واللّامذهبيّين المتلهّفين لاقتناص مَوْضوعات لِأُطروحاتهم، ولَو من تحت أَظافرهم، أَو من بَيْن أَسنانهم، ولَو اطّلعت عليهم لَرأيتهم يرسفون، إلّا من رحم الله، في أَغلال الشّغل على أَشياء لا تعني شَيئًا لِأَحد، وقد أَخذتهم واستبدّت بهم حميّا تقديم البدائل والحلول الإسلاميّة، ولكنْ يا لَها من بدائل وحلول ضيّقة محدودة، وبائسة مسدودة، متساوية في التّعسير، ومتناسبة في التّنفير.

أَمّا الفئة الأَكثر تعاليًا، أَعني دارسي أُصول الفقه تحقيقًا لِكُتبه، وتحريرًا لمسائله، فهي في الممارسة العمليّة يَوم يجدّ الجِدّ، لم تكن إلّا كذاك الّذي يعرف كيف يضبط مفاتيح عوده، ولكنْ لا يُجيد العزف عليه،

---

(٣) تجدر الإشارة ههنا إلى كتاب حسن بن علي السّقاف، **قاموس شتائم الألباني وألفاظه المنكرة** الّتي يُطلقها في حقّ علماء الأُمّة وفضلائها وغيرهم، دار الإمام النووي، بيروت، ٢٠١٠، ط. ٢.

والأَمثلـة علـى ذلـك أَكثـر مـن أَن تُحصـى، سـواء مِمَّـنْ يُدعَـون فقهـاء، أَو يُسـمَّون أُصوليّيـن، عِلمًـا أَنَّنـي أُلـحّ علـى أنّ نقدنـا ههنـا يتّجـه إِلـى الأَفـكار بالتّمحيـص لا إِلـى الأَشـخاص بالتّنقيـص.

أَمّـا الفتـاوى الّتـي يتمخّـض عنهـا هـؤلاء الفقهـاء بـل أَشـباه الفقهـاء فـلا يمكـن تسـميتها إِلّا بـالفتاوى المعرقلـة لأَنّهـا تُعرقـل اسـتقرارنا واطمئناننـا، وتُعيـق مسـيرتنا وتقدّمنـا، إِذ تنـزل علينـا كفُجـاءات الحـوادث وبغتـات البـلاء فتـاوًى كاسِـيات عاريـات، تُلبِـس الإِضاعـةَ ثَـوْبَ الحَـزْمِ، وتكسـو الغَوْغائيّـةَ رداءَ الفَهْـمِ والعِلـم، ولَـو أَنّهـا اقتصـرت علـى جانـب العبـادات فقـط لَكانـت المُصيبـة أَخـفّ، لأَنّهـا لـن تمـسَّ إِلّا شـخصًا واحـدًا بِعَيْنـه، ولكنّهـا تتدخَّـل فـي الجوانـب الأُخـرى الاجتماعيّـة والاقتصاديّـة والسّياسـيّة، فتتنـاول الإِنسـان وزوجتـه وأُسـرته، وأَبنـاء بلـده ومجتمعـه.

أَمّـا الشّـعب المُسـلم المسـكين فالوَيْـل لـه إِذا حـذا حَذْوَهـا، وامتثـل هدْيَهـا، لأَنّ أَركانـه سـتفهق عندئـذ مـن جوانبهـا طفاحًـا مـن العَنْـتِ والضّيـق، ولأَنّ بنيانـه سـيضجّ بَرَمًـا مـن الكـرب والشِّـدّة.

وأَمّـا المُفْتـون المُعرقِلـون فالوَيْـل لهـم أَيضًـا، مِصـداق الدّعـاء النّبـويّ: «اللّهـم مَـنْ وُلِّـيَ مِـن أَمـر أُمّتـي شَـيئًا فرَفِـقَ بهـم فارْفِـق بـه، ومَـنْ شـقّ عليهـم فاشـقِق عليـه»(٤).

وعلـى الرّغـم مـن كلّ الآيـات القرآنيّـة، والأَحاديـث النّبويّـة، والمأثـورات التّراثيّـة، والقواعـد الفقهيّـة، الّتـي تُقيـم بنْيـان هـذا الدّيـن علـى التّبشـير والتّيسـير، وعلـى رفـع الحـرج، ووضـع الإِصَـر والأَغـلال عـن البشـر، حتّـى يعيشـوا حالـة إِنسـانيّة طبيعيّـة لا تعـرف الشِّـدّة ولا العَنَـت ولا الجَـوْر ولا الضّيـق فـإِنَّ جُـلّ فقهائنـا اليـوم يُناقِضـون كلّ ذلـك ويُعاندونـه، حتّـى إِذا مـا

(٤) أَحمـد بـن محمـد بـن حنبـل، **مسـند الإِمـام أَحمـد**، تحقيـق شـعيب الأَرنـاؤوط وعـادل مرشـد وآخـرون، مؤسّسـة الرّسـالة، بيـروت، ٢٠٠١، ط. ١، ج. ٤٣، ص. ٢٧٦.

أردنا أَن نستخلص من فتاويهم قواعد ومبادئ فإنّ على رأسها سيأتي:
الأَصل في الأَشياء المنع والتّحريم، والأَصل انشغال الذّمّة، والأَمر إذا ضاق لم يتّسع، وإذا اتّسع ضاق، والمشقّة تجلِب التّعسير، والضّرورات تزيد المحظورات، والعِبْرة في العُقود للأَلفاظ والمباني وليس للمقاصد والمعاني، والعِبْرة للتّوهّم، اليقين يزول بالشّك، والضّرر لا يُزال بِمِثْلِه بل بأَشدّ منه، ويُختار أَفدح الشّرَّيْن.
وهذا ما يكون عليه حالنا عندما يختار هؤلاء الفقهاء الإِلْف على الصّواب، فيَغدو استنباطهم مجرّد تنقيب ومَتْحٍ من براميل الذّاكرة، يغرفون منها أَحكامًا من دون أَن يُمرِّروها على مصفاة الوعي وغربال المُحاكمة.
وحتّى نرتقي من وِهاد التّعميم إلى قُلّة التّخصيص نتناول أَمثلة بعَينها اجتنابًا للتّطويل وتَوَخّيًا للاختصار، مُتجاوزين الفتاوى المدهشة الغاصّة بالنُّكْر والسّفاهة، الّتي تزخر بها صفحات المواقع في الإنترنت، وتغدو مَوْئل تَنَدُّر وتَفَكُّه:
ـ فتاوى العرقلة الاجتماعيّة: كفتاوى الطّلاق، هذه الفتاوى ألّتي تتضارب فيها آراء المُفْتين في دائرة الإفتاء الواحدة، والّتي قد تؤدّي إلى خراب البُيوت من دون إرادة أَكيدة من الزّوجين بإنهاء علاقتهما، ولكنّ المُفتي الحريص يبتُّ العلاقة ويُميتها، وإن كان في بعض الأَحيان يعود فيُحْييها، بتأمين الزَّوج المُحَلِّل الّذي يُسمّى في عُرْف الشّرع التّيس المستعار، ولا أَدري حقيقةً إذا كان هنالك على الأَرض أُمّة من غَير المسلمين ما زالت تَعتبِر الطّلاق الشّفويّ، وترتّب عليه أَحكامه، فجميع الأُمم المتحضّرة اليوم لا تعترف بالطّلاق إلّا في المحكمة وأَمام القاضي.
ومن جُملة هذه الفتاوى تلك الّتي تُحرِّم على المسلمين صُوَرًا من التّواصل الاجتماعيّ المطلوب، كتحريم الاحتفال بمناسبة عيد الأُمّ، فلا

تُجيـز فـي هـذه المناسـبة إظهـار الفـرح والسّـرور، وتقديـم الهدايـا ومـا أَشـبه ذلـك، أَو الّتـي تُحـرِّم عليهـم أَن يبتدئـوا بعـض أَبنـاء الوطـن مـن الدّيانـات الأُخـرى بالسّـلام، أَو أَن يهنِّئوهـم بأَعيادهـم أَو يُحرِّمـون التّرحّـم علـى أَمواتهـم(٥).

ـ فتـاوى العرقلـة الاقتصاديّـة: كتلـك الّتـي تُحلِّـل للتّجّـار صِيَغًـا مـن العقـود اللّئيمـة الّتـي يصطـادون بهـا المُحتـاجَ أَو الواقـفَ علـى شـفير الإفـلاس، كبَيْـع الوِعْـدة هـذا العَقـد الّـذي هـو فـي صورتـه بَيْـع وفـي حقيقتـه قـرض ربـويٌّ بامتيـاز، ثـمّ تـرى هـؤلاء الفقهـاء المُفْتـون يحرِّمـون فـي المقابـل الاقتـراض مـن بنـوك الدّولـة، علـى الرّغـم مـن كلّ الاجتهـادات الفقهيَّـة الكثيـرة الّتـي لـم تـرَ علـى الأَقـلّ فـي القـرض الاسـتثماريّ أَيّ نَـوع مـن الرِّبـا، بـل ويحرِّمـون هـذا القـرض ولَـو كان المُقتـرِض مضطـرًّا، معطِّليـن بذلـك القاعـدة الفقهيّـة المتّفَـق عليهـا والقائلـة: الحاجـة تنـزل منزلـة الضّـرورة، ولكـنّ المُفْتيـن هنـا لا يعترفـون بضـرورات النّـاس، ولا يُقِـرُّون حاجاتهـم، فـإِن جاءهـم الشّـابّ النّاشـئ مُسـتفتِيًا فـي أَن يقتـرض مـن البنـك ليسـتقلّ بمشـروع صغيـر يمكـن أَن يكـون نـواة مؤسَّسـة أَو شـركة فـي قابـل الأَيّـام، أَوْجَفـوا عليـه خيـول الحـلال والحـرام يُرهبـون بهـا طموحاتـه وآمالـه وأَحالـوه للاقتـراض الرّبـويّ الاحتيالـيّ مـن التُّجّـار، وإِن جاءهـم الفقيـر مُسـتفتِيًا حَـول جـواز اقتراضـه مـن البنـك لأَجـل السّـكن، كان ردُّهـم: «لـك فـي الاسـتئجار فسـحة»، أَو كان جوابهـم: «اشـترِ خيمـة وَعِـشْ فـي ظلالهـا، فـإِنّ لـك فيهـا مندوحـة عـن الاقتـراض». علـى أَنّنـا لا يمكـن أَن نُخفـي فرحتنـا بالانفتـاح الاقتصـاديّ الّـذي شـهدته بُلداننـا، فقـدْ بـات بِوِسْـعِ فقهائنـا أَن يُحيلـوا هـذا المُسـتفتي إِلـى البنـوك الإِسـلاميّة الّتـي تزيـد أَرباحها/فوائدهـا علـى فوائـد بنـوك الدّولـة أَو البنـوك التّقليديّـة زيـادة ظاهـرة وواضحـة.

---

(٥) انظُر حكم التّرحّم على غير المسلم، في هذا الكتاب ص. ٨٧.

ـ فتاوى العرقلة العلميّة: ولعلّ أَبرز هذه الفتاوى تلك الّتي وَقَذَتِ الشّباب المسلم فحرّمت عليه ارتياد الجامعات لِما فيها من الاختلاط، وقد عانت الجزائر بعد تسعينيّات القرن الماضي من مثل هذه الفتاوى الّتي راح ضحيّتها آلاف الشّابات والشّبّان الجزائريّين مِمَّن تنزَّهوا عن الاختلاط، فوَقعوا، فيما بعد، في أَوْحال البطالة والعَوَز والحرمان، وكانت النّتيجة أَن انعكس ذلك في أَحيان كثيرة على المبدأ ذاته بالنّقض والارتداد، ناهيك عن خسارة البلاد الحقيقيّة لكفاءات رائعة لم يُقدَّر لها أَن تأخذ نصيبها، ولم يُتَح لها أَن تؤدّي دَورها، والمفارقة العجيبة هنا أَنّ الّذين أَفتَوا بذلك كانوا هم أَنفسهم يُدرّسون في تلك الجامعات ويعملون فيها، في تصديق تامّ لِما أَخبر به المسيح عليه السّلام: «الوَيْل لكُم يا علماء الشّريعة فإِنّكم تُحمّلون النّاس أَحمالًا وأَنتم لا تَمسّونها بإِصبع من أَصابعكم» [لوقا ١١: ٤٦].

ـ فتاوى العرقلة الحضاريّة: كتحريم التّجنُّس للمغتربين! ونقرأ في ذلك نصّ الفتوى التّالية: «وأَمّا التّجنّس: فالأَصل فيه الحرمة، لأَنّه انضمام لِراية أَو مظلّة غَير إِسلاميّة، ولأَنّه يؤدّي إِلى تقوية الأَعداء، كما هو الحاصل في هجرة الأَدمغة، ولأَنّ الجنسيّة يترتّب عليها التِزامات بواجبات قد تتنافى مع أُصول الإِسلام وأَحكامه، كالمشاركة في القتال لمسلمين أَو غَير مسلمين، والإِلزام ببعض التّكاليف الّتي لا يُقِرّها الإِسلام، ولأَنّ الرّضا بالمَقام بَيْن غَيْر المسلمين يؤدّي إِلى محبّة عاداتهم أَو التّأثّر بها واستحسانها، وبخاصّة في عقول الأَولاد، وللبيئة تأثير ملحوظ. لذا قال النّبيّ ص في ما رواه أَبو داود: «أَنا بريء من كلّ مسلم يُقيم بَيْن أَظهُر المُشركين. قالوا: يا رسول الله ولِمَ؟ قال: لا تتراءى نارهما»[٦].

(٦) د. وهبة الزحيلي، **فتاوى معاصرة**، دار الفكر، دمشق، ط. ١، ص. ٢٨٩.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

ونقرأ كذلك نصّ الفتوى التّالي: «إنّ انتماء المسلم إلى جنسيّة بلد أَو دَولة غَير مسلمة مع الإقامة فيها مُحرَّم حُرْمَة ذاتيّة، والحُرْمَة الذّاتيّة لا يُعارِضها ولا يُغالِبها أَيٌّ من المبرّرات العارضة الّتي قد يسمّيها بعض النّاس ضرورة، وكما أَنّ الماء لا يُطهِّر النّجَس العَينيّ كالدّم ولحم الخنزير والمَيْتة مهما غسل به، ومهما سرى في أَجزائه، فكذلك عوارض المبرّرات المتصوّرة لا تقوى على إزالة الحُرْمة الذّاتيّة السّارية في جَوهر هذا الانتماء وذاته». ثمّ تقول هذه الفتوى: « فهو إذًا من المحرَّمات المقطوع بِحُرمتها»(٧).

على أنَّ بيان خطأ هاتين الفَتْوَيَيْنِ وتناقضهما، وما خالطهما من شوائب وروائب، وتَوضيح إحالتهما الأُمور عن جهاتها، وإبراز خروجهما عن مُعطيات التّطوّر الإنسانيّ يحتاج إلى بحث خاصّ، ولكنْ يكفينا هنا بيان أَنّ هاتَيْن الفَتْوَيَيْنِ توقِعان ملايين السّوريّين المسلمين وسواهم في بلاد المهجر في الحَرَج والشِّدَّة. ولا شكّ في أَنّ قِسْمًا كبيرًا مِنهم يهتمّون لأَمر دينهم، ولا يرضون لأَنفسهم ارتكاب المحرّم، ولا الاقتراب منه، لكنّ هاتَيْن الفَتْوَيَيْنِ تلفحان قلوبهم بالضّيق، و تلحفان أَكبادهم بالحرَج، والمشكلة الدّاهية الّتي نُصادفها هنا أَنّ صاحب هذه الفتوى ومَنْ لَفّ لفّه يحتكرون حكم الله، فيقذفون مخالفيهم بأَلسنةٍ حِداد، لأَنّ الفتوى عندهم هي حُكْم الله يُنطَق على أَلسنتهم، ولَو عدّوها رأيًا إنسانيًّا واجتهادًا ناتجًا عن فهم النّصوص الشّرعيّة الأَصليّة ـ وهي كذلك ـ لَأَفسحوا المجال لِوُجود فتاوًى أُخرى ذات حُجّية تُخالِف فتاويهم، ولَوَسّعوا على النّاس وأَراحوهم، وأَزالوا عن كواهلهم عبء الشّعور الفادح بالوِزْر الثّقيل الجاثم، غير أَنّ لسان حال هؤلاء المُفْتين يقول: «الفتوى ههنا، والتّقوى ههنا، وما ثمّ بعدنا إلّا الضّلال». فَهُمْ وحدهم

(٧) د. محمد سعيد رمضان البوطي، **قضايا فقهيّة معاصرة**، دار الفارابي، دمشق، ط. ١، ص. ٢٠٨.

المَشْمولون بروح القدس، وهُمْ وحدهم المتفرِّدون بنعمة التّأييد الإلهيّ والتّسديد الرّبّانيّ.

ولكن هل لَهُم من الله موثَق بذلك؟

والجواب: كلّا. فالمُفتي لَيس معصومًا عن الخطأ، فقَدْ تَعْثُرُ به عجلة الرّأي، وتزلّ به قدم الاستنباط، وعلى الرّغم من وضوح هذا الأَمر فإنّني أَجدني مضطرًّا للاستشهاد بالعصر الإسلاميّ الأَوّل، فقد حفظ لنا التّاريخ كمًّا كبيرًا من استدراكات الصّحابة، رضي الله عنهم، بعضهم على بعضهم، في فتاويهم بل حتّى في قضائهم الّذي يزيد على الفتوى في قوّة الإلزام.

نعم أَنّى لهذه الفتوى هذا التّحريم القاطع في حين أَنّ عددًا كبيرًا من الفقهاء المعاصرين لا يَرَون بأسًا بهذا التّجنّس، بل ويحضّون عليه.

خلاصة الأَمر: إنّها دعوة للمُتصدّرين للفُتْيا: اتّقوا الله في هذا الشّعب الطّيّب. يسِّروا أمره ولا تُعسِّروه، وبشِّروه ولا تُنَفِّروه.

وهي تنبيه للشّعب الكريم أَن يُقلّل من سؤالاته واستفتاءاته، وأَن يأخذ بالوثيقة في أَمره، مُتذكّرًا القانون الّذي وضَعه له نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، كما روى أَحمد في مسنده: «استفتِ قلبك، واستفتِ نفسك. البرّ ما اطمأنّت إليه النّفس، واطمأنّ إليه القلب. والإثم ما حاك في النّفس، وتردّد في الصّدر، وإِن أَفتاك النّاس وأَفتوك»[٨].

---

(٨) أَحمد بن محمد بن حنبل، **مسند الإِمام أَحمد**، تحقيق شعيب الأَرناؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ٢٠٠١، ط. ١، ج. ٢٩، ص. ٥٣٣.

تخلّف الفقه الإسلاميّ في تناول مسألة الانتحار

هل يمكننا أَنْ نُخالف الفقهاء في حُكم فقهيّ يتّفقون عليه ويورِدونه وينصّون في كتبهم ومَوسوعاتهم على أنّه لا خلاف فيه، فنأتي اليوم ونُخالفهم ونقول: لقد جانبوا الصّواب في حُكمهم؟

نعم يمكننا ذلك، وهذا ما سنبينه من خلال تناوُل مسألة محدّدة هي الانتحار.

يتحرّك الفقهاء في مسألة الانتحار من خلال خريطة البحث الفقهيّ التّالية:

يعرّفونه لغةً، وحَدًّا اصطلاحيًّا، ثمّ يستفرغون وُسْعَهم في تناوُل كلّ ما يمتُّ إلى الانتحار بصِلَةٍ:

بِمَ يتحقّق الانتحار؟ يستقصون صُوَره بالفعل والإيجاب، وصُوَره بالسّلب والتّرك، ويتناوَلونه بحسْب إرادة المنتحِر: الانتحار عمدًا، والانتحار خطأً، وينصّون على حُكمه التّكليفيّ، ثمّ يتتبّعون الحالات الّتي تشبه الانتحار: الانتقال من سبب موت لآخر، وله صور عديدة، واحتمالات كثيرة:

- هجوم الواحد على صفوف العدوّ على الرّغم من تيقّنه من مَوته.
- الانتحار خَوفًا من إفشاء الأَسرار للعدوّ.
- أَمْر الشّخص غَيره بقتله: صُوَره وحالاته.
- وأَمْر الشّخص غَيره بقتل نفسه. أَيْ: قَتْل الآمِر: وصُوَره وحالاته، والإكراه على الانتحار اقتُلني وإلّا قتلتك، أَو اقتُل نفسك وإلّا قتلتك.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

ـ اشـتراك المُنتحـر مـع غَيـره، كَمَـنْ جـرَح نفسـه ثـمّ جَرَحَـه غَيْرُه فمـات مـن الجراحـة، وتتبّـع احتمـالات الاشـتراك: جـرح نفسـه خطـأً، وجرحـه غَيـره عَمْـدًا، أَو جـرح نفسـه عَمْـدًا، وجرحـه غَيـره عَمْـدًا، أَو جـرح نفسـه خطـأً وجرحـه غَيـره خطـأً، أَو جـرح نفسـه عَمْـدًا وجرحـه غيـره خطـأً.

وينصّـون كذلـك علـى الآثـار المترتّبـة علـى الانتحـار، ويتحدّثـون عـن إيمـان المُنتحِـر وكفـره، وعـن الآثـار المترتّبـة علـى كَـوْن الانتحـار خطـأً أَو عَمْـدًا، والعقوبـة والكفـارة الّتـي يتوجّـب أَداؤهـا سـواء مِـن مـال المُنتحـر أَم مِـن عاقلتـه[1]، وأَخيـرًا يتحدّثـون عـن غسـل المنتحـر وتكفينـه والصّـلاة عليـه، وهـل تُقبَـل تَوبتـه قُبَيْـل مَوتـه أَم لا؟ والخـلاف حـول ذلـك.

إنّنـا أَمـام كَـمٍّ هائـلٍ زاخـرٍ مـن المسـائل والتّفصيـلات الّتـي أَتينـا علـى ذِكـر عناوينهـا فقـط، والّتـي تخضـع لاختـلاف أَنظـار الفقهـاء واختـلاف تقديرهـم، ولذلـك فسَـوف نكـون عنـد كلّ مسـألة مـن هـذه المسـائل، فـي الأَعـمّ الأَغلـب، أَمـام أَكثـر مـن رأي، وأَمـام أَكثـر مـن اسـتدلال تُحرّكـه عقـول فقهيّـة وقانونيّـة جبّـارة تريـد أَن تضبـط أَفعـال الإِنسـان وتُعطيهـا مـا يُلائمهـا تَوْصيفًـا وتكليفًـا، باسـتلهام المذهـب الفقهـيّ المحـدّد أَو النّـصّ الإِسـلاميّ ومقاصـده وروحـه.

كان ومـا زال هـذا الزّخـم فـي ذكـر مسـائل الانتحـار ومحـاولات اسـتقرائها وحَصْـر صُوَرهـا وتأطيرهـا فقهيًّـا يعطـي شـعورًا بالامتـلاء والكفايـة والثّقـة بالمعالجـة الفقهيّـة الّتـي لا تتصـوّر وجـود مـا يُدانيهـا لـدى الأَديـان الأُخـرى أَو الأُمـم الأُخـرى، وربّمـا كان هـذا الـكلام صحيحًـا فـي العصـور الوسـطى عندمـا كان البحـث فـي الانتحـار محجـوزًا لِصالـح الفلاسـفة واللّاهوتيّيـن

---

(١) العاقلـة هـم أَقربـاء المـرء وعصبتـه، وهـؤلاء يجـب عليهـم أَن يسـاعدوا قريبهـم فـي دفـع ديّـة قتـل الخطـأ. **الموسـوعة الفقهيّـة الكويتيّـة**، وزارة الأَوقـاف والشّـؤون الإِسـلاميّة، الكويـت، ج. ٢٩، ص. ٢٢١.

والفقهاء والقانونيّين، وكانت معالجته في الدّيانتَيْن اليهوديّة والمسيحيّة قريبة الشّبه من المعالجة الإسلاميّة مع تشدّدهما أكثر، حيث إنّ هاتَيْن الدّيانتَيْن مَنَعَتا احترام المُنتحر وحرّمتا اعتباره والصّلاة عليه ودفنه في مقابرهما، ويُروى ههنا عن عمر بن عبد العزيز أنّه لم يرَ الصّلاة على مَنْ قتَل نفسه[٢]، وربّما كان في هذا الرّأي متأثّرًا بالمسيحيّة، ولكنّي لا أستطيع الجزم بذلك، وهو الرّأي الّذي لم يوافقه عليه عموم فقهاء الإسلام، ما خلا أبا يوسف القاضي صاحب الإمام أبي حنيفة.

كان عالم الدّيانات الإبراهيميّة متقارِبًا في فَهمه وتقديره لمسألة الانتحار، وإن كانت المسيحيّة قطعت شَوْطًا أشدّ هَوْلًا في التّعاطي مع هذه المسألة منذ أيّام القدّيس أوغسطين إلى ما بعد لوثر وكالفن اللّذَيْن لم يخرجا عن رؤية أوغسطين على الرّغم من نزوعهما الإصلاحيّ، وتمرّدهما على كثير من الأحكام والتّعاليم، فحتّى ذلك الحين ظلّت الكنيسة تعاقب مَنْ أَخْفَقَ في محاولة الانتحار بالمَوت[٣].

أمّا الانتحار في عالم الدّيانات الشّرقيّة في الهند وما جاوَرها في العصور القديمة فكان له شأن آخر وتقدير مختلف تمام الاختلاف، حيث كان مسموحًا به بدَوافع دينيّة أو روحيّة، وكان يتمّ بثلاث طرق مختلفة:

١ ـ الانتحار بدخول النّار، والنّار تطهّر الجسد وتنقّيه وتحرّر الرّوح.

٢ ـ الانتحار جوعًا / صِيامًا.

٣ ـ الانتحار اختناقًا بدخول كهف أو زنزانة تحت الأرض، وما زالت هذه

---

(٢) **الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة**، ج. ٦، ص. ٢٩٤.

(٣) انظُر: Elisabeth Brockmann, Selbsttötungen in der Bibel. Kirche – Umgang mit Suizid. S. 16.

الممارسة رائجة في بعض تقاليد المعلّمين[٤]. ويحدّثنا البيروني في كتابه: في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة بأَنّ عامّة الهنود لا يَميلون للانتحار إلّا الأَرملة الّتي تُؤْثِر اتّباع زَوجها، أَو الّذي ملّ حياته وتبرّم بجسده من مرضٍ عِياء وزمانة لازمة أَو شَيخوخة وضَعْف، ثمّ لا يفعله مع ذلك ذو فضيلة، وإنّما تُؤْثِره الطّبقات الدّنيا الّتي تُسمّى شودر طلبًا لِحال أَفضل مِمّا هُم عليه عند العود، أمّا الطّبقات العليا التي تسمى كشتر فلا يجوز لهم قتْل أنفسهم، ولأَجل ذلك يقتل نفسه مَنْ يقتلها مِنهم في أَوقات الكسوف، أَو يستأجر مَنْ يغرقه في نهر كنك المقدّس، ويتَولّى إِمساكه حتّى يموت[٥]، وقد فسّر الإمام الرّازي قوله تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» في ذلك السّياق فقال: «إنّما يمكن أن يُذكر هذا النّهي في مَنْ يعتقد في قَتْلِ نفسه ما يعتقده أَهل الهند»[٦].

وفي عصر التّنوير بدأت تظهر رؤًى مختلفة في مسألة الانتحار فلسفيًّا وقانونيًّا، فكان الفَيلسوف السكتلندي ديفيد هيوم ١٧١١ ـ ١٧٧٦ مِن أَوّل مَن كتَب نصًّا خالف فيه رأي الكنيسة وعنوانه: **عن الانتحار وعن خلود الرّوح** ـ *Essays on Suicide and the Immortality of the Soul*، ولكنّه لم يجرؤ على نشره، فنُشِر بُعَيْدَ وفاته عام ١٧٧٧.

وأَوصى القانونيّ الإيطاليّ سيزار بيكاريا ١٧٣٨ ـ ١٧٩٤ وهو رائد إصلاح

---

(٤) http://www.hinduwebsite.com/hinduism/h_suicide.asp.

(٥) أَبو الرّيحان البيروني، **تحقيق ما للهند: من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، حيدر آباد الدّكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، ١٩٥٨، ص. ٤٨٠. وأنظر: Erminia Colucci and David Lester, *Suicide and Culture*: *Understanding* the *Context*. Hogrefe, 2012، حول انتحار النّساء الهنديّات وإلى الفصل الّذي كتبته إرمينيا كولوتشي بعنوان: «الثّقافة والمعاني الثّقافيّة والانتحار» | «Culture, Cultural Meanings, and Suicide, p 25»

(٦) فخر الدّين الرّازي، **مفاتيح الغيب | التّفسير الكبير**، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٩٩٩، ط ٣. ج ١٠، ص ٥٨.

القانـون الجزائـيّ عالميًّـا، بعـدَم معاقبـة المُنتحـر، ومـن ذلـك التّاريـخ بـدأ رفـع العقوبـات القانونيّـة ضـدّ الانتحـار تدريجيًّـا، وكان آخرهـا رَفْعًـا عـام ١٩٦٦ فـي إِسـرائيل الّتـي عـدّت الانتحـار مُحرّمًـا وجريمـة جنائيّـة ومنعـت دَفْـنَ المُنتحـر فـي مقابـر اليهـود، ولكنّهـا اليـوم تَعُـدّ الانتحـار مرضًـا عقليًّـا، ولا تمنـع أَداء طقـوس الجنـازة اليهوديّـة علـى المُنتحـر.

وسـوف ننتظـر الطّبيـب النّفسـيّ الفرنسـيّ جـان إيتيـان إسـكيرول ١٧٧٢ ـ ١٨٤٠ ليفسّـر الانتحـار طبّيًّـا، ليُدشّـن كَسْـرَ احتـكار الفلسـفة واللّاهـوت والقانـون لهـذه القضيّـة، وسـيبدأ تنـاول جديـد لهـا علـى ضَـوء علـم النّفـس والأَعصـاب والمعـارف الطّبّيّـة الّتـي كانـت تتطـوّر تطـوّرًا مذهـلًا فـي تلـك الآونـة.

بعـد ذلـك سـيظهر عـام ١٨٩٧ كتـاب الانتحـار[٧] لرجـل يُعَـدّ أَحـد مؤسّسـي علـم الاجتمـاع الحديـث وهـو الفرنسـيّ إيميـل دوركهايـم ١٩٥٨ ـ ١٩١٧، وسـيَطرَح سـؤالَيْن أَساسـيَّيْن: مِـمَّ يتكـوّن العنصـر النّفسـيّ للانتحـار؟ ومِـمَّ يتكـوّن العنصـر الاجتماعـيّ للانتحـار؟ أَو مـا صلاتـه مـع الظّواهـر الاجتماعيّـة الأُخـرى، وبِـأَيّ الوسـائل يمكـن أَن تؤثّـر فيـه؟

قسّـم دوركهايـم الانتحـار إِلـى الأَنـواع التّاليـة، ووَصَـفَ كلّ نَـوْعٍ وَصْفًـا مُسْـهَبًا:

١ ـ الانتحار الهَوَسيّ الهذيانيّ.

٢ ـ الانتحار الملانخوليّ السَّوْداوي الاكتئابيّ.

٣ ـ الانتحار الوسواسيّ.

٤ ـ الانتحار الاندفاعيّ الأوتوماتيكيّ.

وفـي رحلـة تمتـدّ علـى مـدار ٤٧٠ صفحـة سـنُذهَل مـن تطـوّر أَدَوات البحـث فـي القـرن التّاسـع عشـر، ولا سـيّما تَوَفُّـر مـا بـات يُعـرف

(٧) إيميل دوركهايم، **الانتحار**، ترجمة حسن عَودة، وزارة الثّقافة، دمشق، ٢٠١١

بــ Moralstaistik أي: الإحصاء الأَخلاقيّ، وهـو فـرع مـن فـروع علـم الإحصـاء مرتبـط بالأَفعـال العامّـة المتعلّقـة بـإرادة الإنسـان مثـل: الـزّواج والـولادة والانحـراف والجريمـة والانتحـار، وسنُذهَل أكثـر مـن كمّيّـة الجـداول البيانيّـة الّتـي سترافق هـذا البحـث والّتـي امتـدّت سنَواتها عمومًـا مِـن سـنة ١٨٤١ وحتّـى كتابـة الكتـاب، ولا بـدّ مـن الإشـارة إلـى بعـض هـذه الجـداول لنعـرف كيـف كان يعالـج دوركهايـم موضوعـه:

ـ جـدول اطّـراد الانتحـار فـي الـدّوَل الرّئيسـة فـي أوروبـا مـن سـنة ١٨٤١ حتّـى سـنة ١٨٧٢.

ـ جـدول التّغييـرات المقارنـة بَيـن معـدّل الوَفَيّـات/ الانتحـارات وبَيـن معـدّل الوَفَيّـات العامّة.

ـ جـدول عـدد المجانيـن مـن الرّجـال والنّسـاء، وجـدول حصّـة كلّ جنـس مـن الانتحـار. وجـدول العلاقـة بيـن الانتحـار والجنـون فـي مختلـف البلـدان الأوروبيّـة.

ـ جـدول المَيْـلِ إلـى الجنـون فـي مختلـف العقائـد الدّينيّـة، وقـد تبيّـن لـه أنّ اليهـود أكثـر مَيْـلًا، يَليهـم الكاثوليـك والبروتسـتانت بنِسَـب متقاربـة.

ـ جـدول المَيْـلِ إلـى الانتحـار فـي مختلـف العقائـد الدّينيّـة فـي أوروبـا، وقـد تبيّـن لـه أن البروتسـتانت هـم فـي المرتبـة الأولـى، يليهـم الكاثوليـك، ويأتـي اليهـود فـي المرتبـة الأَخيـرة. وهـذه معضلـة يصعـب تفسـيرها أَن يكـون اليهـود أكثـر عُرضـة للجنـون، وأَقـلّ عُرضـة للانتحـار.

ـ جدْوَل علاقة الانتحار بالعِرْق والوِراثة.

ـ جدْوَل الانتحار في المراحل العمريّة المختلفة.

ـ جدْوَل الانتحار والعوامل الكَوْنيّة: التّغيّرات الحراريّة والنّزعة الجُرميّة.

ـ جـدْوَل تـوزّع الانتحـارات علـى خارطـة أوروبـا بحسـب مختلـف درجـات العـرض.

ـ جدْوَل التّوزّع الإقليميّ للانتحار في إيطاليا.
ـ جدْوَل الحصّة النّسبيّة لكلّ فصل من الكلّ السّنويّ للانتحارات في كلّ بلد.
ـ جدْوَل مقارنة التّغييرات الشّهريّة للانتحار حسب متوسّط طول النّهار في فرنسا.

وجداول أُخرى عديدة حَول لحظات الانتحار من اليوم: شروق، صباح، ظهيرة، عصر.. إلخ، وحَول أيّام الأُسبوع، وحَول فصول السّنة، وحَول الانتحار في الجيوش الأوروبيّة ونِسَبه بَين المُتطوِّعين والنّظاميّين، وحَول فئات الدّوافع: بؤس، حلم بالثّروة، هموم عائليّة، حبّ، غَيرة، فِسْق، أَمراض عقليّة، ندَم بعد ارتكاب جريمة، قرَف من الحياة، آلام جسديّة، أَسباب غَيْر معروفة وحَوْل الانتحار والمهن: التّجارة، النّقل، الصّناعة، الزّراعة، مهن حرّة، وحَوْل الانتحار والحالة المدنيّة: أَعزب، متزوّج، أَرمل... إلخ.

كان هذا الكتاب، وما رافقه من مؤلَّفات مُشابهة، مُساعِدًا على ظهور عِلْم مستقلّ يُدعى Suicidology، وهو عِلْم يتناول الانتحار من خلال الطّبّ النّفسيّ وعِلم النّفس، وفي عام ١٩٤٨ أَسّس الطّبيب النّمساويّ إروين رينجل في فيينا أَوّل مركز في العالم لِمَنْعِ الانتحار، وقد نشر هذا الطّبيب حوالي ٦٠٠ مقالة، و٢٠ كتابًا حَول الوقاية من الانتحار، والطّبّ النّفسيّ، وعِلم الأَعصاب، وعِلم النّفس الاجتماعيّ[٨]، وبعد ذلك بدأت تظهر الجمعيّات الوطنيّة لمنع الانتحار في عموم أوروبا والولايات المتّحدة الأَمريكيّة، وعلى سبيل المثال فإِنّ الجمعيّة الأَلمانيّة لمنع الانتحار *D. G. S.* تُنظّم مؤتمرَيْن سنويَّيْن، وتَنشر مجلّة فصليّة منذ عام ١٩٧٤، وتهدِف بشكل أَساسيّ لفَهْمِ ظواهر السّلوك الانتحاريّ، وبحسْب

(٨) للاطّلاع على عناوين كتب إروين رينجل وبياناتها بلغتها الألمانيّة يمكن الرّجوع إلى هذا الرّابط: https://portal.dnb.de/opac.htm?method=simpleSearch&query=118601113

هـذه الجمعيّـات فـإنّ ٩٠ ٪ مـن حـالات الانتحـار فـي الغـرب تُصنَّـف مِـن الأَمـراض العقليّـة، وأَمـراض الهَـوَس الاكتئابـيّ.

هل راعى الفقه الإسلاميّ نتائج العِلم الحديث في تناوُله الانتحار؟

هـل راعـى أَنّ معظـم أَو بعـض حـالات الانتحـار هـي حـالات مَرَضيّـة يمكـن أَن تَرفَـع عـن المـرء صفـة التّكليـف؟

والجـواب: لا. فمـا زال الفقهـاء المعاصـرون يتعاملـون مـع الانتحـار بمنطـق العصـور الوسـطى، ويأخذونـه مـن الجانـب القانونـيّ فحسْـب، فيتناولـون الانتحـار ويرتّبـون عليـه آثـاره مـن دون أَنْ يعرفـوا ماهيّتـه ومنشـأه الحقيقـيّ، ولذلـك سـوف نـرى أَهـمّ مُدوَّنـة فقهيّـة إسـلاميّة علـى الإطـلاق فـي العصـر الحديـث وهـي الموسـوعة الفقهيّـة الكوَيتيّـة الّتـي تُوَفِّـر علـى كتابتهـا أَهـمّ فقهـاء العالـم الإسـلاميّ المعاصريـن تقـول: «لا خـلاف فـي أَنّـه إذا لـم يمُـتْ مَـن حـاول الانتحـار عوقِـب علـى محاولتـه الانتحـار، لأَنّـه أَقْـدَمَ علـى قَتْـل النّفـس، الأَمـر الّـذي يُعتبـر مـن الكبائـر»[٩].

نعـم لقـد جانـب الفقهـاء الصّـواب فـي مـا اتّفقـوا عليـه، وكلمـة «معاقَبـة مَـن حـاول الانتحـار» ههنـا تُلَخِّـص تخلّـف الفقـه فـي تعاطيـه مـع هـذه المسـألة، وكأَنَّ جميـع هـؤلاء الفقهـاء الأَعـلام الّذيـن كتبـوا هـذه الموسـوعة لـم يطّلعـوا علـى حـرف واحـد ممّـا كُتِـب عـن الانتحـار منـذ القـرن الثّامـن عشـر وحتّـى اللّحظـة الرّاهنـة، فهُـم مـا زالـوا يعالجـون مسـائله الّتـي أَشـرنا إلـى عناوينهـا فـي بدايـة المقـال كمـا كانـت الكنيسـة تعالجهـا قَبْـل أَن تَظهـر الدّراسـات العلميّـة والطّبّيّـة الحديثـة، وقـد أَشـرنا إليهـا إشـارة فـي هـذا المقـال، ولذلـك فَهُـمْ لـم يُراعـوا فـي تأصيلهـم الفقهـيّ أَيَّ مُعطًـى مـن مُعطياتهـا، ولَـو راعـوا

(٩) **الموسوعة الفقهيّة الكوَيتيّة**، ج. ٦، ص. ٢٩٢.

مؤسسة دارالجديد
Dar al Jadeed

ذلـك فـإنّ مُجْمَـل تكْييفهـم سـيختلف، وسـيتوجّه لتطبيـق نظريّـة الظّـروف المخفِّفـة، وسـيتحوّل المُنتحـر مـن مجـرم إلـى شـخص يحتـاج إلـى الرّعايـة والعنايـة والاكتنـاف، مـن دون أَن يعنـي ذلـك قبولنـا فعلـه ورضانـا بـه، فنحـن عندمـا نعالـج مرضًـا ونُقِـرُّ بِوُجـوده لا يعنـي أنّنـا نرضـاه ونقبلـه، وقـد صـدق دوركهايـم نفسُـه حيـن قـال: «مـا مـن شـيء أَشـدّ تعارضًـا مـع الـرّوح العامّـة للحضـارة المحمّديّـة مـن الانتحـار»(١٠).

---

(١٠) إيميل دوركهايم، **الانتحار**، المصدر المذكور ص.٣٧، ط. ١، ص. ٤٢٤.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

المجلس الإِسلاميّ السّوريّ وفتاويه الهرِمة

١ تأسّس المجلس الإِسلاميّ السّوريّ في نيسان سنة ٢٠١٤ بِاسْم الثّورة السّوريّة، وتدثّر بعباءتها، وضرب بسيفها، وتموّل بِاسْمها، واكتسب شرعيّته بتمثيلها، في جانب مُهِمّ من جوانبها، ولكنّه لم يتمتّع بروح الثَّورة، كما ظَنَنّا أَمِلنا، فالثَّوْرة ليست ثَوْرة على النّظام الأَسديّ فحسْب، ولكنّها ثَوْرة على كلّ مظهر من مظاهر الظّلم، وعلى كلّ لمحة من لمحات عدم المساواة بَين أفراد السّوريّين، وتبتدئ مظاهر نُكوص هذا المجلس عن مفهوم الثَّوْرة نفسه من تكوين أَعضائه، ولا سيّما المسؤولين والموقِّعين على الفتاوى، الّذين لم يُشركوا معهم امرأة واحدة، وكأنّ المعاهد الشّرعيّة وكلّيّات الشّريعة لم تُخرّج حاملة ليسانس أَو ماجستير أَو دكتوراه على مدار الخمسين سنة الماضية، وكأنّ الثَّورة خَلَت من بناتها ونسائها وسيّداتها. وما كنّا لِنذكر هذه الملاحظة الجَوهريّة والأَساسيّة لو كان اسم المجلس على سبيل المثال لا الحصر المجلس الذّكوريّ الإِسلاميّ السّوريّ، أَو المجلس الرّجاليّ الإِسلاميّ السّوريّ، أَو لَو كان المجلس الكريم يؤدّي دَوْرًا تمثيليًّا في مسلسل باب الحارة، وعندها كنّا سنتقبّل أَداءه بقبول حَسَن، ونتفهّم أَن يكون مجلس العَضَوات من الذّكور حصرًا، ولا دَوْر فيه للمرأة من قريب أَو بَعيد.
وتمظهر خلل هذا المجلس، من جهة ثانية، في تركيبته المذهبيّة، فلم يتوافق اسمه مع حقيقته، فاسْمه عامٌّ، ولكنّ حقيقته مقصورة على

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

المذهب السّنّيّ فقط، مع إقصاءٍ وعدم تمثيلٍ للمذاهب والطّوائف الإسلاميّة الأُخرى، وكان يُفترض بالقائمين عليه أَن يبحثوا بحثًا جادًّا وصادقًا لتمثيل بقيّة المذاهب الإسلاميّة في سوريا من نصيريّة وإسماعيليّة وجعفريّة ودروز، فعنوان هذا المجلس هو المجلس الإسلاميّ السّوريّ، وليس المجلس الإسلاميّ السّنّيّ السّوريّ.

بدأ هذا المجلس بعد تشكيله بإطلاق الفتاوى الّتي تصدر بتوقيع جماعيّ. مرّة يوقّع على الفتوى أَربعة عشر شَيخًا، ومرّة تسعة عشر، وأُخرى اثنان وعشرون، وهكذا.

ومنذ الفتوى الأولى الّتي أَطلقها، وكانت بعنوان: فتوى حَول تنظيم الدَّولة الإسلاميّة في العراق والشّام[1] تبيّن قِصَرُ نَظَرِ المجلس، وتحيّزه، ومَيَلانه، لأَنّ معظم الأَوصاف الّتي ذكرها في هذا التّنظيم انطبقت حرفيًّا على جبهة النّصرة، ومثيلاتها من التّنظيمات المشابهة الّتي لم يأتِ المجلس على ذكرها من قريب أَو بعيد، وهذا يعني أَنّنا كنّا إزاء مَوْقِف سياسيّ يتذرّع الفقه ويتوسّل الفتوى، الّتي تبصر بعَيْن وتعمى بأُخرى، فإذا ما اختلف موقفه السّياسيّ من هذه التّنظيمات الشّبيهة عاد لإخراج هذه الفتوى نفسها وَدمَغَهم بها لأَنّها تدلّ عليهم بالمطابقة.

لقد أَطلق المجلس فتاوًى متنوّعة الأَشكال في الخُرق. فيها من كلّ طامّة مثال، ومن كلّ مصيبة أُنموذج. فتاوًى تنضح بالطّائفيّة، وتخلو من الحسّ الوَطنيّ، ولا تستوعب المُنجز الإنسانيّ العامّ، ولا تستفيد من المُنجز الفقهيّ المعاصر الخاصّ. فتاوًى يَضْرِب أَوّلها آخرها، ويَنْقُض وَسَطُها طرفَيْها. فتاوًى يرقى بعضها في آثاره إلى درجة الجريمة

(١) نصّ الفتوى كاملاً في مَوقع المجلس الإسلاميّ السّوريّ الإلكترونيّ من خلال هذا الرّابط: http://sy-sic.com/?p=263.

الإنسـانيّة الّتـي يحاسِـب عليهـا القانـون الجنائـيّ الدَّولـيّ، ولكـنّ المجلـس السّـادر الغافـل يُلقـي الـكلام علـى عواهنـه مـن دون إدراك أَبعـاده ومراميـه، ولا فهْـم مـدى دلالاتـه ومضامينـه.

فتـاوًى لا تُراعـي معنـى الوضـع الأوّل لكلمـة فتـوى، المشـتقّة مـن كلمـة الفتـيّ، فهـي رأيٌ فتـيٌّ غـضٌّ، وحالـة نضـرة رفيفـة. رأيٌ دينـيّ يسـتند إلـى المقولـة الدّينيّـة، والنّـصّ الدّينـيّ، ولكنّـه فتـيٌّ يَعتبـر اللّحظـة الرّاهنـة، ويُراعيهـا بـكلّ آفاقهـا وأَبعادهـا. رأيٌ يسـتند إلـى مخـزون هائـل مـن الآراء والفهـوم السّـابقة الّتـي قيلـت فـي المَوضـوع ذاتـه أَو فـي مـا يقاربـه، وهـو فتـيٌّ لأَنّـه لا يكرِّرهـا ولا يجترّهـا ولا يسـترجعها، بـل يسـتلهمها ويتمثّلهـا ويسـتأنس بهـا، ولا يمَّحِـق أَمامهـا، وربّمـا يحاكمهـا وينتقدهـا ويُقوِّمهـا، أَو يُطريهـا ويُشـيد بهـا. يُشـير إلـى بعضهـا عندمـا يعتقـد أَنّهـا مـا زالـت سـاريَة الصّلاحيّـة، ويُمسـك عـن بعضهـا الآخـر عندمـا يغلـب علـى ظنّـه أَنّهـا لـم تفهـم مُـراد الشّـارع، أَو لـم تَـرْقَ إلـى اسـتيعابه، أَو أَنّهـا لـم تعُـد تلائـم الزّمـان أَو المـكان أَو الإنسـان.

الفتـوى جَـوابٌ عـن سـؤال. والسّـؤال مصبـاحٌ، زجاجتـه الحضـور، وزَيْتُـهُ الرّاهنيّـة، يُـرى فيـه لسـان السّـائل وعقلـه وزمانـه ومكانـه. ويُفتـرض أَن نَجِـدَ فـي الفتـوى مَلْمَـسَ السّـؤال الغـضّ، ورائحـة ديباجتـه الطّريّـة، لأَنّ السّـؤال مُعـادٍ فـي الجـواب، لكـنّ الكثيـر مـن فتـاوى المجلـس الإسـلاميّ السّـوريّ أَبَـتْ أَن تبتـاع أَو حتّـى أَن تحتـذي مـن أسـئلتها زمانَهـا ولسـانها، وأَصـرَّت علـى اسـتعارة لغـةٍ ومصطلحـات ومقـولات ونقـولات لا تَمُـتُّ إلـى زمـن السّـؤال بِصِلَـة، ولا إلـى لغتـه بقرابـة، وأَبَـتْ إلّا أَن تكـون يابسـة بائتـة.

يُقـال السّـؤال بلسـان السّـائل وعقلـه وتفكيـره، ويَحكـي عـن حاجتـه وضرورتـه، فتأتـي الفتـوى بِأَلْسِـنَةٍ متنافـرة متدابـرة مسـتعارة مرقّعـة ملفّقـة

مـن زمـن غابـر ولغـة عاقـر. فتـاوًى لـم تصـدر عـن فقيـه ممتـاز، أو فقيـه متقِـن.

والفقيـه المتقِـن مِثْـلُ الشّـاعر المرهـف الّـذي لـم يَغْـدُ شـاعرًا إلّا بعـد خَبـزٍ وعَجْـنٍ وتـذوّقٍ وتمثُّـلٍ لآلاف الأَبيـات مـن الزّمـن الغابـر والحاضـر. آلافٌ مـن الأَبيـات الّتـي فهِمهـا واسـتوعبها وتأثّـر بهـا، وفاضَـل بينهـا بالوَعـي والـذّوق والحـسّ الأَدبـيّ العالـي، فغَـدَتْ جـزءًا مـن تكوينـه الرّوحـيّ والعقلـيّ والعاطفـيّ، فـإذا قـال شِـعرًا تجلّـى بكامـل الإبـداع والإقنـاع، ولُمِـحَ فـي براعة إيـراده ونقايـة إصـداره ذلـك المخـزون الهائـل؛ فهـو يعـرف متـى يسـتجلب الكلمـة، وأَيـن يضعهـا، ويُعمِـل عقلـه وذائقتـه فـي مـدى مناسـبتها للعصـر وأَهليّتهـا لـه. يعـرف متـى يسـتخدم التّشـبيه القديـم، والاسـتعارة السّـالفة، والكنايـة الماضيـة، وكيـف ينزّلهـا فـي نصّـه، ويلاحـم بَينهـا وبَيـن أَجزائـه، كنسّـاج يمـرّر بَيـن ضربـات مكّـوك نَوْلـه خيطـان الذّهـب بَيـن بقيّـة الخيطان، ويعـرف كيـف يُبـدع الجديـد ويُحـرزه، وكيـف يصيـد الومضـة الشّـعريّة مـن سُـجف سـماء الفكـر أَو الشّـعور، ويقدّمهـا أَمامنـا شـرارةً يحوطهـا بَيـن يدَيْـه فيخطـف العقـول والقلـوب.

يبلـغ الشّـاعر هـذه المرتبـة أَو الدّرجـة بفضـل المَوهبـة والملَكـة والحِـذْقِ والجِدّيّـة والمثابـرة والاحتـراف وسَـعَة الاطّـلاع، ونـدرك تمامًـا أَنّ نقصـان أَيّ مفـردة مـن هـذه المفـردات تحـطّ مـن درجتـه وقيمتـه، فتهـوي بـه مـن منزِلـة شـاعر إلـى شُـوَيْعِر، ومـن رُتبـة شُـوَيْعِر إلـى شُـعْرور، وهكـذا بالضّبـط يهـوي الفقيـه إلـى مرتبـة الفهيـه، حيـن تنقـص عدّتـه، ولا تتـمّ آلتـه.

ولعـلّ مـن نافلـة القَـول أَن نذكـر أَنّ اجتمـاع عشـرين شُـوَيْعِرًا أَو شُـعْرورًا لا يجعـل مـن واحدهـم شـاعرًا مطبوعًـا، ولا يصنـع منهـم مجتمِعيـن شـاعرًا مُفْلِقًـا، لأَنّ الفهـم والإبـداع ملَكتـان فرديّتـان ذاتيّتـان، ولَيسـا ملَكتَيْـنِ

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

جماعيّتَيْنِ، وما ينطبق على الشّعراء ينطبق على الفقهاء، ولنا في ذلك أَمثلة معاصرة عديدة منها ما حدث في مجمّع الفقه الإسلاميّ المُنعقِد في مكّة المكرّمة في مَقَرّ رابطة العالم الإسلاميّ سنة ١٩٧٨ الّذي جمع فقهاء من مختلف أقطار العالَم الإسلاميّ، ويَومها أَجمعوا على مسألة فقهيّة معيّنة ما خلا العلّامة الشّيخ مصطفى الزّرقا، الّذي خرق لهم إجماعهم، وثَبُتَ في الأَخير أَنّه هو وحده، مِن بين الجميع، البصير بأَعقاب الأُمور إذا التَوَتْ، وأَنّ رأيه هو الأَوْفَق والأَجدر بالحياة، وأَنّه بمفرده فاقهم مجتمِعين، فلم ينفعهم عدد، ولم تنصرهم كثرة [٢].

لقد أتحفَنا المجلس بفتاوًى لحَبَتْ جُنوبها واحدَوْدَبت ظهورها، فلا روح فتيّة، ولا لغة معاصرة، بل روح هرمة، ولغة طاعنة، ومفاهيم مسنّة متهدّمة، واختيارات لنقول وأَقوال لا تعبّر عن عقل حديد، ولا رأي سديد. وقديمًا قالت العرب: «اختيار المرء قطعةٌ من عقله». وقالت ساداتنا الصّوفيّة: «أطعِمونا طازجًا ولا تطعِمونا قديدًا».

٢ لقد حدّثتنا كُتُب الأَدب عن شاعر فُلِجَ، «فسُئل عنه رجل فقيل له: ما كان سبب فالجه؟ قال: أَكل بَيْتَيْنِ من شِعره» [٣].

أَمّا كُتُب الفقه فإنّها لم تُحدِّثنا عن فقيه فُلِج بِأَكْلِ فَتْواه، بل تركت الواقع يُحدّثنا عن فتاوًى استنام النّاس إليها فانقضّت فَوقهم، وشوّهتهم أَو أَهلكتهم، وأُخرى اسْتَذْرَوا بِظِلّها فأرسلت عليهم شُواظًا من الخُبْل، وسهامًا من العلل.

ولن أَذهب بعيدًا وأَمامي بعض فتاوى المجلس الإسلاميّ السّوريّ

(٢) المقصود بالمسألة هنا قوله بإباحة التّأمين، على خلاف الفقهاء الّذين أَجمعوا على تحريمه.

(٣) أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، **ديوان المعاني**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٤، ط. ١، ج. ١، ص. ٢٠٦.

الّتي أَصدرها لتكون مقاييس رشاد وسداد فإذا هي، مع كامل الأَسى والأَسف، بَواعث عطب وفساد.

وسأَكتفي ههنا بنُبَذٍ من فتاوى المجلس المسخوطة المعنى والفاسدة المبنى، وبالإِشارات الخاطفة لمكامن خطلها وأَدْوائها، على سبيل الإجمال وغاية الاختصار، غير مشير إِلى الأَخطاء النّحويّة وضعف الصّياغة اللّغويّة.

لقد أصرّ المجلس الكريم في الفتوى المعنونة بفتوى حَول تنظيم الدّولة الإِسلاميّة في العراق والشّام[٤] على البحث عن تَوصيفٍ فقهيّ كلاسيكيّ لتنظيم داعش. وبما أَنّ أَوصاف الجماعات السّياسيّة والعسكريّة المناوئة للسّلطة محدودة في كُتُب الفقه، فإِنّ المجلس لم يَجِدْ أمامه من وصف سوى الخوارج والبُغاة فانتزع هذا الوصف من خزانة التّاريخ وأَلقاه على جسد تنظيم داعش، وأَعطاه جميع أَحكام الخوارج والبغاة.

ولم ينتبه المجلس إِلى أَنّه بهذا التّوصيف يسبغ المشروعيّة على بشّار الأَسد، لأَنّ أَيّ جماعة مقاتلة لا تغدو من الخوارج إلّا إذا خرجت على إِمام، وسنرى أنّ هذه الفتوى تستشهد بكلام للمفسّر القرطبيّ يقول فيه: «إذا خرجَتْ على الإِمام العدل خارجةٌ باغية ولا حجّة لها قاتلهم الإمام بالمسلمين كافّةً أو مَن فيه كفاية، ويدعوهم قَبْل ذلك إلى الطّاعة والدّخول في الجماعة، فإن أَبَوا من الرّجوع والصّلح قُوتلوا، ولا يُقتل أَسيرهم، ولا يُتبع مدبّرهم، ولا يُذفّف على جريحهم، ولا تُسبى ذراريهم ولا أموالهم».

ولم ينتبه المجلس أَيضًا إِلى أَنّ من مقتضيات هذا التّوصيف أَن تأخذ

---

(٤) نصّ الفتوى في موقع المجلس الإِسلاميّ السّوريّ الإلكترونيّ عبر الرّابط التّالي: http://sy-sic.com/?p=263.

جميـع الفصائـل المقاتلـة مـن جيـشٍ حُـرّ وسـواه حُكْـم داعـش، لأَنّهـم خرجـوا علـى الإِمـام نفسـه. علـى أَنّ هـذا المجلـس فـي فتـوى التّكييـف الفقهـيّ لقتالنـا مـع النّظـام(٥) يقـدّم مسـوّغات قتـال النّظـام، ويسـتنجد بنصـوص القـرآن الكريـم وبأَقْـوال الفقهـاء لإِثبـات شـرعيّة قتـال الفصائـل للنّظـام الأَسـديّ، وعندئـذٍ فهـذه النّصـوص والأَقـوال جميعهـا تُعطـي الشّـرعيّة لداعـش أَيضًـا فـي قتالـه لهـذا النّظـام.

وكان ينبغـي علـى المجلـس الكريـم أَن يبحـث عـن وصـفٍ لهـذا التّنظيـم فـي القانـون الدَّولـيّ المعاصـر، وعندهـا لـن يقـع فـي هـذا التّناقـض، ولـن يُضفـي الشّـرعيّة علـى بشّـار الأسـد ونظامـه الدّكتاتـوريّ المجـرم مـن حيـث لا يحتسـب، ولـن يصفـه بالإِمـام مـن أَساسـه. كان يجـب عليـه أَن يولـي وجهـه إِلـى معاهـدة منظّمـة المؤتمـر الإِسـلاميّ لمكافحـة الإِرهـاب الدَّولـيّ سـنة ١٩٩٩، الّتـي اسـتندت إِلـى اتّفاقيّـات طوكيـو ولاهـاي ومونتريـال والمعاهـدات الدَّوليّـة المختصّـة بالمنظّمـات الإِرهابيّـة والجرائـم الإِرهابيّـة علـى اختـلاف صنوفهـا. هـذه الاتّفاقيّـات والمعاهـدات الّتـي أَقرّتهـا منظّمـة المؤتمـر الإِسـلاميّ بـكلّ خبرائهـا وفقهائهـا، فيسـتمدّ المجلـس الإِسـلاميّ منهـا تَوصيـف تنظيـم داعـش، وكَيفيّـة معاملتـه.

ونقـرأ فـي فتـوى التّكييـف الفقهـيّ لقتالنـا مـع النّظام مسـوّغات قتـال النّظام ومنهـا: «تحالـف هـذا النّظـام مـع الرّافضـة، وتمكينهـم مـن بـلاد المسـلمين فـي نَشْـر مذهبهـم الضّـال»، ولا أَدري كيـف أُكثّـف شـرح مشـكلات هذَيْـن السّـطرَيْن لأَنّهمـا يسـتأهلان دراسـة تفصيليّـة مسـتفيضة، ولكنّنـي أَكتفـي بالإِلماحـات التّاليـة:

يُفتـرَض فـي الفتـوى أَن تتكلّـم عـن سـوريا والسّـوريّين فـإِذا بهـا تتكلّـم عـن المسـلمين وبـلاد المسـلمين. وكأَنّ هـذا المجلـس هـو المجلـس الإِسـلاميّ

---

(٥) انظُر نصّها في الموقع الإلكترونيّ نفسه من خلال الرّابط التّالي: http://sy-sic.com/?p=1692

لداعــش الّــذي لا يعتــرف ببلــد اســمه ســوريا، وليــس المجلــس الإِســلاميّ السّــوريّ، وســوف يتكــرّر الحديــث عــن الرّافضــة الّذيــن يتحكّمــون «فــي كثيــر مــن قضايــا المســلمين»، وعــن الّذيــن «سَــطَوا علــى حُكــم المســلمين»، وعمّــن «باعــوا البــلاد وســلّموها لأَعــداء المســلمين»، وعــن «هــؤلاء الّذيــن اســتباحوا دمــاء المســلمين»، وعــن مفــاداة أَســرى النّظــام «بمــال أَو بأَســرى المســلمين»، وعــن اختيــار الحُكــم الأَنســب للأَســرى الّــذي فيــه «مراعــاة الأَصلــح والأَنفــع للمســلمين»، بــل حتّــى إنّ «مــا تعــود ملكيّته لعموم الشّــعب السّــوريّ، كآبــار النّفــط والمصانــع والمطاحــن وغيرهــا مــن الممتلــكات فإِنّهــا تُنفَــق فــي مصالــح المســلمين».

ثــمّ نــرى الاغتنــام البائــس للفــرص حيــن تأتــي الفتــوى فتَصِــفُ الرّافضــة بالمذهــب الضّــال. هَــبْ أَنّ هــذا المذهــب ضِــلٌّ ابــن ضِــلٍّ، فمــا وَجْــهُ ذِكْــر ضلالــه فــي فتــوى تتحــدّث عــن قتــال النّظــام؟! وكأَنّ الفتــوى قــد ســيقت أَصالــةً لبَيــان ضــلال الرّافضــة. هــل مَهَمَّــة المجلــس الإِســلاميّ السّــوريّ إِطــلاق أَحــكام الضّــلال والهدايــة علــى الأَديــان والفِــرَق الإِســلاميّة فــي سِــياق تناولــه التّكييــف الفقهــيّ لقتــال الفصائــل للسّــلطة الأَســديّة؟

هــل تــزول المشــكلة مــع الجنــود الشّيشــانيّين الّذيــن جلبهــم الــرّوس إِلــى أَرضنــا، لأَنّهــم إِخوتنــا فــي اللــه والمذهــب؟ إذا كان الجــواب: هــم أَعداؤنــا بغــضّ النّظــر عــن دينهــم ومذهبهــم، فليكــن جــواب المجلــس أَيضًــا: إِنّ المحتلّيــن الآخريــن مــن إِيــران وأَتباعهــا أَعداؤنــا بغــضّ النّظــر عــن دينهــم ومذهبهــم، وعندئــذٍ لا داعــيَ لذِكْــرِ المذهــب والخَــوض فــي أَوْحــال ضلالــه أَو هدايتــه.

علــى أَنّ فــي اســتخدام مصطلــح الرّافضــة شــحنة عــداء مــع طائفــة لهــا وجودهــا فــي وطننــا، وهــو اســتخدام يذكّرنــا بالتّقليــد الوهّابــيّ السّــعوديّ، ولا يُحيلنــا إِلــى تقليــد علمــاء ســوريا الأَبــرار ومشــايخها العقــلاء الّذيــن يســتخدمون مصطلــح اثنــا عشــريّة، أَو جعفريّــة، أَمّــا اســتخدام مصطلــح

رافضة فلا يكون إلّا على سبيل التّشنيع والإثارة والاستعداء، ونحن نُنَزِّهُ المجلس الإسلاميّ السّوريّ عن الوقوع في أَوْضار ذلك.

وفي الفتوى نفسها نقرأ: «هو دفاع مشروع عن النّفس ودَفْعُ عدوان وجهاد ضدّ نظام كافر أعانه على عدوانه مرتزقة».

ونتساءل: هل نقاتل النّظام لأنّه ظالم، أم لأنّه كافر؟

إذا كنّا نقاتله لأنّه ظالم فيجب ذِكْرُ ظلمه لا كفره، وإن كنّا نقاتله لكفره فكيف تقول الفتوى بعد ذلك مباشرة: «إذا تلفّظ المقاتل غير المسلم بالشّهادة في ساحات المعارك أو بعد أَسره فإنّه لا ينفعه ذلك، لأَنّنا لا نقاتل النّظام من أَجل دخوله في الإسلام، بل نقاتله لأَنّه اعتدى علينا». إنّه مثال بارز للاعتساف في ضبط الأَوصاف الّتي تترتّب عليها الأَحكام.

ويصبُّ المجلس علينا جامَ فَتْواه في حُكم الأَسير: «والحُكم في الأَسرى بإحدى هذه الأُمور الثّلاثة: القتل، المفاداة، المَنّ». ونقف هنا أَمام انتقائيّة المجلس في اجتباء أَقوالٍ على غير هُدًى، وإقصاء أُخرى على غَير بصيرة.

فلِكَي يراعي المجلس القانون الدَّوليّ العامّ الحاكم بإلغاء الرّقّ إلغاءً تامًّا فإنّه يضرب صَفْحًا عن كلام الفقهاء، ويخفي الاحتمال الرّابع في حُكْم الأَسير وهو استرقاقه واتّخاذه عبدًا أَو أَمَةً بحسْب جنسه، ولكنّنا في اللّحظة ذاتها نتساءل: هل إنّ جميع المشايخ المسؤولين عن هذه الفتوى لم تبلغ مسامعَهم اتّفاقيّةُ جنيف الثّالثة(٦) بشأن معاملة أَسرى الحرب المكوَّنة من ١٤٣ مادّة، وخمسة ملاحق، والمُقَرَّة سنة ١٩٤٩، والبروتوكول الأَوّل الإضافيّ سنة ١٩٧٧، ولذلك نرى الفتوى تَذْكُر احتمال قَتْل الأَسير بكلّ تلقائيّة، وكأَنّه حُكْم مفروغ منه، ولَو أَنّ شَيْخًا واحدًا

(٦) يمكن قراءة موادّ هذه الاتّفاقيّة باللّغة العربيّة عبر الرّابط التّالي:
https://web.archive.org/web/20160304192615/http://www1.umn.edu/humanrts/arab/b092.html.

من هؤلاء المُفتين اطّلع على هذه الاتّفاقيّة لَقال لهم: قفوا! إنّ هذه الفتوى تُعَدّ جريمة ضدّ الإنسانيّة.

لن أُناقش الفتوى فقهيًّا وكيف يغيب عنها المُنْجَز الفقهيّ المعاصر الجازم بأَنّ الأَسير لا يُقتل ولا يُعذّب، وأَكتفي بالإشارة إلى كتاب **الإسلام والقانون الدَّوليّ الإنسانيّ**(٧) للباحث الدّكتور سعد رستم الّذي أَكّد حَظْرَ قَتْلِ الأَسير وتعذيبه من خلال النّصوص الشّرعيّة الثّابتة، والتّأصيل الفقهيّ المُعتَبَر، وخلصت إلى أَنّ مصير الأَسير في الإسلام محصور في احتمالَيْن: إمّا إطلاق سراحه بلا مقابل، أَو بمقابل. لكنّ المجلس السّوريّ الإسلاميّ في غَفْلَةٍ عن ذلك.

ويا لَهَوْلِ المفارقة الّتي تضعُنا فتوى المجلس أَمامها، ففي الوقت الّذي يحلم فيه معظم السّوريّين برؤية بشّار الأَسد وزبانيّته وراء قضبان المحكمة الجنائيّة الدَّوليّة، تأتي هذه الفتوى لِتَسوق الفصائل المقاتلة إلى المكان نفسه بتطبيقهم فتوى حُكْمِ الأَسير والأَخذ بخيار قتله. فقتل الأَسير من دون مراعاة ضوابط اتّفاقيّة جنيف وموادّها وأَحكامها هو جريمة ضدّ الإنسانيّة، وإذا تكرّر واضطرد غدا جريمة حرب.

إنّ الفتوى تتحدّث عن إعدام فئات معيّنة من الأَسرى ارتكبت جرائم حرب، ولكنْ من دون أَن تشترط هذه الفتوى محاكمتهم محاكمة عادلة تتوفّر فيها جميع الضّمانات القانونيّة، وبدلًا من أَن تُطالب الفتوى بإيجاد هَيْئَة قضائيّة مُوَحَّدة على مستوى الثّورة السّوريّة كلّها تفصل في شأن هؤلاء الأَسرى، وتُوَفِّر لهم محاكمات عادلة، وتسجّل اعترافاتهم بجرائمهم، وتُوَثّق وتثبّت كلّ ذلك بالصّوت والصّورة والكتابة، وتجعله متاحًا للعالَم أَجمع، ليرى جرائم النّظام من جهة، والمحاكمات العادلة وضماناتها من جهة أُخرى. وبدلًا من ذلك تنحطّ الفتوى إلى دَرْك لا دَرْك تحته فتقول: «وينبغي تشكيل لجنة شرعيّة في كلّ كتيبة للنّظر

---

(٧) سعد رستم، **الإسلام والقانون الدّوليّ الإنسانيّ**، الهلال الأحمر القطريّ، الدّوحة، ٢٠١٥.

فـي حـال كلّ أَسـير، والحكـم الأَصلح فيـه» وهـذا يعنـي أَنّهـا تطالـب بإِنشـاء مئـات الهيئـات واللّجـان الشّـرعيّة الّتـي لـم نـرَ مـن معظـم أَربابهـا إِلّا ركاكـةً فـي العقـول وبراعـةً فـي إِحالـة الأُمـور عـن جهاتهـا وغاياتهـا.

وفـي فتـوًى حَـول عصمـة أَمـوال وأَنفـس أَهالـي مقاتلـي تنظيـم الدّولـة[٨] نقـرأ: «نـرى أَنّ التّعامـل مـع هـؤلاء تحكمـه قواعـد التّعامـل مـع الخـوارج والبُغـاة، وأَهمّهـا أَنّـه لا تُخمَّـس أَموالهـم، ولا تُسـبى نسـاؤهم، ولا يُقتَـل أَسـيرهم، ولا يُجْهَـز علـى جريحهـم، ولا يَضْمَنـون مـا كان مـن طبيعـة المعركـة مـا لـم يثبـت تواطؤهـم مـع النّظـام فـإِذا ثبـت ذلـك فـي حـقِّ بعضهـم فهُـم محاربـون مفسـدون فـي الأَرض، حُكْمُهـم حُكْـمُ جنـود النّظـام المجـرم وأَعوانـه».

مـا الّـذي نفهمـه مـن هـذا الـكلام؟ ومـا المفهـوم المخالـف الّـذي اتّفـق الأُصوليّـون علـى أَنّـه مُعتبَـر فـي نصـوص الإِفتـاء؟ يعنـي أَنّ المجلـس ينحـدر إِلـى فَهْـم داعـش ويتبنّـى مقولاتهـا، ويـدّرع فَرْوَتهـا ويسـتعير مخالبهـا وأَنيابهـا. يعنـي أَنّ هـذا المجلـس يَفتـي بجرائـم الحـرب ولا يَلـوي علـى أحـد. فَيَفتـي أَنّ جنـود النّظـام وجنـود داعـش المتواطِئيـن مـع السّـلطة الأَسـديّة تُسْـبى نسـاؤهم، ويُقتَـل أَسـيرهم، ويُجهَـز علـى جريحهـم.!

مـا عرضنـاه ههنـا قليـل مـن كثيـر! ورحـم اللـه أَبـا حيّـان التّوحيـديّ القائـل: «اللّهـم، كَثُـر غلطنـا فينـا، وطـال لَغَطُنـا علينـا، واشـتدّ الضّعـف بنـا، ونـادى منـادي العـزّ بذلّنـا، وذلّ ذليـل الهتـك علـى فضائحنـا، وامتـدّت حَيرتنـا فينـا، وترادفـت حسـرتنا منّـا، وارتـدّ نظرنـا إِلينـا، وشـمتَ بنـا عدوّنـا، وأَصبحنـا بَيـن خلقـك ملحوظيـن، وبالمَقـت والشّـنآن مَوظوبيـن، وبالقسـوة والعـدْوان مقروفيـن»[٩].

---

(٨) انظُر نصّها في موقع المجلس الإِلكترونيّ في الرّابط التّالي: http://sy-sic.com/?p=936.

(٩) أَبـو حيّـان التّوحيـدي، **الإِشـارات الإِلهيّـة**، تحقيـق عبـد الرّحمـن بـدوي، مطبعـة جامعـة فـؤاد الأَوّل، القاهـرة، ١٩٥٠، ط. ١، ص. ٥٥.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

شهْوَة التّأصيل:ضبط المزاح فقهيًّا

كـم فرحنـا بالفقـه الإسـلاميّ الخـارق، فـي مُقتبـل عمرنـا، حيـن كنّـا نَـدْرس العلـوم الشّـرعيّة وكـم ازدهَيْنـا بمطَـوَّلات كُتُبـه الّتـي يتـراوح عـدد مجلّـدات الواحـد منهـا مـا بَيـن العشـر مجلّـدات إلـى العشـرين، كـ **المبسـوط** للسّرخسـي، و**المغنّـي** لابــن قدامـة، و**المجمـوع** للنّـووي، و**المقدّمـات المُهمّـات** لابـن رشـد الجَـدّ، وكـم كانـت تسـتهْوينا فكـرة شـموليّة الفقـه لـكلّ شـاردة وواردة فـي حيـاة الإنسـان إذ يرسـم لنـا خطُواتنـا كلّهـا، بـدءًا مـن دخولنـا الحمّـام، وانتهـاءً بشُـربنا كأس الحِمـام.

وكـم كانـت تَـزْدان فـي عيوننـا أفـكار ومَواقـف، ويلتمـع بريقهـا حيـن ننظـر إليهـا مـن وراء كريسـتالة مَيْعِـة صِبـا العمـر والفكـر، فنراهـا فـي صـورة مُتداخلـة بهيجـة خلّابـة، كأنّهـا قادمـة مـن عالـم الأحـلام.

كان ذلـك الزّمـن هـو زمـن الشّـغط والتّلقّـي والتّكديـس، زمـن الافتِتـان البـريء بالكلمـات والمصطلحـات الّتـي لـم تطـرق يَومًـا سَـمْعَ عمـوم النّـاس، ولـم تُشـنّف آذانهـم.

ثـمّ جـاءت أيّـام الجامعـة ومـا بعـد الجامعـة لتكـون أيّامهـا أيّـام التّسـاؤلات والنّقـد والمحاكمـة والتّمحيـص، واكتشـاف أنّ الخـداع لا يتَوَقّـف عنـد حـدود البصـر، بـل يتجـاوزه للبصيـرة أيضًـا.

ولعـلّ مِـن أهـمّ مـا خُـدِع بـه الفقهـاء، أَو خَدَعـوا هُـمْ أنفسـهم بـه اعتقادَهم أَنّ كلّ فِعْـلٍ مـن أَفعـال الإنسـان يجـب أَن يُؤَطّـر بحُكْـم، وكلّ حركـة

أو سَكْنَة في حياته يجب أَن تُكلَّل بدليل، بعد البحث والتّفتيش والتّقميش والمُقايسة والمقاربة عن هذا الحكم وذاك الدّليل، مقرِّرين لذلك قاعدة تقول بأَنّ ما لا دليل عليه مردود[1]، فانهمَكوا في إِنتاج التّكْييفات الشّرعيّة الّتي تتفتّق عنها أَذهانهم، وفي تقعيد الضّوابط الفقهيّة الّتي تجود بها خَواطرهم، في انصِياع تامّ للرّوح التّلموديّة الشّكليّة الظّاهريّة العاشقة للإِصَرِ والأَغلال، وفي جفاء غريب عن الرّوح القرآنيّة الّتي أَرادت أَن تُعيد بناء الإِنسان، وأَن تُجدِّد تعريفه بأَنه لَيس آلةً تُضبَط من الخارج، ولا سجلًّا يجب أَن تُدمَغ كلّ ورقة من ورقاته بدمغة: هذا حلال، وهذا حرام.

دارت هذه الأَفكار في خاطري وأَنا أُقلّب صفحات كتاب **المزاح في الإسلام**، لمؤلِّفه ـ ولا بأس بنَقْل اسمه حرفيًّا كما ورد على الغلاف الخارجيّ ـ الأُستاذ الدّكتور حسن عبد الغني أَبو غدة، أُستاذ الفقه المقارَن والسّياسة الشّرعيّة في قسم الدّراسات الإِسلاميّة في كلّية التّربية في جامعة الملك سعود بالرّياض.

صدر الكتاب ضمن سلسلة دعوة الحقّ عن إدارة الدّعوة والتّعليم التّابعة لرابطة العالَم الإِسلاميّ في مكّة المكرّمة، عدد ٢١٦. أَمّا ضوابط النّشر في هذه السّلسلة فهي كما جاءت في الصّفحة الأَخيرة من الغلاف الدّاخليّ:

١ ـ أَن يقدِّم البحث خدمة للدّعوة الإِسلاميّة، ويعالِج جانبًا من مستجدّات الأُمّة وقضاياها.

٢ ـ أَن يتّصف البحث بالأَصالة والابتكار والجِدّة، والمنهجيّة العلميّة، وصحّة اللّغة وسلاسة الأُسلوب.

---

(١) محمّد بن بير علي البركوي، **رسالة المصافحة**، ضمن كتيّب المقامات، تحقيق إبراهيم صوباشي التّوقادي، دار سعادت، آستانة، ص. ٢٨.

٣ ـ أَن يكون البحث مَوضوعيًّا لا يُستهدَف به تجريح الهَيئات والشّخصيّات.

وعندما نقرأ عنوان هذا الكتاب الّذي يُفترض فيه الابتكار والجِدّة نظنّ فِعْلًا أَنّ المسلمين سلخوا طَوال القرون السّالفة أَعمارهم وهُمْ لا يمزحون ولا يضحكون، لعدم تأكّدهم من الحُكْم الشّرعي للمزاح المولِّد للضّحك، ولعدم تأصيل ذلك تأصيلًا شرعيًّا، إلى أَن جاء كتابنا هذا فقَدّم هذه الخدمة الجليلة، وبرهن بـ «الطّريقة العلميّة المؤدّية للحقائق»[٢] أنّ لا تَعارُض بَين المزاح والضّحك وبَين الإسلام، بل لقد «أَكّدت الدّراسة على ما تضمّنه الإسلام من سماحة واعتدال في السّلوك الاجتماعيّ مع الآخرين، ما دام ذلك يُدخِل السّعادة إلى القلوب، ويُفرِح النّفوس، ويَطبَع البسمة على الأَفواه، ويُرضي الله تعالى»[٣]، كما أنّه استطاع أَن يُبرهن البرهان القاطع، ويُبيِّن البَيان الوافي «العلاقة التّداخليّة المتّزنة بَين الأَحكام الشّرعيّة ووقائع الحياة العمليّة الّتي منها المزاح موضوع البحث»[٤]، من خلال «استقراء الأَقوال الفقهيّة، وغيرها من مصادرها المعتمدة، فضْلًا عن تتبُّع الأَدلّة ورَصْد الأَحداث العمليّة من سيرة النّبيّ وحياة أَصحابه وما نُقِل عن السَّلَف»[٥].

وبِعقليّة عموم الفقهاء ـ اليوم ـ الخارجة عن حدود الزّمان والمكان يُحدّثنا فقيهنا عن «حاجة النّاس إلى معرفة حُكْم الإسلام في المزاح الّذي يتكرّر وقوعه بَينهم، وقد يُثير الاختلاف والنّزاع والعداوة والبغضاء، أَو يترتّب عليه الكفر والرّدّة عن الإسلام»[٦]. وهذه هي طامّتنا الكبرى

---

(٢) أ. د. حسن عبد الغني أبو غدة، **المزاح في الإسلام**، سلسلة دعوة الحقّ، رابطة العالَم الإسلاميّ، السّنة الثّالثة والعشرون، العدد ٢١٦، ٢٠٠٦، ص. ٩.

(٣) المصدر نفسه، ص. ٧.

(٤) المصدر نفسه، ص. ٨.

(٥) المصدر نفسه، ص. ٩.

(٦) المصدر السّابق، ص. ٧.

إذ يَفتـرِض فقهاؤنـا حاجـاتٍ للنّـاس بـل يَفرضونهـا عليهـم، ويُقنعونهـم مـن ثَـمَّ بِالحاجـة إِليهـم فـي تلبِيَتهـا وإيجـاد الحلـول لهـا. ثـمّ يقـول المؤلّـف: «هـذا الموضـوع لـم يُـدرَس ـ بحسـب علمـي ـ دراسـة عامّـة شـاملة علميّـة موثقـة، ولـم يُفـرَد بالكتابـة المخصّصـة فـي مؤلَّـف مسـتقلّ»[٧]. يقـول هـذا الـكلام وفـي ظنّـه أنّـه ينطبـق عليـه المثـل القائـل: «كـم تـرك الأوّل للآخـر»، لكنّنـا عندمـا سـنُكمل عَرْضَنـا لهـذا النّتـاج سـندرك أنّـه ينطبـق عليـه مثـل آخـر: «لـو كان فـي البـوم خَيْـرٌ مـا سَـلِمَ مـن الصّائـد».

وفـي مُحـاكاة هزيلـة للعقـول الفقهيّـة العظيمـة الّتي شـهدها تاريخنـا يناقش المؤلِّـف تعريـف المُـزاح اصطلاحًـا، ثـمّ يصحّحـه فيقـول: «عرَّفـه بعـض أَهـل العِلـم بأنّـه: المباسـطة إِلـى الغَيـر علـى وجـه التّلطّـف والاسـتعطاف، دون أيّـة أذيّـة»[٨]، ثـمّ يعلِّـق علـى هـذا التّعريـف قائـلاً: «قلـتُ: هـذا التّعريف لا ينطبـق علـى المُـزاح المُطلـق، بـل ينطبـق علـى بعـض أنواعـه، وهُـو المـزاح المشـروع، لأَن للمُـزاح المُطلـق أَنواعًـا أُخـرى يأتـي بيَانهـا، وبنـاءً علـى هـذا يمكـن أَن يُعـرَّف المُـزاح المُطلـق فـي الفقـه بأنّـه: قَـوْلٌ أو فِعْـلٌ يريـد بـه صاحبـه مُداعبـة غَيـره مشـروعًا كان أو ممنوعًـا»[٩]، ودَعونـا هنـا نغتنـم الفرصـة لنُبـدي استِياءنا مـن الّذيـن يَهْرِفـون بمـا لا يعرفـون، ويدّعـون أَنّ بـاب الاجتهـاد مُغْلَـق، فهـا نحـن ندمغهـم ونُريهـم هـذه المناقشـة الفقهيّـة الّتـي تناطـح وتباطـح أعتـى التّنظيـرات الفقهيّـة يَـوم كان بـاب الاجتهـاد مفتوحًـا علـى مصراعَيْـه، بـل يَـوم كان الاجتهـاد مـن دون بـاب أَصلًا. علـى أَنّنـا نَـوَدّ أن نُسـجّل اسـتدراكًا علـى تعريـف المؤلِّـف الفاضـل حيـن حصَـر المـزاح بأنّـه قَـوْلٌ أو فِعْـلٌ إلـخ، فقَـدْ أَخبرنـا الثّقـة أنّـه رأى بِـأُمِّ عَيْنَيْـه نَوعًـا

(٧) المصدر نفسه، ص. ٧.

(٨) المصدر نفسه، ص. ١٣.

(٩) المصدر نفسه، ص. ١٤.

مـن أَنْـواع المـزاح لـم يَنتُـج عـن قَـوْل أو فِعْـل، بـل نتـج عـن امتنـاع عـن القَـوْل والفِعْـل، وقـد حقّـق يَوْمهـا نَوْبـة ضحـك عارمـة لـم تَشْـهَدِ البـلاد لهـا مثيـلًا.

ويسـتمرّ فَقيهُنـا فـي التّأطيـر والتّنظيـر فَيَضـع سـتّة ضوابـط للمُـزاح المشـروع. ولا عجـب فهـوَ يريـد مزاحًـا مؤصّـلًا تأصيـلًا فقهيًّـا! وعندهـا لا بـدّ لهـذا المـزاح مـن أن ينـوء بنَياشـين الضّوابـط والقيـود. أَمّـا هـذه الضّوابـط فهـيَ:

١ـ تحرّي الحقّ والصّدق في المزاح والبُعد عن الكذب.

٢ ـ أَن يكون المزاح يسيرًا من غَير إِفراط فيه ومداوَمة علَيه.

٣ ـ تجنّب المزاح المحرِّك للضّغائن والأَحقاد.

٤ ـ الابتعاد عن المزاح المروِّع المخيف.

٥ ـ تجنـب المـزاح مـع غيـر المحـارم إن كان يـؤدي إلـى الفاحشـة، ولا نـدري كيـف صـاغ المؤلـف هـذا الضابـط علـى هـذا الوجـه، لأن القيـود ومفهـوم المخالفـة معتبـران قطعًـا فـي كلام البشـر، ولا معنـى ههنـا لتخصيصـه «غيـر المحـارم» بهـذا الحكـم علـى الإطـلاق، لأنّ هـذا القيـد يعنـي بمفهـوم المخالفـة اسـتثناء المحـارم منـه، وجـواز المـزاح معهـم وإن كان يـؤدي إلـى الفاحشـة، وهـذه صياغـة عجيبـة.

٧ ـ ممارسة المُزاح بجميل القَول ومستحسن الفِعل(١٠).

ومرحــى لهــذه الضّوابــط الّتــي توضَــع للتّفريــق بَيْــن المُــزاح المبــاح وغَيْـر المبـاح، وإِن كان لنـا مـن ملاحظـة علـى هـذه الضّوابـط فهـيَ قلّـة عددهـا، إِذ سـتّة ضوابـط لا تكفـي لكَـي يضحـك الإِنسـان وتبـدو نواجـذه وأَضراسـه.

ولكـن دَعونـا نسـأل فقيهنـا: هـل سـأل نفسـه قبـل الخَـوض فـي كلّ هـذا

(١٠) المصدر نفسه، صص. ٣٧ ـ ٤٠.

التّحذلـق عـن معنـى كلمـة مُـزاح؟ ولِـمَ سُـمِّيَ المـزاح مزاحًـا؟ فلَـو عَلِـم أَنّ المُـزاح لـم يُـدْعَ بذلـك إلّا لأَنّـه أُزيـحَ عن الحـقّ والصّدق فصـار مُزاحًـا عنهما، لَأَدرك عَبَـث كلّ هـذه الضّوابـط الّتـي لا عمَـل لهـا سـوى إزاحـة المُـزاح عمّـا خُلـق لـه، وبُـرئ مـن أَجلـه. ولَعَلِـم أَنّـه يكفيـه وَضْـعُ شَـرْطٍ واحـد للمُـزاح لا ثانِـيَ لـه وهـو: أَلّا يكـون سـمجًا ثقيـلًا.

هل نتجنى على المؤلف؟ وهل نغمطه حقه؟

والجَـواب هـوَ فـي الفصـل الّـذي عقَـده للمـزّاح والمازحيـن فـي عصـر النّبـوّة والصّحابـة. فقـدْ أَتـى بأَمثلـة تخـرق كلّ هـذه الشّـروط والضّوابـط، فجميـع الأَمثلـة الّتـي أَوْردهـا مؤلِّفنـا الكريـم تجـرح الصّحابـة وتُدينهـم وتجعلهـم مقترفيـن للمكـروه بـل الحـرام بمُزاحهـم غَيـر المضبـوط بالضّوابط والشّـروط الشّـرعيّة الّتـي حدّدهـا وعدّدهـا، ليغـدو العـرس فـي دومـا، والطّبـل فـي حرسـتا.

فـــ «عـن أمّ سـلمة ـ رضـي اللـه عنهـا ـ أَنّ أَبـا بكـر ـ رضـي اللـه عنـه ـ خـرج تاجـرًا إلـى بُصْـرى الشّـام، ومعـه نعَيْمـان هـو ابـن عمـرو الأَنصـاري، شَـهِد العقَبَـة وبَـدْرًا والمشـاهد بعدهـا، وسُـوَيْبط بـن حرملـة وهـو بـدريّ أَيضًـا، وكان سـوَيْبط علـى الـزّاد، فقـال لـه نعيمـان: أَطعِمنـي. قـال: لا، حتّـى يجـيء أَبـو بكـر، وكان نعيمـان رجـلًا مضحـاكًا مزّاحًـا، فقـال: لَأغيظنّـك. فجـاء إلـى نـاسٍ جلبـوا ظهـرًا، فقـال: ابتاعـوا منّـي غلامًـا عربيًّـا فارهًـا نشـيطًا قويًّـا، وهـو ذو لسـان، ولعلّـه يقـول: أَنـا حُـرٌّ. فـإن كنتـم تاركيـه لذلـك فدَعـوهُ ولا تُفسـدوا علـيّ غلامـي. فقالـوا: بلـى، بـل نبتاعـه منـك بعشـر قلائـص. فأَقبـل بهـا يَسـوقها، وقـال: دونَكـم هـذا هـو، فجـاء القَـوم فقالـوا: قُـم قـد اشـتَرَيْناك. فقـال سـوَيْبط: هـو كاذب، أنـا رجـلٌ حُـرّ. فقالـوا: قـد أخبرَنـا خبـرك، فطرحـوا الحبـل فـي رقبتـه، وذهبـوا بـه، فجـاء أَبـو بكـر فأُخبـر، فذهـب هـو وأَصحابـه إليهـم فـردّوا القلائـص وأَخـذوه. فلمّـا عـادوا إلـى

النّبـيّ محمـد صلـى اللـه عليـه وسـلم وأَخبـروه الخبـر ضحـك هـو وأَصحابـه منهـا حَـوْلًا كامـلًا»[11].

وكمـا تـرَون فـإنّ مـزاح هـذا الصّحابـي، رضـي اللـه عنـه، مـزاح حـرام كمـا يُسـتنتَج مـن العَـرض علـى الشّـروط السّـابقة، فهـو أوّلًا مشـهور بأنّـه مـزّاح مِضحـاك، وهـو ثانيًـا لـم يبتعـد عـن الكـذب، وهـو ثالثًـا لـم يتجنّـب المـزاح المحـرِّك للضّغائـن والأَحقـاد، وهـو رابعًـا لـم يبتعـد عـن المـزاح المـروِّع المخيـف، وأيُّ ترويـع أَفظـع مـن فقـدان المـرء حرّيّتـه وهـو فـي طريـق سـفر. وتصـوَّروا اللّحظـات الّتـي قضاهـا سـويبط وهـو عبـد مربـوط، وقـد غـدا وحيـدًا مـع السّـادة الجُـدُد، بعـد أَن تركـه نعيمـان وذهـب بالقلـوص، وهـو خامسًـا لـم يمـارس المـزاح بجميـل القَـول ومستحسـن الفِعـل، علـى أَنّ الإدانـة هنـا لا تقتصـر علـى نعيمـان فحسْـب، بـل تتعـدّاه إِلـى مَـن ضحـك مـن هـذا المـزاح سـنة كاملـة.

أَمّـا عبـد اللـه بـن رواحـة رضـي اللـه عنـه، فينسـلّ ـ كمـا يخبرنـا المؤلِّـف ـ مـن فـراش الزَّوجيّـة، ويدلُـف إِلـى جاريـة لـه فيُواقعهـا، فتنتبـه زوجـه وتخـرج فتـراه علـى جاريَتِـه، فتعـود وتأخـذ الشّـفرة وترجـع، فيسـألها عبـد اللـه بعـد فراغـه ممّـا كان فيـه، فتقـول لـه: لَـو أَدركتُـك لَضربتُـك بهـا بَيْـن كتفَيْـك. قـال: وأَيـن كنـتُ؟ قالـت: رأيتـك علـى الجاريـة. قـال: مـا رأيتِنـي. قالـت: بلـى. قـال: فـإِنّ رسـول اللـه نهانـا أَن يقـرأَ أَحدنـا القـرآن وهـو جُنـب. قالـت فاقـرأ، فيرتجـل عبـد اللـه ثلاثـة أَبيـات مـن الشّـعر علـى أَنّهـا آيـات مـن القـرآن، وكانـت الزَّوجـة لا تحفـظ القـرآن، ولا تقـرأه فقالـت: آمنـتُ باللـه وكذّبـتُ بصـري، ثـمّ غـدا عبـد اللـه علـى رسـول اللـه فأخبـره، فضحـك حتّـى بـدت نواجـذه[12].

(١١) المصدر السّابق، ص. ١١٣.

(١٢) المصدر نفسه، ص. ٥٧.

وههنا تجريح ما بعده تجريح لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه، إذ يُتّهَم بأنّه سخر من زَوْجه، واستغلّ جهلها بالقرآن، وافتأت على القرآن الكريم، مدّعيًا أنّ شِعْره هو القرآن الموحى به من عند الله، وهل هذا إلّا مزاح مُحرَّم مَقيت يقترب من الكفر والرّدّة بحسَب شروط فقيهنا وضوابطه.

نعم إنّها شهْوَة التّأصيل والضّبط والتّقعيد حين تستبدّ بكِيان فقهائنا، فتطير بهِم خارج حدود الرّشد، وتجعلهم مجرّد متسلِّطين متحذلقين واهمين، يلتفتون ذات اليمين وذات الشّمال في حُمَيّا البحث عمّا تجاوز عنه السّابقون، ليَقوموا هم باستدراكه عليهم! وليَفرحوا بأنّهم أوّل مَن لملم هذا البحث، أو قعّد ذاك الموضوع!! ويا لَيت أنّهم يستدركون ما ينفع، أو يقدّمون ما يُقنِع، في إطار الواقعيّة والصّلاحيّة، وحاجات النّاس الفعليّة الحقيقيّة إذًا لَشكرنا لهم جهودهم، ولَأثنَينا على أعمالهم، ولَما أَسِفْنا على الأَمْوال الّتي تُهدَر في تبنّي هذه الأعمال، سواء في كلّيّات الشّريعة، أو في مراكز البحث، أو في المؤسّسات العلميّة والخَيْريَّة.

أخيرًا: أُشير إلى رأي المؤلِّف الغريب في مَنْ يحترف ما يُسمّى بالكوميديا، حيث يقول: «أمّا لَو اتّخذ الإنسان المزاح الحقّ [أي: الّذي اتّصف بالضّوابط السّتّة الّتي اشترطها المؤلِّف] مهنةً له، لإضحاك النّاس وإدخال السّرور علَيْهم فهُوَ مكروه»[١٣]! ثمّ يقول: «وقد أشار الغزالي وغيره إلى هذا فقال: «مِن الغلط العظيم أن يتّخذ الإنسان المزاح ـ أي: المباح ـ حِرْفَة يُواظب عليه ويفرط فيه». قلتُ: والظّاهر أنّ هذا يشمَل احتراف ما يُسمّى

(١٣) المصدر السّابق، ص. ٨٣.

الأعمال الكوميديّة، والرّسوم الكاريكاتوريّة ونحْوَها، وتفريغ الوقت لممارستها»(١٤).

وما أودّ لَفْتَ النّظر إلَيه هو تعبير الإمام الغزالي الّذي نأى بنفسه عن أن يعطي حُكمًا شرعيًّا، فعبّر بكلمة الغلط، وهي كلمة تتعلّق بالذَّوق والرّأي الشّخصِيَّيْن، بخلاف تعبير مؤلِّفنا وفقيهنا بكلمة مكروه فهي من الأحكام التّكليفيّة كما لا يخفى!! ويا لَلعجب: أَإضحاك النّاس وإدخال السّرور علَيهم بالمزاح الحقّ المستَوْفي لشروطه وضوابطه هو شيء مكروه!! ماذا نصنع إذًا بتراثنا الفكاهيّ الكوميديّ الكاريكاتوريّ الهائل للجاحظ وابن الجوزي وأبي حيّان التَّوحيدي والرّاغب الأصفهاني وغيرهم الكثير؟ أَين هذا من تقرير الشّيخ الأَكبر ابن عربي أَنّ مَن يتّخذ الإضحاك حرفةً، أَي الكوميديّ، هو من أَقرب المقرَّبين إلى الله، ومن أَخصّهم منزلة عنده، وأَنّه تَجَلٍّ من التّجلّيات الإلهيّة، مصداق قَوله تعالى: «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأَبْكَى» [النّجم: ٤٣](١٥).

---

(١٤) المصدر نفسه، ص. ٨٤.

(١٥) يقول الشّيخ الأكبر: «فمن النّاس مَن وفّقهم الله لِوجود أَفراح العباد على أَيديهم. أوّل درجة من ذلك مَن يُضحِك النّاس بما يُرضي الله، أَو بما لا رضا فيه ولا سخط، وهو المباح، فإنّ ذلك نعتٌ إلهيٌّ لا يشعر به، بل الجاهل يهزأ به، ولا يُقيم عنده لهذا الّذي يُضحِك النّاس وزنًا، وهو المُسمّى في العُرْف مسخرة. وأَين هو هذا الجاهل بقَدْر هذا الشّخص من قوله تعالى: «وأنّه هو أضحك وأبكى»! ولا سيّما وقد قيّدناه بما يرضى الله، أَو بما لا رضا فيه ولا سخط، فعبد الله المراقب أَحواله وآثار الحقّ في الوجود يعظم في عَينه هذا المسمّى مسخرة لذلك، وكان رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يحبّ من يُضحكه، ليُشاهد هذا الوصف الإلهيّ في مادّة، فكان أَعلم بما يرى، ولم يكن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، مِمّن يسخر به، ولا يعتقد فيه السّخرية، وحاشاه من ذلك، صلّى الله عليه وسلّم، بل كان يشهده مجلًى إلهيًّا. يعلم ذلك منه العلماء بالله، ومن هذه الحضرة [حضرة البسط الّتي يتكلّم عنها ابن عربي في هذا الباب] كان رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يمازح العجوز والصّغير. يُباسطهم بذلك ويُفرحهم».
محيي الدّين بن عربي، **الفتوحات المكّيّة**، صحّحه محمد شهاب الدّين، مطبعة بولاق المحروسة، القاهرة، ١٨٥٢، ج. ٤، ص. ٢٤٧.

ولكنّنا مع ذلك مستبشرون! فبِاستطاعتنا الآن أَن نمزح مُزاحًا مشروعًا بضَوابطه السّتّة إِن اجتهدنا وتربّصنا واقتنصنا، وبإِمكاننا أَن نستدرّ مع ذلك جميع أَنواع الضّحك بأَصواته المختلفة! ومن أَجل ذلك فَلْنَهْتِف: «لِيَعِشِ الفقه الإِسلاميّ المعاصر ولْيَحْيَ فقهاؤنا المعاصرون».

من المُفتي الماجن إلى المُفتي الدّاجن

المفتي الماجن وصفٌ أَطلقه الإمام أَبو حنيفة على صنف من المفتين يعلّمون النّاس الحِيَل الباطلة، أَو يفتونهم بجهل وحماقة، وتضرب كُتُب الفقه الحنفيّ مثالًا لذلك بأَن يعلّم المفتي المرأة الّتي تريد فراق زَوجها أَن ترتدّ عن الإِسلام، حتّى يُفسَخ زَواجها، وتَبين من زَوجها، فلا يملك الزَّوج حقّ إِرجاعها، كما كان يملكه في الطّلاق الرّجعيّ، وبعد الفسخ تعود المرأة إِلى الإِسلام وتدين به[1].

وكأَنّي بالمفتي الماجن ههنا يغدو في هذه الصّورة كهاروت وماروت اللّذين ورد ذكرهما في القرآن الكريم: «وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي

---

(١) يحدّثنا المؤرّخ الحلبيّ الشّيخ كامل الغزي عن فتاة حلبيّة كرهت زَوجها قبل أَن يدخل عليها، فلُقّنت كلمة الكفر لفسخ نكاحها، وهي لا تعلم معناها. وكان قد وصل في تلك السّنة ٧٤٧ للهجرة إلى حلب واليًا عليها الأمير سيف الدّين بيدمر البدري، وكان ذا حدّة وقسوة، فأمر الوالي الجديد «فقُطعت أُذناها وشعرها، وعُلّق ذلك على عنقها، وشُقّ أَنفها، وطيف بها على دابّة في حلب، وهي من أجمل البنات وأَحياهن، فشقّ ذلك على النّاس، وعملت النّساء عليها عزاءً في كلّ ناحية حتّى النّساء اليهود وأَنكرت القلوب قبح ذلك».

كامل بن حسين الشّهير بالغزي، **نهر الذّهب في تاريخ حلب**، دار القلم العربيّ، حلب، ١٩٩٨، ط. ٢، ج. ٣، ص. ١٥٠.

الْآخِـرَةِ مِـنْ خَـلَاقٍ وَلَبِئْـسَ مَـا شَـرَوْا بِـهِ أَنْفُسَـهُمْ لَـوْ كَانُـوا يَعْلَمُـونَ» [سـورة البقـرة: ١٠٢ ـ ١٠٣].

وفـي اختِيـار أَبـي حنيفـة هـذا الوصـف: الماجـن حـذق وعبقريّـة، فوَصْـفُ الماجـن فـي الاسـتخدام والاسـتعمال يترافـق مـع أَوصـاف: الفسـق، والخلاعة، والتّهتّـك، وقلّـة الحيـاء، والخبـث، والظُّـرف، والهـزل. وهـذه أَوصـاف تليـق بالمفتـي الماجـن وتناسـبه، ويناسـبه أَكثـر المعنـى الأَساسـيّ للكلمـة، فالمجـون كمـا يَـرِدُ فـي مختـار الصّحـاح: «أَلّا يبالـي الإنسـان مـا صنـع»[٢]، والماجـن كمـا فـي لسـان العـرب: «هـو الّـذي يرتكـب المقابـح المرديـة والفضائـح المخزيـة ولا يمضّـه عـذل عاذلـه ولا تقريـع مـن يقرعـه»، وينقـل ابـن منظـور عـن ابـن سـيده قولـه: «الماجـن مـن الرّجـال الّـذي لا يبالـي بمـا قـال ولا مـا قيـل لـه، كأَنّـه مـن غلـظ الوجـه والصّلابـة»[٣].

والحديـث عـن المفتـي الماجـن لـدى الإمـام أَبـي حنيفـة يضعنـا أَمـام عـدّة مفارقـات لـدى الإمـام نفسـه. فـإذا كان المفتـي الماجـن هـو مَـن يعلّـم النّـاس الحِيَـل والتّحايـل، فـإنّ الإمـام أَبـا حنيفـة هـو أَوّل مـن علّـم النّـاس الحِيَـل الفقهيّـة، وقـد افتخـر تلامذتـه بذلـك، وحفظـوا لنـا المسـائل العديـدة الّتـي قـدّم فيهـا الإمـام الحِيَـل، ولكـنّ تسـميَة الإمـام للمفتـي الّـذي يعلّـم النّـاس الحِيَـل بالماجـن دليـل علـى أَنّ أَبـا حنيفـة يميّـز بيـن نَوعَيـن مـن الحِيَـل: الحِيَـل الّتـي تتماشـى مـع روح الشّـرع ولا تُناقِـض مقولاتـه العامّـة، وترفـع الإِصَـر والأَغـلال عـن النّـاس، وتَرْفَـق بهـم، وتقـدّم لهـم المخـارج مـن دون أَن تُحِـلّ حرامًـا أَو تحـرّم حـلالًا وِفْـقَ مبـدأ «وَمَـنْ يَتَّـقِ اللَّـهَ يَجْعَـلْ لَـهُ مَخْرَجًـا وَيَرْزُقْـهُ مِـنْ حَيْـثُ لَا يَحْتَسِـبُ» [الطّلاق: ٢ ـ ٣]، والحِيَـل الّتـي تلتـفّ

(٢) محمّـد بـن أَبـي بكـر بـن عبـد القـادري الـرازي، **مختـار الصّحـاح**، تحقيـق يوسـف الشّـيخ محمـد، المكتبـة العصريّـة، بيـروت ـ صيـدا، ١٩٩٩، ط. ٥، ص. ٢٩٠.

(٣) أَبـا الفضـل محمّـد بـن مكـرم ابـن منظـور، **لسـان العـرب**، دار صـادر، بيـروت، ١٩٩٣، ط. ٣، ج. ١٣، ص. ٤٠٠.

على مراد الشّارع إلى درجة التّناقض معه، فتتعامل مع أَحكامه معاملة صُوَريّة محض تهتك من خلالها جميع مرادات الشّارع القائمة على العدل والإنصاف والتّسليم لله تعالى. على أَنّه ليس من شأننا الآن أَن نعدّد أَقسام الحِيَل، ولا أَن نستفيض في إيراد أَمثلتها، فهذا ممّا تكفّلت به كُتب التّراث **كإعلام الموقعين عن ربّ العالمين**[٤] لابن القيّم الجوزية وغيره، ولكن حسْبِيَ أَن أَقول: يبدو أَنّ هذه المعالجات الّتي اشتُهر بها أَبو حنيفة في إماطة العَنَت عن تصرّفات بعض النّاس دفع ثلّةً من راكِبي الفقه لتقديم حلول ونصائح ومخارج لا يمكن وصْفها إلّا بالمجون الّذي ينطَوي على جميع المعاني المصاحِبة لهذه الكلمة الّتي أَتَينا على ذكرها آنفًا، ولذلك أَطلق الإمام هذا الوصف الجديد في دوائر الفقه الإسلاميّ، أَعني: المفتي الماجن، ويبدو أنّ دُورَ الوراقة في بغداد بدأت في تلك الآونة تجمع هذه الحِيَل السّخيفة موزّعةً على أَبواب الفقه، وتقدّمها بِاسْم الإمام وتلامذته، ويحدّثنا السّرخسي في كتابه **المبسوط** أَنّ أَبا سليمان الجوزجاني، وكان من تلامذة الإمام الشّيباني، ينكر نسبة **كتاب الحِيَل** إلى محمّد بن الحسن الشّيباني، فقال: «مَنْ قال إنّ محمّدًا صنّف كتابًا سمّاه الحِيَل فلا تصدّقه، وما في أَيدي النّاس فإنّما هو ما جمعه ورّاقو بغداد، وإنّ الجّهال ينسبون على علمائنا رحِمهم الله ذلك على سبيل التّعيير، فكيف يُظَنّ بمحمّد رحمه الله أَنّه سمّى شيئًا من تصانيفه بهذا الاسم ليَكون عَوْنًا للجهّال على ما يقولون»[٥].

ولكنّ تلميذًا آخر من تلامذة الإمام الشّيباني اسمه أَبو حفص روى

(٤) محمّد بن أَبي بكر بن أَيوب ابن القيّم الجوزية، **إعلام الموقعين عن ربّ العالمين**، تحقيق محمّد عبد السّلام إبراهيم، دار الكُتُب العلميّة، بيروت، ١٩٩١، ط. ١، ج. ٣، ص. ٩١.

(٥) شمس الأَئمّة محمّد بن أَحمد السّرخسي، **المبسوط**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٣، ج. ٣٠، ص. ٢٠٩.

الكتاب عن أُستاذه، وقال إنّه من تصنيف أُستاذه الشّيباني، وقد رجّح السّرخسي هذه النّسبة واعتمدها في كتابه المبسوط. وعلّل ذلك أَنّ «الحِيَل في الأَحكام المخرِجة عن الآثام جائز عند جمهور العلماء، وإِنّما كَرِه ذلك بعض المتعسّفين لجهلهم وقلّة تأمّلهم في الكتاب والسّنّة»(٦). وواضح هنا أَنّ الحِيَل الّتي يُنكر أَبو سليمان ورودها عن الأَئمة هي غير الحِيَل الّتي رواها أَبو حفص.

ومِن المُفارقات الأُخرى الّتي تُطالعنا في هذه القضيّة أَنّ الإِمام أَبا حنيفة يدعو للحَجْرِ على المفتي الماجن بمنعه من الإِفتاء منعًا مادّيًّا، وهذا ما يُخالف توجّهه الأَساسيّ الّذي يرى في الحَجْرِ تقيّدًا لحرّيّة الإِنسان، ولذلك سوف نراه يرفض الحَجْرَ على السّفيه الّذي لا يُحسن التّصرّف بماله، فلِلسَّفيه الحرّيّة الكاملة في ماله، وهو يتحمّل تبعات تصرّفاته كلّها، إِن خَيْرًا فخَيْر أَو شرًّا فشَرّ، ويرفض الإِمام كذلك الحَجْرَ على المَدين، ويرفض عدم إِنفاذ تصرّفاته القَوْليّة، لأَنّ الحَجْرَ على الإِنسان فيه ضرر أَكثر من الضّرر اللّاحق بالدّائنين في تأخير حقوقهم، ففي إِهدار الأَقوال ضررٌ بالغ لا يعدِله تأخّر إِيفاء الدّيون، ويرى الإِمام أَنّه يمكن الجمع بين حقّ المَدين في حرّيّة القَول وتنفيذ تصرّفاته القوليّة المعبّرة عن إِرادته التّعاقديّة وبَيْن حقّ الدّائنين باستيفاء ديونهم، وذلك بحبسه وحمله على الوفاء، فضرر الحبس دون ضرر إِهدار القَول(٧).

وعلى الرّغم من فقه الإِمام في الحَجْرِ فإِنّنا نراه يستثني من ذلك ثلاثة أَصناف وهم:

المفتي الماجن الّذي يعلّم النّاس الحِيَل، والطّبيب الجاهل الّذي يؤذي

(٦) المصدر نفسه.

(٧) **الموسوعة الفقهيّة**، ج. ٣٠، ص. ٢٤٧.

مرضاه ويـؤدّي إلـى تهلكتهـم، والمُـكاري المفلـس الّـذي يأخـذ الأَمـوال مـن النّـاس ليُكْرِيَهـم دوابّ السّـفر، مـن دون أن يكـون عنـده دوابّ. وهـذا الحَجْرُ يعنـي خطـورة المفتـي الماجـن وضـرره البالـغ، وأَثـره السّـيّئ الّـذي لا يُنتج إلّا إذكاء حالـة متحذلقـة متذاكيـة لا تعـود علـى كلّ معنًـى خَيّـرٍ إلّا بالنّقـض والتّحطيـم والتّقويـض.

ولكـنّ هـذه الدّعـوة الّتـي أَطلقهـا الإمـام للحَجْـرِ علـى المفتـي الماجـن غيـرةً منـه علـى الفقـه والدّيـن والخُلـق، والّتـي تُشـير إلـى وجـود فقهـاء شـرفاء أُمنـاء فـي هـذه الأُمّـة، لـم تقـضِ علـى هـذه الظّاهـرة، وكيـف يحجـر السّـلطان علـى المفتـي الماجـن وهـو حليفـه وعبـده؟ وعَبَـدَ كلّ ذي سـلطة يُمالئـه ويُحابيـه ويُداجيـه؛ وتراثنـا الفقهـيّ يغـصّ بقصـص هـؤلاء المُفتيـن الماجنيـن، وأَكتفـي هنـا بذِكْـرِ قصّـة ـ أَوْردهـا ابـن الصّـلاح فـي كتابـه أَدب المفتـي والمسـتفتي وتناقَلَهـا عنـه آخـرون كالخطيـب التّمرتاشـي وابـن عابديـن ـ هـي أَدنـى مـا يُقـال فـي هـذا المقـام: «حكـى الباجـي عمّـن يثـق بـه أَنّـه وقعـت لـه واقعـة فأَفتَـوا فيهـا بمـا يضـرّه، فلمّـا سـأَلهم قالـوا: مـا علمنـا أَنّهـا لـك. وأَفتَـوْهُ بالرّوايـة الأُخـرى الّتـي تُوافِـق قصْـدَه. قـال الباجـي: وهـذا ممّـا لا خـلاف عليـه بيـن المسـلمين ممّـن يُعتَـدّ بـه فـي الإِجمـاع أَنّـه لا يجـوز»(٨).

فالمفتـي فـي هـذه الحالـة كلاعـب الكشـتبان الّـذي يلعـب بكشـتباناته بمهـارة فائقـة، ثـمّ يرفـع الكشـتبان الّـذي يختـاره فـإذا تحتـه الفتـوى الّتـي يحوّرهـا وِفْـقَ مـا يشـاء، يدعمـه فـي ذلـك خفّـة فـي الضّميـر، وصفاقـة فـي الوجـه، وانعـدام فـي التّقـوى، ورصيـد هائـل مـن أَقـوال متعـدّدة ومذاهـب مختلفـة وروايـات متناقضـة.

---

(٨) أبـو عمـرو عثمـان بـن عبـد الرّحمـن ابـن الصّـلاح، **أدب المفتـي والمسـتفتي**، تحقيـق د. موفـق عبـد اللـه عبـد القـادر، مكتبـة العلـوم والحكـم، المدينـة المنـورة، ٢٠٠٢، ط. ٢، ص. ١٢٥.

واليوم لو كان الإمام أبو حنيفة حيًّا بَيْننا فأَظنّ أَنّه كان سيخترع وصفًا آخر لصنف أَكثر صفاقة ومهانة وخفّة يدعوه المفتي الدّاجن، وهو المفتي الرّسميّ في ظلّ الأَنظمة القمعيّة الدّيكتاتوريّة، وهو داجن من المداجنة والمداهنة، وداجن من الدّجنّة والظّلام، وداجن من الاستئناس بمساكن المجرمين والظُّلاّم. داجن لا تسمع منه سوى البطبطة والنّقنقة والمأمأة، وما شئتَ من أَصوات الدَّواجن الأُخرى.

ويضعنا كتاب **تلبيس إبليس** للمحدِّث النّاقد، والفقيه المفسِّر، والصّوفيّ الواعظ، والفكاهيّ السّاخر ابن الجوزي، الّذي يمتلك، مثل الجاحظ، مَوْهبة الملاحظة وقوّة التّعبير، في الأَجواء الّتي يُستنبت فيها المفتي الدّاجن، وهي أَجواء الفقيه المتقرّب إلى السّلطان بالفِتْرِ والشِّبْرِ والمِتْرِ والكيلومتر، والمتزلّف إليه بالزّحف والمشي والهرولة والجَرْيِ والعَدْوِ، والّذي يخالطه ويُداهِنُه ويدّهن به. يرخّص له ما لا رخصة له، لينال من دنْياه لَعْقَة أَو قَضْمَة أَو خُضُمّة، «فيقع بذلك الفساد لثلاثة أَوْجُهٍ: الأَوّل: الأَمير. يقول لَوْلا أَنّي على صَواب لَأَنكر عليّ الفقيه وكيف لا أَكون مُصيبًا وهو يأكل من مالي.

والثّاني: العامّيّ. إِنّه يقول لا بأس بهذا الأَمير ولا بماله ولا بأَفعاله، فإنَّ فلانًا الفقيه لا يبرح عنده.

والثّالث: الفقيه. فإنّه يُفسد دينه بذلك»[٩].

ويحدّثنا ابن الجوزي عن تلبيس إبليس لهذا الصّنف من البشر: «وقد لبّس إِبليس عليهم في الدّخول على السّلطان فيقول: إِنّما ندخل لِنَشْفَعَ في مسلم، وينكشف هذا التّلبيس بأَنّه لَوْ دخَل غَيْره يشفع لَما

---

(٩) أبو الفرج عبد الرّحمن بن علي ابن الجوزي، **تلبيس إبليس**، دار الفكر للطّباعة والنّشر، بيروت، ٢٠٠١، ط. ١، ص. ١٠٩.

أَعجبه ذلك، وربّما قدح في ذلك الشّخص لتفرّده بالسّلطان [..]، وفي الجملة فالدّخول على السّلاطين خطر عظيم، لأَنَّ النّيّة قد تَحْسُن في أَوّل الدّخول، ثمّ تتغيّر بإِكرامهم وإِنعامهم أَو بالطّمع فيهم، ولا يتماسك عن مداهنتهم وترك الإِنكار عليهم، وقد كان سفيان الثّوري رضي اللّهُ عنه يقول: «ما أَخاف من إِهانتهم لي إِنّما أَخاف من إِكرامهم فيَميل قلبي إِليهم»[١٠].

للمفتي الدّاجن سِمات وعلامات نمطيّة يمكن تتبّعها في مجرى أَحداث تاريخنا الإِسلاميّ، الّذي نقع فيه على شخصيّات هي أَثمن من الدّرّ، وأُخرى أَحطّ من البعر، ونماذج تجلّي الإِنسان في أَجمل صفاته وأَرقاها، ونماذج أُخرى تبرز أَخسَّ ما فيه من رداءة ودناءة.

ولعلّ أَسوأ ما في هذه السّمات أَنّ المفتي الدّاجن هو مفتي القتل، ومشرّعه، والدّاعي إِليه، والمُطالِب به، إِذا كان ذلك يُرضي السّلطة ويعجبها، أَو إِذا كانت تريده وتطلبه، فيَسير في مَهْمَهِتِه وكأَنّه منذور لِمَهَمَّةٍ واحدة هي أَن يدمغ بفتْواه كلّ تصرّف سلطويّ يسدل المأساويّة على مصائر بعض النّاس أَو معظمهم، وكأَنّ هذه الفتْوى هي علامة الجودة «الإِيزو الّتي لا يكتمل مشهد الجريمة إِلّا بها، ولا يجوز إِلّا إِذا خُتم بخاتمها».

يتغذّى المفتي الدّاجن من ظُلمة الحدث، فيربض لا يصدر عنه نأمة، ثمّ تراه فجأة يندفع كأَنَّه الكلب المعلَّم الّذي يرسله صاحبه وراء الطّريدة، فيجري خلفها كالسّهم، ويخترقها ويأتي بها ممزّقة الأَوصال. وقد رأينا لعابه النّجس يسيل وهو يلاحق الحلّاج، وعين القضاة الهمدانيّ، والسّهروردي، والنّسيمي، وحسبي هنا أَن أَنقل تلك الزّفرة

---

(١٠) المصدر نفسه.

والتّنهيدة الّتي يُطلقها العلّامة محمّد إقبال حول السّهروردي بوَصْفه مثالًا لكلّ شهيد سال دمه بفتوًى من مُفْتٍ داجن بائس:

«بدا السهروردي وهو في رَيعان شبابه، مفكّرًا عديم النّظير في العالَم الإسلاميّ. لقد كان أكبر المعجبين به، الملك الظّاهر بن السّلطان صلاح الدّين، قد دعاه إلى حلب حيث عرض الشّابّ آراءه المستقلّة بطريقة أثارت الغيرة الشّديدة في نفوس معاصريه من علماء الكلام. هؤلاء العبيد المأجورون بتزمّتهم المتعطّش للدّماء، والّذين يَعون تمامًا قصورهم الذّاتيّ، ويعملون دَومًا على الاحتفاظ بقوّة غاشمة يُرتَكَن إليها، ويُحتمى بها. قد كتبوا إلى السّلطان صلاح الدّين بأَنّ تعاليم الشّيخ تُعَدُّ خطرًا على الإسلام، وأَنّه من الضّروريّ ـ لصلاح الدّين ـ أَن يقضيَ على الفتنة في مهدها، واقتنع السّلطان، وفي سنٍّ مبكّرة لا تتجاوز السّادسة والثّلاثين تلقّى برباطة جأش لطمة جعلته شهيدًا للحقّ، وخلّدت اسمه إلى الأَبد، والآن ذهب القتلة ومَضَوا بلا أَثر، لكنّ الفلسفة الّتي دفع ثمنها بالدّم، ما تزال حيّة نابضة، تجتذب العديد من الباحثين المخلصين عن الحقيقة»(١١).

كان أولئك الشّهداء والأَولياء وهُم في ساحة السّلخ والصّلب والإعدام يتأمّلون بثقة مُؤَثِّرة وبِعُيون مُتَوَهّجة تلك النّظرات الأُفْعَوانيّة للفقيه الماجن، ويسمعون فحيح صَوْته، وكانوا يرَوْنه كيف يمتصّ الفظيع إلى داخل نفسه كقطعة حلوى مُسْكِرة. وكانوا يُدركون بجلاء ما بعده جلاء أَنّ هذا المفتي الماجن هو الأَبتر الّذي قطع صلته مع الأَخلاق

(١١) محمّد إقبال، **تطوّر الفكر الفلسفيّ في إيران: إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلاميّة**، ترجمة أ. د. حسن محمود الشّافعي و أ. د. محمّد السّعيد جمال الدّين، الدّار الفنّيّة للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ١٩٨٩، ط. ١، ص. ٩٧.

والضّمير والرّحمة والرّأفة، وأَنّ غضبته الّتي يصدّرها ويدّعي أَنّها لله هي مجرّد تزْوير مفضوح ومهتوك ومبتذل، ولذلك فهو الأَبتر الّذي سينقطع ذكره وسيُمحى، وإن ذُكِرَ فإِنّما سيُذكر مبهمًا منكّرًا بوَصفه دالًّا على المفزع الشّائه، وباعتباره رمزًا للتّدجين الدّينيّ حين يغدو وسيلة إضافيّة من وسائل الضّغط التّابعة للدَّولة الظّالمة المتهتّكة الّتي ينمو فيها الإِرهاب كأَنّه رؤوس الشّياطين الّتي تعتمر الخُوَذ والعمائم، وتوجّه حرابها وفتاويها لخنق الكلمة في حلق مَن يحاول أَن يمسَّ سلطتها المطلقة إن لم تخنق الحلق نفسه.

يحلو للمفتي الدّاجن أَن يشيع بأَنّ هؤلاء الشّهداء إنّما قُتلوا بسَيف الشّرع الشّريف، وقد يتلقّف المؤرّخون ذلك ويثبتونه في كتبهم، ولكنّ الأَوفق والأَصدق أَن نقول: إنّهم قُتلوا بسَيف السّطوة وخدّامها، وسَيف الرّعونة وعبيدها، وسَيف المتغوّل وخنانيصه الأَوفياء البررة المتفرّغين للرّكوع والتقاط القروش، قروش المال أَو الجاه أَو المجد السّريع الزّوال.

إنّ الاطّلاع على مجريات محاكمات مَن أَتَيْنا على ذكرهم، ودَور المفتي الدّاجن في تسهيل قتلهم وتسريعه تكشف لنا عن شخصيّة هذا المفتي المجدولة من الغيرة والحسد والوشاية، وعن آليّاته الّتي يتّخذها وسيلة، وعن كيفيّة ترصّده وتربّصه وكيف ينصب الشَّرك بكلّ لؤم، ويُريغ الكَيْد بكلّ فجور، والقصّة الّتي تُروى في محاكمة الشّاعر عماد الدّين نسيمي يقشعرّ لها البدن من هَوْل افترائها وافتئاتها حيث تَذْكُر أَنَّ أَحد هؤلاء المشاركين في محاكمته كان قد أَهدى النّسيمي حذاءً ودسَّ في طيّاته ورقة كَتَب فيها سورة الإِخلاص «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد»، وفي أَثناء المحاكمة طَلَبَ من النّسيمي أَن يُرِيَهم حذاءه، ولمّا أُخْرِجَتِ الورقة من نَعْل الحذاء أَدرك النّسيمي وسط

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

شهقات الجمهور أَنّه مسفوك الدّم لا محالة، فسلّم أَمره لله تعالى، وأُعْدِم سَلْخًا كما يُسلخ الأرنب، وهو يترنّم بأَشعاره الّتي تحكي عن مواجيده واعتلاجاته(١٢).

هذا الفجور الهائل الّذي يُضاهي في قوّته قنبلة ذرّيّة ظلّ ينتقل جيلًا بعد جيل في سلسلة من المُسوخ حتّى يَومنا هذا الّذي نرى فيه المفتي الدّاجن بأُمِّ أَعيُننا يُعين الدّيكتاتور على فجرته، ويسوّغ له تشريد شعبه وتهجيره وقتله وإِبادته، متجمّلًا بارتداء وجه التّمساح الحزين الدّامع، ومتكحّلًا برعشة أَهداب الوَرِعينَ، ومتدرّعًا بسلطة قهريّة مخضِعة تجبر النّاس على الخيار بين الانحناء لها أَو الانسحاق في معتقلاتها أَو تحت ركام قنابلها وبراميلها، وفي خضمّ ذلك لا ينسى تقديم المَواعظ الدّينيّة والنّصائح الإيمانيّة، والحثّ على التّقوى، بعد أَن تدفّق بكلّ أَنواع الخزي والوضاعة في تصرّف يشبه سلوك مُشْعِل الحرائق الّذي يُحيل البيت كلّه إِلى رماد، ثمّ يطالب بأَن يُعاين الأَثاث في بعض الغرف.

(١٢) عبد الوهّاب الشّعراني، **اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر**، دار إِحياء التّراث، ومؤسّسة التّاريخ العربيّ، بَيروت، ج. ١، ص. ٣٦. ونصّ كلام الشّعراني: «سلخوا النّسيمي بحلب وعملوا له حيلة حين كان يقطعهم بالحجج وذلك أَنّهم كتبوا سورة الاخلاص وأَرشوا من يخيط النّعال وقالوا هذه ورقة محبّة وقبول فضعها لنا في أَطباق النّعل، ثمّ أَخذوا ذلك النّعل وأَهدَوه للشّيخ من طريق بعيدة فلبسه وهو لا يشعر ثمّ طلعوا لنائب حلب وقالوا له: بلغنا من طريق صحيحة أَنّ النّسيمي كتب قل هو اللّه أَحد وجعلها في طباق نعله وإِن لم تصدّقنا فأَرسِل وراءه وانظر ذلك ففعل، فاستخرجوا الورقة فسلّم الشّيخ للّه تعالى ولم يجب عن نفسه وعلم أَنّه لا بدّ أن يقتل على تلك الصّورة، وأَخبرني بعض تلامذة تلامذته أَنّه صار ينشد موشّحات في التّوحيد وهم يسلخونه حتّى عمل خمسمائة بيت وكان ينظر إِلى الّذي يسلخه ويتبسم».

الأَثَـــر الفرنســـيّ في تقنين الفقـــه الإسلامـيّ الحديث والمعاصر وصياغته في نظريّات قانونيّة

عبارتان متشابهتان يجب الوقوف عندهما، واستخلاص العِبَر منهما:

الأولـى: «إنّ عمـل نابليـون فـي تقنيـن القوانيـن الفرنسـيّة جعلـه مخلّـدًا أكثـر مـن فتوحاتـه».

والثّانيـة: «كانـت مجلّـة الأحـكام العدليّـة أعظـم أعمـال الدّولـة العثمانيّـة منـذ نشـأتها».

لقـد عهـد نابليـون إلـى لجنـة مـن أربعـة رجـال قانـون بمَهَمَّـة تقنيـن القَوانيـن وضبطهـا ، فصـدر علـى التّوالـي مـا بيـن سـنتَي ١٨٠٤ و ١٨١٠ القانـون المدنـيّ، فقانـون المرافعـات، فالقانـون التّجـاريّ، والقانـون البحـريّ، ثـمّ قانـون تحقيـق الجنايات، ثـمّ قانـون الجنايـات. وبهـذا عرفـت أوروبـا أوّل تقنيـن أوروبـيّ معاصـر مَصـوغٍ صياغـة مُحْكَمَـة منظّمة ومسـتوعبة وشـاملة، تقنيـن تجلّـت فيـه مقـولات الثّـورة الفرنسـيّة وروحهـا وآفاقهـا. ولذلـك نُقـل عـن نابليـون قولـه فـي أواخـر حياتـه: «لا تتجلّـى شـهرتي الحقيقيّـة فـي الفـوز بأربعيـن معركـة، وسـتمحو معركـة واترلـو ذكـرى انتصاراتـي. مـا لا يمكـن أن يُمحـى هـو قانونـي المدنـيّ»[١].

كان أثـر هـذا التّقنيـن علـى الدّولـة العثمانيّـة والافتتـان بـه هـو الأقـوى والأسـرع مـن بيـن جميـع الـدّول الأوروبيّـة، فأطلـق الحركـة المعروفـة باسـم

(١) انظُر: https://www.lernhelfer.de/schuelerlexikon/geschichte/artikel/code-civil-basis-fuer-ein-buergerliches-gesetzbuch

التّنظيمات الّتي بدأت سنة ١٨٣٩ بقراءة بيان خط الكلخانة الشّريف بصياغة مصطفى رشيد باشا وبلسانه[٢] أَمام أَعيان السّلطة وبحضور السّلطان عبد المجيد الأَوّل، وانتهت سنة ١٨٧٦ بصدور مجلّة الأَحكام العدليّة الّتي رعاها وأَشرف عليها أَحمد جودت باشا.

تمركزت أَعمال التّنظيمات حول نقل النُّظُم الإداريّة والقانونيّة والتّعليميّة من أوروبا، وتجلّى فيها أولى ثمرات التّغريب الّتي ظلّت تنمو بلا توقّف منذ تلك اللّحظة، وقامت على أَكتاف منظّرين وإداريّين وعسكريّين عثمانيّين يُجيدون اللّغات الأوروبيّة عمومًا، والفرنسيّة على وجه الخصوص، ويأتي على رأسهم مصطفى رشيد باشا ١٨٠٠ ـ ١٨٥٨، ومحمّد فؤاد باشا ١٨١٤ ـ ١٨٦٩، ومحمّد أَمين عالي باشا ١٨١٥ ـ ١٨٧١، وأَخيرًا أَحمد جودت باشا ١٨٢٢ ـ ١٨٩٥ الوحيد الّذي لم يُتْقِنِ الفرنسيّة.

لم يكن هؤلاء الرّجال الّذين تَعْمُرُهم النّزعة الإصلاحيّة من مشرب واحد، فمنهم مَن كان يريد أَن تُستلهَم التّجربة الفرنسيّة استلهامًا حرفيًّا، ومنهم مَن أَراد أَن تُستلهَم على سبيل الاستفادة والاستئناس، ولذلك صدرت القوانين في تلك المرحلة مرّةً على رأي الطّائفة الأولى،

(٢) استلم مصطفى رشيد باشا عدّة مناصب رفيعة في الدّولة: الصّدر الأَعظم ووزير الخارجيّة، ووالي أدرنة، وسفير السّلطنة في باريس ولندن. للاستزادة أكثر يمكن الرّجوع إلى كتاب المستشرق جورج روزن:

Rosen Georg, Geschichte der Türkei von dem Siege der Reform im Jahre 1826 bis zum Pariser Tractat vom Jahre 1856. Leipzig 1866/67. 2 Bde. p. 284.

وكتاب برنارد لويس، **ظهور تركيا الحديثة**، ترجمة: قاسم عبده قاسم وسامية محمّد، المركز القومي للتّرجمة، القاهرة، ٢٠١٦، ط. ١ ص. ١٣٥ وما بعدها. والمادّة الّتي كتبها Kemal Beydilli في الموسوعة الإسلاميّة التّركيّة Islâm Ansiklopedisi المجلّد الحادي والثّلاثين ص ٣٤٨ وما بعدها، وفيه إحالات إلى المراجع التّركيّة المهمّة حول هذه الشّخصيّة. وفي الموسوعة نفسها نقرأ في المادّة الّتي كتبها Ali Akyildiz حول التّنظيمات أَنّه «ليس من الصّحيح إسناد هذا البرنامج الإصلاحيّ المهمّ إلى مصطفى رشيد باشا وحده، فقد ظهر المرسوم بوصفه نتاجًا للدّيناميّات الدّاخليّة للإمبراطوريّة العثمانيّة لا نتاجًا للتّأثيرات الخارجيّة». انظُر: المجلّد الأَربعين مادّة: Tanzimat.

فاقتُبِسَت من التّقنين الفرنسيّ بشكل كامل، وظهرت على التّوالي بين سنتَيْ ١٨٥٠ و١٨٦٣ القوانين التّالية: القانون التّجاريّ، فالقانون الجنائيّ وقانون الطّابو، ثمّ مجموعة القوانين التّجاريّة، وأَخيرًا قانون التّجارة البحريّة، ومرّةً على رأي الطّائفة الثّانية فظهر سنة ١٨٧٦ القانون المدنيّ المسمّى بمجلّة الأَحكام العدليّة، حيث وقف وزير الحقّانيّة أي العدل أَحمد جودت باشا ضدّ رغبة الصّدر الأَعظم عالي باشا الّذي كان يطالب بتبنّي القانون المدنيّ الفرنسيّ، فاستمدّ أَحمد جودت من الفقه الحنفيّ القانون بأَكمله، ولكنْ وِفْق أُسلوب التّقنين الفرنسيّ.
هكذا شهدت السّلطنة العثمانيّة أَوّل تجربة رسميّة لقانون مدنيّ بالمعنى الحديث لكلمة قانون مدنيّ مُستَمَدّ بكامله من الفقه الإِسلاميّ، ويُواكب طريقة التّقنين الغربيّ، ويسير على هَدْيِه، من حيث التّرتيب والتّرقيم وطريقة التّعبير الآمِرَة، والاقتصار على قولٍ واحدٍ مختارٍ للعمل به.
وبدأت تظهر شروح للمجلّة على طريقة الشّرح الكلاسيكيّ ما بين المتن وشرحه لفقهاء متبحِّرين متمكّنين منهم الشّيخ خالد الأَتاسي مفتي حمص، ووالد رئيس الجمهورية هاشم الأَتاسي، والشّيخ الفقيه الحقوقيّ المسيحيّ المارونيّ سليم رستم الباز، والشّيخ الفقيه التّركيّ علي حيدر.
إِلى أَن جاء العلّامة الشّيخ مصطفى الزّرقا فتناول المجلّة بطريقة مختلفة. طريقة يحدّثنا عنها وزير المعارف السّوريّ منير العجلاني فيقول: «لم ينسج الزّرقاء على منهاج مَن سبقوه من شرّاح مجلّة الأَحكام الشّرعيّة، والّتي كانت تمثّل القانون المدنيّ العثمانيّ القديم، الّذين جعلوا الفقه فتاوًى وقضايا و جزئيّات، وإِنّما حاول أَن يدرس المجلّة كما يدرس الأَساتذة الفرنسيّون في كلّيّة الحقوق بباريس مادّة القانون

المدنـيّ، فجمَـع مـن أَحـكام القـرآن الكريـم والحديث النّبـويّ الشّـريف وآراء الفقهاء، مـن مختلـف المذاهـب، مـا يؤلّـف نظريّـات عامّـة تشـبه النّظريّـات الأوروبيّـة الحديثـة، وقـد وُفّـق فـي محاولتـه تَوفيقًـا كبيـرًا»[٣].

كان العلّامـة الشّـيخ مصطفـى الزّرقـا يُجيـد اللّغـة الفرنسـيّة، وكان متضلّعًـا متبحّـرًا فـي الفقـه الإسـلاميّ، إلـى درجـة أَن تَسـالَمَ المشـايخ والفقهاء فـي عالَمنـا المعاصـر علـى تلقيبـه بعميـد الفقـه الإسـلاميّ، وكان فـي الوقـت ذاتـه مطّلعًـا متمكّنًـا مـن النّظريّـات الحقوقيّـة الفرنسـيّة، وبهـذا انتقـل خطْـوة أُخـرى فـي معالجـة الفقـه الإسـلاميّ، وقَفَـزَ قفـزة تاليـة تَجـاوَزَ فيهـا مـا قامـت بـه المجلّـة مـن التّقنيـن علـى الطّريقـة الغربيّـة الفرنسـيّة إلـى صياغـة الفقـه الإسـلاميّ ضمـن هيـاكل النّظريّـة الحقوقيّـة الغربيّـة، ثـمّ الاقتبـاس مـن التّشـريعات الغربيّـة ممّـا لا نظيـر لـه فـي الفقـه الإسـلاميّ.

يقـول الشّـيخ الزّرقـا: «لا نأبـى الاقتبـاس، فـإنّ الحكمـة ضالّـة المؤمـن، ولكنّنـا أثريـاء فـي المـادّة، وإنّمـا نحـن بحاجـة إلـى اقتبـاس الأَسـاليب الحديثـة فـي البحـث الفقهـيّ وترتيبـه، وإلـى بعـض الأَحـكام الجديـدة الّتـي نظّمتهـا التّشـريعات للأَوضـاع الحقوقيّـة والاقتصاديّـة الحديثـة، كشـركات المسـاهمة، وعقـود التّأميـن، علـى أَن نُخْرِجَهـا علـى قواعـد فقهنـا تخريجًـا يُقيمهـا علـى أُصولـه ويَدْمُجُهـا فيـه، كمـا كان يفعـل فقهاؤنـا الأَعاظـم تجـاه الأَوضـاع والحـوادث الجديـدة الّتـي كانـوا يواجهونهـا»[٤].

لقـد قـام الشّـيخ الزّرقـا بأَهـمّ مغامـرة فقهيّـة فـي العصـر الحديـث فقَلَـبَ صياغـة الفقـه الإسـلاميّ وبنـى مـن قواعـده ومبادئـه نظريّـات عامّـة علـى غـرار النّظريّـات الحقوقيّـة الغربيّـة فـكان أَوّل مـن أَصّـل للنّظريّـات التّاليـة مجتمِعـة:

(٣) مصطفى الزّرقا، **المدخل الفقهيّ العامّ**، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٤، ط. ٢، ج. ٢، ص. ١٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣.

نظريّـة الالتــزام العامّـة | نظريّـة المُلكيّـة | نظريّـة الارتبــاط التّعاقـديّ | نظريّة الشّـروط العقديّـة | نظريّـة المؤيّـدات التّشـريعيّة | نظريّـة الأَهليّـة | نظريّـة الضّمـان.

وكان الشّـيخ الزّرقـا وهـو يُخـرج هـذه النّظريـات تباعًـا يؤثّـر ويتأثّـر فـي مَـن يُدانيـه فـي المرتبـة والتّوجّـه مـن الفقهـاء مـن أَمثـال الشّـيخ علـي الخفيـف، وتلميـذه الشّـيخ محمّـد أَبـو زهـرة، والشّـيخ فهمـي أَبـو سـنة، بـل ومـا كان يسـتنكف أَن يسـتفيد ويستشـهد بتلاميـذه أَو مَـن هُـم فـي حُكْـمِ تلاميـذه الّذيـن أَخـذوا رأس الخَيـط منـه ومـن مُجايِليـه، كالدّكتـور فتحـي الدّرينـي صاحـب نظريّـة التّعسّـف فـي اسـتعمال الحـقّ، والدّكتـور صبحـي المحمصانـي مؤلِّـف النّظريّـة العامّـة للموجبـات والعقـود فـي الشّـريعة الإِسـلاميّة، وسـواهما، ولكـن لا بـدّ مـن الإِشـارة ههنـا إِلـى مؤلِّـف مسـيحيّ قِبطـيّ ربّمـا كان لـه التّأثيـر الأَكبـر فـي لفـت نظـر الشّـيخ الزّرقـا إِلـى صياغة الفقـه الإِسـلاميّ ضمـن نظريّـات الحقـوق الغربيّـة وهـو شـفيق شـحاتة الّـذي كان سـبّاقًا فقـدّم تحـت إِشـراف الشّـيخ العلّامـة أَحمـد إِبراهيـم رسـالة دكتـوراه فـي كلّيّـة الحقـوق فـي القاهـرة سـنة ١٩٣٦، بعنـوان النّظريّـة العامّـة للالتزامـات فـي الشّـريعة الإِسـلاميّة، ونشـر مقدّمتهـا فـي السّـنة نفسـها فـي مجلّـة «الرّسـالة»(٥).

لقـد كانـت مسـيرة هـذا التّقنيـن الّـذي بـدأ سـنة ١٨٧٦، هـي مسـيرة الإِصلاح الإِسـلاميّ بوَصفهـا التّجلّـي الأَقـرب لآيـة المدافعـة القرآنيّـة الّتي تقـول: «وَلَوْلَا

(٥) ممّـا لفـت انتباهـي فـي رسـالته قولـه: «مـن السّـخف محاولـة الوصـول عـن طريـق مقارنـة الشّـرائع إِلـى إِصـدار الأَحـكام التّقويميّـة علـى هـذه الشّـرائع. فـإِنّ التّشـريع كمـا قلنـا ظاهـرة مـن الظّواهـر الاجتماعيّـة مقيّـد ككلّ ظاهـرة بظـروف الزّمـان والمـكان، ويخضـع كذلـك لمنطقـه هـو نفسـه، وإِذا كان يجـوز للغريـب عـن العلـوم القانونيّـة أَن يُدهَـش لغرابـة بعـض الأَحـكام، ففقيـه النّفـس يـرى فيهـا علـى العكـس دليـلًا جديـدًا علـى أَنّ العقـل البشـريّ قـد جاهـد وناضـل فـي مختلـف البيئـات فـي سـبيل الوصـول إِلـى الحقيقـة القانونيّـة».

دَفْعُ اللَّـهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّـهِ كَثِيرًا» [الحجّ: ٤٠]، إذ يندرج تحت المدافعة بعمومها مدافعة الأَفكار والنُّظُم والمبادئ والقِيَم والأَخلاق، مدافعة تختلط في جنباتها المزاحمة والمواءمة، والاستجابة والمقاومة، والكرّ والفرّ، وتؤدّي في النّتيجة إلى السَّنّ والشّحذ والصّقل والإرهاف، والترقّي والتّطوّر والارتقاء، ولكي ندرك بحقّ فائدة ما جناه الفقه الإسلاميّ من الاستلهام من التّقنين الفرنسيّ يجب أَن نقارن بين نمطَيْن من التّقنين: نمط التّقنين الوفيّ للتّقليد الإسلاميّ في التّرتيب والتّبويب ممثَّلًا بمجموعة الفتاوى الهنديّة والّتي تُسمّى أَيضًا الفتاوى العالمكيريّة نسبة إلى الإمبرطور الهندي أورنك زيب عالمكير ١٦١٩ ـ ١٧٠٧ الّذي أَنشأ مجلس فقهاء وأَمر بكتابتها سنة ١٦٦٢، فظهرت خالصةً ونقيّةً من شوائب الاستلهام الغربيّ والأَجنبيّ، وبين مجلّة الأَحكام العدليّة الّتي اقتبست من التّقنين الفرنسيّ طريقته وأُسلوبه، فغدت «حدثًا عظيمًا في تاريخ الفقه الإسلاميّ وحركة التّقنين منه، فَبِها تحقّق حلم ابن المقفّع منذ عهد الخليفة العباسيّ أَبي جعفر المنصور، ولكنّها ككلّ عمل مبتكر في بدايته يكون له مزايا وعيوب ويجب أَن يخضع للتّطوير والتّجديد» كما يخبرنا بذلك عميد الفقه الإسلاميّ الشّيخ مصطفى الزّرقا[٦].

(٦) المصدر السّابق، ج. ١، ص. ٢٤١.

هل يمكن أَن نضيف مصدرًا جديدًا للمصادر التّبعيّة في الإسلام؟

يقسّـم علمـاء أُصـول الفقـه مصـادر التّشـريع الإسـلاميّ إلـى قسـمَيْن: المصـادر الأَصليّـة، وهـي: القـرآن والسّـنّة والإجمـاع والقيـاس، يسـتبدل علمـاء أُصـول الفقـه الشّـيعة بالقيـاس العقـل، والمصـادر التّبعيّـة: وهـي الاستحسـان والمصلحـة المُرْسَـلة أو الاسـتصلاح، والعُـرْف، والاسـتصحاب، وشَـرْعُ مَـنْ قَبْلنـا، ومذهـب الصّحابـيّ، وسـدّ الذّرائـع، وهـذه المصـادر التّبعيّـة لـم تتوافـق عليهـا المذاهـب الإسـلاميّة، فمنهـم مَـنْ رفـض بعضهـا، ومنهـم مَـنْ ضيّـق العمـل بأَحدهـا، ومنهـم مَـنْ تَوسّـع. وكان الخـلاف فـي مصدريّـة هـذه المصـادر أَحـد بواعـث اختـلاف الفقهـاء فـي الأَحـكام الفقهيّة الّتـي يسـتنبطونها، ويـدرك ذلـك كلّ مَـنْ خالـط كُتـب أُصـول الفقـه أَدنـى مخالطـة، وقـد كتـب الأُسـتاذ الدّكتـور مصطفـى ديـب البغـا رسـالة دكتـوراه بعنـوان: **أَثـر الأَدلّـة** المختلـف فيهـا ـ مصـادر التّشـريع التّبعيّـة ـ فـي الفقـه الإسـلاميّ[١].

لكـنّ المتتبِّـع للفـروع المُعْتَمِـدة علـى هـذه المصـادر يـدرك أَيضًـا أَنّ خـلاف الأُصوليّيـن فيهـا هـو خـلاف لفظـيّ فـي كثيـر مـن الأَحيـان، حيـث يتّفقـون علـى المعنـى القابـع وراء المصـدر التّبعـيّ، ويختلفـون علـى اسـمه

(١) مصطفـى ديـب البغـا، **أَثـر الأَدلّـة المختلَـف فيهـا مصـادر التّشـريع التّبعيّـة فـي الفقـه الإِسـلاميّ**، دار الإِمـام البخـاري، دمشـق، ط. ١.

ومصطلحه، وهذا يعني أَنّ مصادر التّشريع التّبعيّة خاضعة للاجتهاد البشريّ، وما دامت كذلك فهي ليست قابلة للمناقشة أَخذًا وردًّا فقط، ولكن قابلة للزّيادة كذلك.

وأُحبّ الوقوف هنا عند المصدر التّبعيّ المسمّى شَرْعُ مَنْ قَبْلَنا، والمُراد بِشَرْعِ مَن قَبْلَنا هو ما وَرَدَ في القرآن والسّنّة من أَحكام تلك الشّرائع الّتي كان أَهل الكتاب مكلَّفين بها، من غير إِنكار لهذه الأَحكام، ومن دون أَن يدلَّ دليل على أَنّها منسوخة في حقّنا. وقد تساءل أَصحاب المذاهب الفقهيّة الإِسلاميّة: هل هذه الأَحكام شَرْع لنا؟ وهل نحن مُلزَمون بالعمل بها؟ أَم أَنّها نُقلت إِلينا على سبيل الإِخبار، وليس علينا امتثالها ولا القياس عليها. وقد اختار المالكيّة والحنفيّة والحنابلة، في قَوْل لهم، أَنَّها شَرْع لنا وحجّة يلزمنا العمل بها، ورأى الشّافعيّة أَنَّها ليست شَرْعًا لنا، وأَنَّنا لسنا مُطالَبين بالامتثال لها.

استدلّ الفقهاء الآخذون بمصدر شَرْعُ مَنْ قَبْلَنا بعدّة أَدلّة منها قَوله تعالى: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ» [الأنعام: ٩٠]، وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد ذِكْر الأَنبياء: إِبراهيم وإِسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأَيّوب ويوسف وموسى وهارون وزكريّا ويحيى وإِلياس وإِسماعيل واليَسَع ويونس ولوط ومن آبائهم وذريّتهم وإِخوانهم. فكلّ هؤلاء هم قدوة لِنبيّنا عليه الصّلاة والسّلام، بحسْب ما ورد في هذه الآية الّتي أَمرتْه بالاقتداء بِهُداهم(٢).

---

(٢) ونصّ الآية الكريمة: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٨٣، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٨٤، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ٨٥، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ٨٦، وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٨٧، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٨٨، أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ٨٩، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ٩٠» [سورة الأنعام: ٨٣ ـ ٩٠].

وقِياسًا على شَرْع مَنْ قَبْلَنا هل يمكن أَن ندعُوَ اليَوْم إِلى الاعتبار والاهتداء بشَرْع مَنْ حَوْلَنا؟ إذا كان هذا الشّرع لا يَصْدِم قَطْعِيًّا من قَطْعِيّاتنا، ولا مُحْكِمًا من مُحْكِماتنا؟

وليس المقصود بشرع مَنْ حولنا هنا الأَحكام التّشريعيّة القانونيّة نفسها فقط، ولكن طُرُق الوصول إليها بما فيها من آليّات ومراحل وهيئات ومجالس ودراسات وبحوث ومذكّرات تصبّ جميعها في مصلحة التّقنين وبَلْوَرَة التّشريع، فهنالك اليوم فَيْضٌ من المسائل المعاصرة الّتي تحتاج لتشريع وتقنين، والتّشريع لها يحتاج إِلى: فَهْمِ المسألة نفسها، وفَهْمِ أَبعادها وعلائقها، قبل الحُكْمِ عليها، ولا يَكْمَل ذلك من دون رؤية كيفيّة تعامل الأُمم المتحضّرة معها، وكيف يناقشونها على المستوى الاجتماعيّ والسّياسيّ والحقوقيّ والقانونيّ.

وكَيْ لا أَبقى في الكلام النّظريّ أَضرب مثالًا واقعيًّا يجلّي على نحو أَوْضح مرادي ومبتغاي:

هل يمكن أَخْذُ عمل مَجالِس الأَخلاقيّات في العالم المتحضّر اليوم على مَحْمَلِ الاعتبار الفقهيّ، فنستفيد منها في التّنظير والتّأطير والتّكييف الفقهيّ لِما يستجدّ ويطرأ؟

هل يمكن مطالبة المجمع الفقهيّ الإِسلاميّ في جَدّة، على سبيل المثال، أَن يكون على دراية كاملة بعمل مجلس الأَخلاق الأَلمانيّ ـ Deutscher Ethikrat ليستفيد منه باعتباره تجلّيًا من تجلّيات شرع مَنْ حولنا(٣)؟

وربّما وَجَبَ عليّ هنا أَن أَتحدّث عن هذا المجلس ببضعة سطور تَمْتينًا للفكرة، وتَوضيحًا للمثال، فهذا المجلس يرصد القضايا الأَخلاقيّة

(٣) الموقع الإِلكتروني لهذا المجلس والاطّلاع على أَعماله ومناقشاته، عبر الرابط: https://www.ethikrat.org/.

والاجتماعيّـة والعلميّـة والطّبّيّـة والقانونيّـة الّتـي تنشـأ عـن البحـوث والتّطـوّرات، خاصّـةً، فـي مجـال علـوم الحيـاة، وعَواقبهـا المُحتمَلـة بالنّسـبة إلـى الفـرد والمجتمـع. وعلـوم الحيـاة هـي العلـوم الّتـي تتعامـل مـع الكائنـات الحيّـة والّتـي تشـارك فيهـا العلـوم التّاليـة: الطّـبّ، والطّـبّ الحيَوِيّ، والصّيدلـة، والكيميـاء الحيَوِيَّـة، وعِلـم الأَحْيـاء الجُزَيْئِيَّـة، والفيزيـاء الحيَوِيَّـة، والمعلوماتيّـة الحَيَوِيّـة، وعِلـم الأَحْيـاء البشـريّ، والتّكنولوجيـا الزّراعيّـة، وعِلم التّغذيـة، والبحـوث الغذائيّـة، ويُمكـن أَن تُشـير علـوم الحيـاة أَيضًـا إلـى التّخصّصـات البِيولوجيّـة غيـر الأَصليّـة كعِلـم النّفـس والـذّكاء الاصطناعـيّ.

أُقـرّ قانـون مجلـس الأَخـلاق الأَلمانـيّ فـي ١ آب ٢٠٠٧، وعُقِـد الاجتمـاع التّأسيسـيّ فـي مبنـى الرّايخسـتاغ فـي برليـن فـي ١١ نيسـان ٢٠٠٨. يضـمّ المجلـس ستّة وعشـرين عضـوًا. يقتـرح البرلمـان نِصْفَهـم، وتقتـرح الحكومـة الفيدراليّـة نِصْفَهـم الآخـر لمـدّة أَربـع سـنوات، ومـن أَجـل الاسـتقلال يُحظّـر علـى العضـو أَن يكـون عضـوًا فـي البرلمـان أَو الحكومـة، ويُراعـى فـي اختيارهـم أَن يمثّلـوا القضايـا العلميّـة والطّبّيّـة واللّاهوتيّـة الدّينيّة والفلسـفيّة والأَخلاقيّـة والاجتماعيّـة والاقتصاديّـة والقانونيّـة.

يقـوم المجلـس بِوَظيفـة مزدَوِجـة، فهـو مُنتـدى حـوار يُعـزّز المناقشـة الاجتماعيّـة، وهـو هَيْئـة استشـاريّة، يطـوّر الآراء والتّوصيـات للعمـل السّياسـيّ أَو التّشـريعيّ، فضـلًا عـن ضمـان التّعـاون مع هَيئـات الأَخلاقيّـات الأُخـرى علـى المسـتوى الوطنـيّ أَو الدّولـيّ، ويقـدّم المجلـس تقاريـره مـرّة واحـدة سـنَوِيًّا إلـى البوندسـتاغ الأَلمانـيّ والحكومـة الفيدراليّـة حَـول أَنشـطة النّقـاش الاجتماعـيّ وحالتـه، ويجتمـع الأَعضـاء عـادةً مـرّة واحـدة فـي الشّـهر، وتكـون الاجتماعـات عامّـة مفتوحـة للجمهـور، وبالإِضافـة إلـى هـذه الجلسـات العامّـة، تجتمـع مجموعـات العمـل الّتـي يتـمّ تشـكيلها مـن الأَعضـاء أَنفسـهم علـى فتـرات غيـر منتظمـة، ويدعـم المجلـس مكتـب فـي

أكاديمية برلين براندنبورغ للعلوم، وتتحمّل الحكومة الفيدراليّة تكاليف المجلس. وفي عام ٢٠١٨ خصّص البوندستاغ الألمانيّ مبلغ ١,٨٩٥ مليون يورو ميزانيّة لعمله.

ومن أجل إعطاء صورة أَوْضح عن هذا المجلس راجعتُ أَسماء الأعضاء الحاليّين والجامعات والمراكز العلميّة الّتي يعملون فيها من أَجل معرفة الخلفيّات الّتي يأتون منها فوَجدتُها كالتّالي:

| الكنيسة الإنجيليّة اللّوثريّة | جامعة إبرهارد كارلس في توبنغن | جامعة ميونخ التّقنيّة | معهد فراونهوفر للعلاج الخلويّ والمناعة | جامعة دوسلدورف هاينريش هاينه | جامعة سيغن | جامعة رانيلاند الإنجيليّة في ليبّه | جامعة سارلاند | المركز الألمانيّ لأَبحاث السّرطان | جامعة روبرت كارل في هايدلبيرغ | جامعة جورج أغسطس في غوتنغن | الجامعة الكاثوليكيّة للعمل الاجتماعيّ | جامعة لودفيغ مكسماليان في ميونخ | جامعة كولن | جامعة أوغسبورغ | جامعة هومبولت في برلين | المجلس المركزيّ لليهود في ألمانيا | جامعة هامبورغ | جامعة بادربون، وتضمّ جامعة بادربون كلّيّة اللّاهوت الإسلاميّ، والدّكتورة منى ططري الأُستاذة في هذه الكلّيّة هي الصَّوْت المسلم في هذا المجلس، ويرأس المجلس اليَوْم في دَوْرته الحاليّة الدّكتورة ألينا بويكس، وهي أُستاذة آداب مهنة الطّبّ، ولها العديد من البحوث والدّراسات منها: الإِطار الأَخلاقيّ للاستخدام الرّشيد للمضادّات الحيَوِيّة، والآثار الأَخلاقيّة للذّكاء الاصطناعيّ في الطّبّ النّفسيّ وعِلم النّفس والعلاج النّفسيّ، آراء المرضى حول استخدام البَيانات السّريريّة في الأَبحاث بدون مُوافقة: هل هي قانونيّة أو مقبولة؟

يتناول مجلس الأَخلاق الألمانيّ عددًا كبيرًا من القضايا الّتي يدور السّجال حولها اليوم: البنوك البيولوجيّة. التّهجين بين الحيوان والإِنسان

فـي البحـث العلمـيّ. الطّـبّ التّناسـليّ. مَوضوعـات الخَـرَف وتقريـر المصيـر. المعاملـة الرّشـيدة للحيوانـات. الفوائـد والتّكاليـف فـي الرّعايـة الصّحّيّـة. التّشـخيص الجينـيّ مـا قَبْـلَ الـولادة. الحرّيّـة والمسـؤوليّة فـي العلـوم. التّبـرّع بِالجَنيـن وتبنّـي الأَجنّـة والمسـؤوليّة الأَبَوِيّـة. بحـوث الخلايـا الجذعيّة إلـخ إلـخ. وكمـا رأيْنـا فـإِنّ الأَعضـاء لا يناقشـون هـذه المَوضوعـات إلّا وهُـم فـي خضمّهـا وفـي لجّتهـا، ولذلـك فَهُـم يمتلكـون رصيـدًا معقـولًا لِتَوْصيفهـا ولِفَهْـمِ عقابيلهـا وآثارهـا ومـا يترتّـب عليهـا.

إِنّـه مثـال واحـد مـن أَمثلـة عديـدة زاخـرة وافـرة يمكـن أَن نطرحها مـن أَجل دَعْـم فكـرة تَوسـيع مصـدر شَـرْع مَـن قَبْلَنـا الّـذي اسـتنفد طاقتـه لِيَغـدو اليـوم شـرع مَـنْ حولنـا مصـدرًا مسـاعدًا فـي الاسـتهداء والاسترشـاد والاعتبار، بحيـث نسـتفيد مـن هـذه التّجربـة، ونشـكّل هَيْئاتنـا مـن المسـلمين العقـلاء العلمـاء الأَبـرار الأَخْيـار، وكمـا كانـت مراعـاة هـذه المصـادر التّبعيّـة أَحـد أَسـباب ثـراء الفقـه الإِسـلاميّ، وتنـوّع مدارسـه وآليّـات الاسـتنباط فيـه، فـإِنّ البحـث والتّطلّـع إِلـى زيـادة هـذه المصـادر يُسـهمان فـي إِغنائـه أَكثـر وفـي تَمْتينـه وإِحكامـه علـى نَحْـوٍ أَقـوى.

مؤسسة دَارالجَـديْد
Dar al Jadeed

حكم التّرحّم على غير المسلم

تمهيـــــد

نَعَيْـتُ فـي صفحتـي علـى الفيسـبوك سـنة ٢٠١٧ أَنيـس أبـي عـاد المطـران السّـابق لموارنـة حلـب، وكنـت أَعرفـه معرفـةً شـخصيّة فترحّمـتُ عليـه بمـا لمسـتُ فيـه مـن خصـال اللّطـف والدّماثـة والإخبـات، ونعَيْـتُ سـنة ٢٠٢١ المفكّـر والكاتـب والأكاديمـيّ ورجـل الدّيـن المسـيحيّ Hans Kong مترحّمًـا عليـه، وكان كمـا ذكـرتُ فـي نَعْيـي إيّـاه: «أَشـبه مـا يكـون بخبيـر نَـزْع أَلغـام الكراهيّـة وسـوء الفهـم المزروعـة فـي أَرض المؤمنيـن علـى اختـلاف أَديانهم، وكان قـد قـدّم خدمـات جليلـة للإسـلام والمسـلمين» (ولا سـيّما فـي كتابـه *Der Islam*: *Geschichte, Gegenwart, Zukunft*).

وهنالـك اليـوم بعـض المسـلمين يعترضـون علـى ذكـر أَمثـال هذَيْن السّـيّدَيْنِ بالرّحمـة مسـتندينَ إلـى تـراث فقهـيّ يمنـع عمومًـا مـن التّرحّـم علـى غيـر المسـلم، إلـى درجـة تكفيـر هـذا المترحِّم، وهـو المَوقـف الفقهـيّ التّقليديّ الّـذي يُلخّصـه أَحـد المواقـع الإلكترونيّـة الدّينيّـة بمـا يلـي:

«التّرحّـم علـى الكافـر والصّـلاة عليـه مـن المُحرّمـات المُجْمَـع عليهـا، ومـن الاعتـداء فـي الدّعـاء: لقولـه تعالـى: «مَـا كَانَ لِلنَّبِـيِّ وَالَّذِيـنَ آمَنُـوا أَنْ يَسْـتَغْفِرُوا لِلْمُشْـرِكِينَ وَلَـوْ كَانُـوا أُولِـي قُرْبَـى مِـنْ بَعْـدِ مَـا تَبَيَّـنَ لَهُـمْ أَنَّهُـمْ أَصْحَـابُ الْجَحِيـمِ» [سـورة التّوبـة: ١١٣].

وقـال شَـيخ الإِسـلام ابـن تيميّـة ـ رحمـه اللـه ـ فـي مجمـوع الفتـاوى:

وقد قال تعالى: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» [سورة الأعراف: ٥٥] في الدّعاء، ومن الاعتداء في الدّعاء: أن يسأل العبد ما لم يكن الرّبّ ليَفعله، مثل: أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم، أو المغفرة للمُشركين، ونحو ذلك.

وجاء في المَوسوعة الفقهيّة: اتّفق الفقهاء على أنّ الاستغفار للكافر محظور، بل بالَغ بعضهم، فقال: إنّ الاستغفار للكافر يقتضي كُفر مَن فَعَله؛ لأنّ فيه تكذيبًا للنّصوص الواردة الّتي تدلّ على أنّ الله تعالى لا يغفر أن يُشْرَك به، وأنّ مَن مات على كفره، فهُو من أهل النّار»[١].

كما يردّد بعضهم قَوْل الإمام النّوويّ: «وأمّا الصّلاة على الكافر، والدّعاء له بالمغفرة، فحَرامٌ بنَصّ القرآن والإجماع»[٢].

أمّا بعض طلّاب العِلم المعاصرينَ فلم يكتفوا بالأدلّة السّابقة بل راحوا يفتّشون في آي القرآن الكريم عمّا يؤكّد هذا الحكم فوَقعوا على قوله تعالى: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» [الأعراف: ١٥٦]، وأكّدوا أنّ الرّحمة لن تطال سوى المتّقين المزكّين المؤمنين بآيات الله، وأنّ الّذي يطلب الرّحمة لمَن لا يؤمن بآيات الله يعاند الله ويتألّى عليه.

تفصيلٌ وبسط

إنّ ما ذهب إليه الفقهاء في هذه المسألة هو مجرّد اجتهاد، هو أقرب للخطأ منه إلى الصّواب. تسالَموا عليه، ثمّ تداوَلوه جيلًا بَعْدَ

(١) انظُر: موقع إسلام ويب، https://www.islamweb.net.

(٢) محيي الدّين يحيى بن شرف النّووي، **المجموع شرح المهذب**، حقّقه محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة، ج. ٥، ص. ١٢٠.

جيل من دون مناقشة، ومَنْ فَحَصَه منهم ووجد فيه ثغرة عَمَدَ إلى ترقيعها وتلزيقها فأَضاف ضِغْثًا على إبّالة.

أَمّا الفقهاء الّذين أَبدوا مخالفتهم فلم يُسمَع صَوْتهم، ولم يتداول رأيهم! وسوف نُبيّن في هذا البحث أَنّ قراءة الفقهاء السّابقينَ للنّصوص الدّينيّة في هذه المسألة ليست هي القراءة الاستدلاليّة الوحيدة الّتي لا تحتمل منافِسًا أو مزاحِمًا، بل هي قراءة من جملة قراءات أُخرى يمكن عَرْضها وتقديمها، بل أَدّعي أَنّنا نقدّم رؤية تتجنّب المشكلات الّتي أَوْقع الفقهاء أَنفسهم فيها من خلال قراءتهم المتسرّعة وغير المتثبّتة.

وأَوّل الملاحظات الّتي أَسوقها حول قراءتهم ملاحظتان:

الأولى: خَلْطُهم بَيْن المصطلحات القرآنية وعدم التّفريق بَيْن المُشرِك، والكافر، والكتابيّ، ودَمْجُهم جميعًا في لفظٍ واحدٍ هو الكافر، علمًا أَنّ القرآن الكريم لا يدمجهم هذا الدّمج في أَحكامه، بل يُفصّل ويفرّق حتّى في المصطلح الواحد، فيعرض لمراتب وحالات ودرجات مختلفة، وكلّ حالة من هذه الحالات لها حُكم مختلف ومُقتضى مغاير. إنّ هذا الخلط في المصطلحات يقف وراء الكثير من الأَخطاء في الأَحكام والتّجاوز فيها، وعسى أَن يسعفنا الحظّ مستقبَلًا لإِفراد هذه الظّاهرة ببحث مستقلّ.

الثّانية: افتراضهم معاني ومقتضيات وإلزامات يُلزمون بها المترحِّم من دون أَن يلتزموا هم أَنفسهم بها، ويبنون عليها حُكمهم الّذي يصل إلى حدّ التّكفير كما رأينا.

لقد ارتكز الفقهاء في تحديد العلاقة مع غَيْر المُسلم على سورتَيْن هما التّوبة والممتحنة في قراءةٍ أَقلّ ما يُقال فيها بأَنّها تلاحظ آيةً وتُعرِض عن أُخرى. وسأُركّز هنا على سورة التّوبة لأَقول:

إنّ هذه السّورة هي أَكثر سورة في القرآن تكرّرت فيها كلمة

المُشْـركين، وإذا تمعّنّـا فـي وُرودهـا وتكرارهـا فسـندرك أَنَّهـا تُحـالُ إلـى أُنـاس حاضريـن محدّديـن معروفيـن معهوديـن، وليسـت عامّـةً مسـتغرِقة لـكلّ مَـن يُطلَـق عليـه وَصْـفُ مُشـرك، بـل تتحـدّث عـن فئـة مخصوصـة فـي ذلـك الزّمـن ممّـن نقـض العهـد وجاهـر بالعـداء، «كَيْـفَ وَإِنْ يَظْهَـرُوا عَلَيْكُـمْ لَا يَرْقُبُـوا فِيكُـمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّـةً» [التّوبـة: ٨]. فالمشـركون فـي هـذه السّـورة فئـةٌ عرفهـم المسـلمون بأَسـمائهم وأَعيانهـم، وكان منهـم أَقربـاء وأَصدقـاء، فجـاء الحُكـم بقتالهـم وقتلهـم وأَسـرهم والتّضْييـق عليهـم، وأَخيـرًا بقطـع العلائـق معهـم فـي جميـع المسـتَوَيات إلـى درجـة منـع الاسـتغفار لهـم الّـذي يوحـي بارتبـاط عاطفـيّ أَو تعلّـق قلبـيّ «مَـا كَانَ لِلنَّبِـيِّ وَالَّذِيـنَ آمَنُـوا أَنْ يَسْـتَغْفِرُوا لِلْمُشْـرِكِينَ وَلَـوْ كَانُـوا أُولِـي قُرْبَـى مِـنْ بَعْـدِ مَـا تَبَيَّـنَ لَهُـمْ أَنَّهُـمْ أَصْحَـابُ الْجَحِيـمِ» [التّوبـة: ١١٣]، والدّليـل علـى أَنّ المقصـود بالمشـركين ههنـا فئـة محصـورة محـدودة كَـوْن الآيـات تتحـدّث عـن أَئمّـة الكفـر الحاضريـن الّذيـن كانـوا يُديـرون عمليّـة مُواجهـة الإسـلام والمسـلمين، والّذيـن نكثـوا عهودهـم مـع المسـلمين، وهمّـوا بإخـراج الرّسـول، «وَإِنْ نَكَثُـوا أَيْمَانَهُـمْ مِـنْ بَعْـدِ عَهْدِهِـمْ وَطَعَنُـوا فِـي دِينِكُـمْ فَقَاتِلُـوا أَئِمَّـةَ الْكُفْـرِ إِنَّهُـمْ لَا أَيْمَـانَ لَهُـمْ لَعَلَّهُـمْ يَنْتَهُـونَ ١٢ أَلَا تُقَاتِلُـونَ قَوْمًا نَكَثُـوا أَيْمَانَهُـمْ وَهَمُّـوا بِإِخْـرَاجِ الرَّسُـولِ وَهُـمْ بَدَءُوكُـمْ أَوَّلَ مَـرَّةٍ أَتَخْشَـوْنَهُمْ فَاللَّـهُ أَحَـقُّ أَنْ تَخْشَـوْهُ إِنْ كُنْتُـمْ مُؤْمِنِيـنَ ١٣» [التّوبـة: ١٢ ـ ١٣]، ويخاطبهـم القـرآن الكريـم فـي بدايـة السّـورة مخاطَبـة الحاضـر فيقـول لهـم: «فَـإِنْ تُبْتُـمْ فَهُـوَ خَيْـرٌ لَكُـمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُـمْ فَاعْلَمُـوا أَنَّكُـمْ غَيْـرُ مُعْجِـزِي اللَّـهِ» [سورة التّوبـة: ٣]، فالحديـث عـن فئـة محـدّدةٍ واضحـةٍ معروفـةٍ ناقضـةٍ للعهـد معادِيَـةٍ مناجـزةٍ للمسـلمين تتربّـص بهـم الدّوائـر، وتهـمّ بأَذيَّـة الرّسـول وإخراجـه، وهـم مُشـركو قريـش الّذيـن ظاهـروا بنـي بكـر فـي عدوانهـم

على حلفاء الرّسول من بني خزاعة[٣]، فهؤلاء الّذين نكثوا أيْمانهم بَعْدَ عهد الحُدَيْبِيَّة هُم أيضًا مَن بدأ قتال المسلمين أوّل مرّة يَوم بدر، لأنّهم حين سلم العير قالوا: لا ننصرف حتّى نستأصل محمّدًا ومَنْ معه. ولذلك فقدْ أُعطوا مهلةً تنتهي بانسلاخ الأشهر الحُرُم «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» [التوبة: ٥]. وواضح هنا أيضًا أنّ المسلمين، في تلك الآونة، لم يفهموا هذا الأمر للتّكرار، بمعنى أنّهم يجب عليهم في كلّ سنة أن يُمسكوا عن المشركين في الأشهر الحُرُم، فإذا انسلخت هبّوا ليقتلوا المشركين حيث وجدوهم، بل فهموه لمرّة واحدة، لأنّ المقصود بالمشركين هم هذه الفئة المعيّنة، فرُبِط الحُكم بها، وأُنيط بأفرادها، ولَولا هذا الفهم لَوَجَب أن يقتل المسلمون كلّ مشرك يرَوْنه أمامهم في كلّ زمان ومكان. ولكنّنا ندرك أنّ الحديث هنا يدور حول فئة مخصوصة مجرمة لا يتعدّاها لغيرها، وكما أنّ الأمر بالقتل هو فقط لهذه الفئة المجرمة، فكذلك نَفْيُ الاستغفار ههنا هوَ لهؤلاء المشركين أنفسهم الّذين يدور الحديث عنهم. وليس نَهْيًا عامًّا طامًّا، والدّليل على ذلك أيضًا أنّه لا يَجْمُل المشركين في حُكم واحد بل يستثني منهم أهل الوفاء: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ

(٣) رُوِيَ أَنَّهُ بعد أن غدرت قريش ببني خزاعة وَفَدَ عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ الْخُزَاعِيُّ عَلَى رَسُولِ اللَّه فأنشده:

لا هم إنّي ناشد محمّدًا ... حلف أبينا وأبيك ألا تلدا
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا ... وَنَقَضُوا ذِمَامَكَ الْمُؤَكَّدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالْحَطِيمِ هُجَّدَا ... وَقَتَلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدَا

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا نُصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرْكُمْ».

انظُر: محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرّسل والملوك**، دار التّراث العربيّ، بيروت، ١٣٧٨ هـ، ط. ٣، ج. ٣، ص. ٤٥.

الْحَـرَامِ» [التّوبـة: ٤]، وهـم مشـركو بنـي كنانـة وبنـي ضمـرة، وهكـذا يفـرّق القـرآن الكريـم فـي حُكمـه بيـن الوافيـن والغادريـن.

وسَـواء أَقُلنـا: إنّ هـذا المصطلـح خـاصّ بأَقـوام معيَّنيـن كان يتحـدّث القـرآن الكريـم عنهـم فـي تلـك اللّحظـة، أو قُلنـا: بـل العبـرة بعمـوم اللّفـظ لا بخصـوص السّـبب فإنّنـا سـنصل إلـى النّتيجـة نفسـها، لأَنّ جميـع الأَحـكام الـواردة فـي هـذه السّـورة مـن التّبـرّؤ مـن المشـركين، والنّهـي عـن مُوالاتهـم وإقامـة العلاقـات الاجتماعيّـة معهـم، وعـدم الاسـتغفار لهـم، والمطالبـة بقتلهـم وأَخذهـم وحصرهـم، ليـس المُنـاط فيهـا وَصْـف الشّـرك، ولكـن وَصْـف نَقْـضِ العهـد والنّكـث بـه والاعتـداء وإخـراج المسـلمين مـن ديارهـم. «لَا يَرْقُبُـونَ فِـي مُؤْمِـنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّـةً وَأُولَئِـكَ هُـمُ الْمُعْتَـدُونَ» [التّوبـة: ١٠]. والدّليـل علـى كَـوْنِ منـاط هـذه الأحـكام هـو وَصْـفُ العـدوان لا وَصْـف الشّـرك، إنّ العـدوان إذا انتفـى انتفـت معـه المطالبـة بالقتـل والأَخـذ والحَصْـر، فالسّـورة نفسـها تقـول: «وَإِنْ أَحَـدٌ مِـنَ الْمُشْـرِكِينَ اسْـتَجَارَكَ فَأَجِـرْهُ حَتَّـى يَسْـمَعَ كَلَامَ اللَّـهِ ثُـمَّ أَبْلِغْـهُ مَأْمَنَـهُ ذَلِـكَ بِأَنَّهُـمْ قَـوْمٌ لَا يَعْلَمُـونَ» [سـورة التّوبـة: ٦].

وهكـذا نحـن أَمـام مُشـرك مُعْتَـدٍ نقاتلـه ونحاصـره، وأَمـام مُشـرك مُسـالم لا يعلـم يأتـي إلينـا ويطلـب منّـا الأَمـان، فنرعـاه ونحوطـه ونحميـه حتّـى نبلّغـه مأمنـه.

مـا الّـذي يعنيـه هـذا الـكلام؟ يعنـي أَنّ مـدار هـذه الأَحـكام ليـس علـى وَصْـف الشّـرك، ولكـن علـى وَصْـف الجُـرم والاعتـداء. فلَـو قامـت هـذه الأَوصـاف بالمسـلم نفسـه فإنّنـا سـنُعامله المعاملـة نفسـها فـلا نترحّـم عليـه ولا نُسـالمه ولا نُصافيـه ولا نُحابيـه إن كان مُعْتَدِيًـا مجرمًـا، بـل ونلعنـه حيًّـا ومَيتًـا مثلمـا تلعـن اليـوم جمـوع النّـاس الطّبقـة الدّيكتاتوريّـة المجرمـة مـن حـكّام المسـلمين.

إنّ قَولنـا: «العِبـرة بعمـوم اللّفـظ لا بخصـوص السّـبب» يشـمل حـال المُشـرك المُسـالم فـي كلّ زمـان فيجـب علينـا أَن نرعـاه ونحوطـه، بـل ونَبِـرّه ونَقْسِـط إليـه، ويشـمل حـال المُشـرك المُعتـدي فـي كلّ أَوان فيجـب أَن نقاتله ونقطع العلاقـات معـه ونتنهـي عـن الاسـتغفار لـه. ولكـن، هـل نرعـى ونَحـوط فقـط المُشـرك المسـالم؟ أَم كلّ إِنسـان مسـالم سـواء أَكان مُشـركًا أَم غيـر مُشـرك؟ وهـل نقاتـل المُشـرك المُعتـدي ونقطـع علاقـات المَـوَدَّة والتّراحـم معـه أَم مـع كلّ مُعْتَـدٍ أَثيـم غاشـم بغـضّ النّظـر عـن شِـرْكه مـن عدمـه؟ وإِذا كان الجـواب أَنّنـا نفعـل ذلـك مـع المُشـرك وغيـر المُشـرك دلّ ذلـك علـى أَنّ وصْـف الشِّـرك هنـا ليس محـلًّا أَبـدًا لأَحـكام المسـالمة والمُوادعـة والمجاملة والتّـوادّ والتّراحـم والتّرحّـم، وليـس علّـةً لأَحـكام القتـال والمنجـازة، ودلّ ذلـك علـى أَنّ حديـث القـرآن كان عـن فئـة معهـودة معروفـة أُطلِـق عليها وصْـف المُشـركين تمْييـزًا لهـا عـن المؤمنيـن بالنّبـيّ وعـن المُنْضَويـن تحـت حلفـه مـن المُتعاقديـن معـه والموفيـنَ بعهدهـم ولَـو لـم يكونـوا مسـلمين. يقـول تعالـى: «وَمَـنْ يَقْتُـلْ مُؤْمِنًـا مُتَعَمِّـدًا فَجَـزَاؤُهُ جَهَنَّـمُ خَالِـدًا فِيهَـا وَغَضِـبَ اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَلَعَنَـهُ وَأَعَـدَّ لَـهُ عَذَابًـا عَظِيمًـا» [النّسـاء: ٩٣]، فسـواء أَكان المجـرم القاتـل المُعتـدي مُشـركًا أَو مُسـلمًا فهـو ملعـون ومغضـوب عليـه، وسـواء أَكان المُسـالم مُشـركًا أَم مؤمنًـا فهـو مَرْعِـيّ ومَحـوط ومُكـرَّم نَبِـرّه ونقسِـط إليـه.

اعتراضات وأَجْوِبة

اعتـرض بعـض الإِخـوة المشـايخ اعتراضـات عديـدة علـى هـذا الطّـرح، وأَذكـر هنــا أَهمّها:

الأَوّل: إِهمال الأَحاديث النّبويّة الّتي تفسّر سبب نزول الآيات.

الثّانـي: عـدم الالتفـات إِلـى قولـه تعالـى: «إِنَّ اللَّـهَ لَا يَغْفِـرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِـهِ وَيَغْفِـرُ مَـا دُونَ ذَلِـكَ لِمَـنْ يَشَـاءُ وَمَـنْ يُشْـرِكْ بِاللَّـهِ فَقَـدِ افْتَـرَى إِثْمًـا

عَظِيمًا» [النّساء: ٤٨]. فالاستغفار لِمَنْ قَطَع الله بعدم غفران شُركه هو سوء أَدب مع الله. وقد قال تعالى أيضًا: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» [الأعراف: ١٥٦]، فالرّحمة لن تطال سوى المُتّقين المُزَكّين المؤمنين بآيات الله، والّذي يطلب الرّحمة لِمَنْ لا يؤمن بآيات الله يعاند الله ويتألّى عليه.

الثّالث: كيف أَجرؤ على مخالفة إِجماع المسلمين الّذي نصّ عليه الإمام النّوَويّ؟

أَمّا جواب الاعتراض الأَوّل:

فهأنذا أَسوق روايات أَسباب النّزول الّتي ذكرها المفسّرون، والّتي اتّكأ عليها الفقهاء واستمدّوا منها حُكم التّحريم:

١ ـ «لمّا حَضَرَتْ أَبا طالب الوفاةُ دخل عليه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعنده أَبو جهل وعبد الله بن أَبي أُميّة، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: أَيْ عَمّ، قُلْ: لا إِله إِلّا الله أُحَاجُّ لك بها عند الله، فقال أَبو جهل، وعبد الله بن أَبي أُميّة: يا أَبا طالب أَترغب عن مِلّة عبد الله، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: لَأَستغفِرَنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك فنزلت: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ»(٤).

٢ ـ مررتُ بقبر أُمّي آمنة فصلّيتُ ركعتَيْن فاستأذنتُ رَبّي أَن أَستغفر لها فنُهيتُ، فبكيتُ ثمَّ عدتُ فَصلّيتُ ركعتَيْن فاستأذنتُ رَبّي أَن أَستغفر لها، فزُجرتُ زجرًا، فَعَلا بكائي، ثمَّ دَعا براحلته فركِبها، فما سار إِلّا

---

(٤) محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، تحقيق محمد زهير النّاصر، دار طوق النّجاة، الرياض، ٢٠٠١، ط. ١، ج. ٦، ص. ٦٩.

هنيَّة حتّى قامت النَّاقة لثقل الوَحْيِ، فَأَنْزل الله: «مَا كَانَ للنَّبِيِّ وَالَّذين آمنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا للْمُشْرِكين»(٥).

٣ ـ عن عَلِيٍّ قال: سمعتُ رجلًا يستغفر لأَبَوَيْه وهما مُشركان فقلتُ: تستغفر لأَبَوَيْك وهما مُشركان؟ فقال: أَوَ لم يستغفر إبراهيم لأَبيه؟ فذكرتُ ذلك للنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فَنزلت «مَا كَانَ للنَّبِيّ وَالَّذين آمنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكين» (٦).

وسوف نجد في كُتب التّفسير بالمأثور هذه الأَسباب الثّلاثة لنزول هذه الآية مع اختلافات يَسيرَةٍ في رواياتها، نُمسك عن إيرادها تخفّفًا واختصارًا، لأَنّ إيرادها لن يقدّم شيئًا زائدًا على هذه الرّوايات الّتي أَثبتْناها.

وسبب النّزول الأوّل يوقِعنا في مشكلات أكثر من أَن يضيء لنا معنى النّصّ، فهو يقول بأَنّ هذه الآية الكريمة نزلت بعد حادثة وفاة أَبي طالب علمًا أنّ سورةَ براءة مدنيّةٌ ما خلا آخر آيَتَيْنِ فيها. فإذا كانت وفاة أَبي طالب في السّنة التّاسعة للبعثة، فإنّ نزول هذه الآية كان، بحسب ما يذكره المفسّرون، في السّنة الثّالثة والعشرين للبعثة، وهذا التّأخير في هذه السّنوات يُفقد سبب النّزول معناه، ويفرّغه من محتواه من جهة، ويُشير إلى أَنّه مُلزَّق تلزيقًا بهذه الآية ولا علاقة له بها من جهة ثانية، وهذا السّبب في النّزول يقول بأَنّ النّبيّ ظلّ يستغفر لعَمّه طوال هذه المدّة إلى أن نزلت هذه الآية الكريمة، وبحسب منطق الاعتراض الثّاني فإنّ النّبيّ ظلّ يسيء الأَدب مع الله، وحاشاه ذلك،

(٥) عبد الرّحمن بن أبي بكر السيوطي، **الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور**، دار الفكر، بيروت، ج. ٤، ص. ٣٠٣، وقد عزاه إلى ابن مردويه.

(٦) أخرجه النّسائي والتّرمذي وغيرهما، أحمد بن شعيب النّسائي، **السُّنن الكبرى**، حسن عبد المنعم شبلي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ٢٠٠١، ط. ١ ج. ٢، ص. ٤٤٦، محمد بن عيسى الترمذي، **الجامع الكبير ـ سنن التّرمذي**، تحقيق بشّار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨، ج. ٥، ص. ١٣٢.

وهـو يسـتغفر هـذا الاسـتغفار، ولا سـيّما أَنّ قولـه تعالـى «إِنَّ اللَّـهَ لَا يَغْفِـرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِـهِ» [النّساء: ٤٨] نـزل قبـل الآيـة الّتـي تنفـي الاسـتغفار للمُشـركين بسـنوات.

أَمّـا سـبب النّـزول الثّانـي المُتعلّـق بوالـدة النّبـيّ عليـه الصّـلاة والسّـلام فَواضـح بُطلانـه، فالقـرآن الكريـم يقـول: «وَمَـا كُنَّـا مُعَذِّبِيـنَ حَتَّـى نَبْعَـثَ رَسُـولًا» [سـورة الإسـراء: ١٥] فهـي وكلّ مَـن كان فـي زمنهـا لهـم حُكـم خـاصّ وتسـمية خاصّـة هـي أَهـل الفتـرة، ولَـو رحنـا نَعُـدّ العلمـاء الّذيـن قالـوا بنجـاة والـدَي النّبـيّ عليـه الصّـلاة والسّـلام لَطـال بنـا المقـام، وهـؤلاء جميعهـم لا يأخـذون بهـذه الرّوايـة، ويرَونهـا تتعـارض مـع القـرآن الكريـم، ومـع منطـق التّشـريع العـادل. علـى أَنّ العلّامـة المفسّـر الطّاهـر بـن عاشـور اختصـر الحديـث عـن أَسـباب النّـزول بعـد إيرادهـا، ونقـل كلام الإمـام أَبـي بكـر بـن العربـي فـي كتابـه عارضـة الأحـوذي بوَصْفهـا أَخبـارًا واهِيَـة، علـى الرّغـم مـن ورود السّـبب الأَوّل فـي صحيـح البخـاري[٧].

ونحـن هنـا أَمـام ظاهـرة تتكـرّر فـي أَسـباب النّـزول، فبـدلًا مـن أَن يبحـث المُفسّـرون عـن سـبب للنّـزول ينسـجم مـع سِـياق الآيـات نفسـها، ومـع مَوضوعهـا وهمومهـا، يفتّشـون عـن حـوادث مضـت وانقضـت منـذ عـدّة سـنوات لمجـرّد تَشـابُه شـكليّ بينهـا وبيـن الآيـات، ممّـا يشـير إِلـى أَنّهـا مُركّبـة علـى هـذه الآيـات تركيبًـا، وهـذه ظاهـرة مشـكلة فـي عِلـم أَسـباب النّـزول حيـث يتداخـل الزّمـان المكّـيّ والمدنـيّ بشـكل اعتباطـيّ، فيكـون سـبب النّـزول فـي الفتـرة المكّيّـة قبـل الهجـرة والنّـصّ القرآنـيّ فـي الفتـرة المدنيّـة بَعْـدَه بِسَـنَوات، أَو يكـون النّـصّ القرآنـيّ مكّيًّـا، ثـمّ يقولـون بـأَنّ

(٧) محمّـد الطّاهـر بـن عاشـور، **تحريـر المعنـى السّـديد وتنويـر العقـل الجديـد مـن تفسـير القـرآن المجيـد**، الـدّار التّونسـيّة للنّشـر، تونـس، ١٩٨٤، ج. ١١، ٤٤.

سبب نزوله هو الحادثة الفُلانيّة، وتكون هذه الحادثة مدنيّة حدثتْ بعد نزول الآيات بسنوات، ونُحيل هنا إلى دراسة بسّام الجمل حول أَسباب النّزول فقد قدّم عدّة أَمثلة لذلك(٨).

نعم كان يجب أَن يبحث العلماء عن أَسباب النّزول عند المُشركين الّذين نقَضوا العهد وخانوا الاتّفاق وتمالَؤوا على المسلمين بعد صلح الحُدَيْبِيّة، وليس عند عمّ النّبيّ أَبي طالب، نصير الإسلام الأَوّل وحامي النّبيّ الأَقوى، والّذي كان عامُ مَوته عامَ حزن وأَسى، وليس عند والدته رضي الله عنها وأَرضاها، وليس عند آباء الصّحابة الّذين ماتوا ولا ندري متى ماتوا قبل البعثة أَو بعدها.

وأَمّا جواب الاعتراض الثّاني:

وهذا الاعتراض نابع أَيضًا عن تسرّع وقصور نظر، فالتّرحّم على المُشرك لا يعني بأَيّ حال من الأَحْوال إساءة أَدب مع الله، بل يعني الامتثال لأَوامره الّتي وردت على لسان رسوله المكرّم «ارحموا مَن في الأَرض يرحمكم مَن في السّماء»(٩)، والتّرحّم من مصاديق هذه الرّحمة الّتي أُمرَنا بها، لكي تتحقّق إنسانيّتنا وتتطامن نفوسنا، وأَمّا كيف يستجيب الله سبحانه فهذا شأن إلهيّ لا يخصّنا. ويذخَر تراثنا الإسلاميّ بما يؤيّد هذه النّظرة من خلال الفهوم الرّاقية الّتي صدّرها لنا مَن ندعوهم بأَهل الله، لأَنّهم الأَشدّ فهمًا عن الله. ويكفي هنا أَن أَستعرض رأي الشّيخ الأَكبر ابن عربي الّذي كان يرى أَنّ للمُشرك نصيبًا من الرّحمة، لأَنّ له نصيبًا من التَّوحيد، وهو تَوحيد المرتبة الإلهيّة العُظمى، فهو عندما يعبُد ما يقرّبه إلى الله زلفى ويتّخذ شفعاء عند الله يشير

---

(٨) بسّام الجمل، **أَسباب النّزول**، الدّار البيضاء، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت، ٢٠٠٥، ط. ١ ص. ٢١١ و٢١٢.

(٩) رواه التّرمذي وغيره، محمد بن عيسى التّرمذي، **الجامع الكبير ـ سُنن الترمذي**، تحقيق بشّار عواد معروف، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٨، ج. ٣، ص. ٣٨٨.

إلـى أنّـه يوحّـده فـي عظَمتـه، إذ ليـس للشّـريك هـذه الرّتبـة، ولـو كانـت لـه هـذه الرّتبـة مـا اتّخـذه شـفيعًا، فالشّـفيع لا يكـون حاكمًـا. ولذلـك يـرى الشّـيخ الأكبـر أنّ للمُشـرك رائحـةً مـن التّوحيـد، وبهـذه الرّائحـة ينـال رحمـةً مـن اللـه، وإن لـم يخـرج مـن النّـار[١٠]. وبنـاءً عليـه فطالِـب هـذه الرّحمـة للمُشـرك المُسـالم لا يُعَـدُّ متعدّيًـا ولا متجـاوزًا، أمّـا الّـذي يمنعهـا فهـو الكَـزُّ القَتـور اليابـس.

وكذلـك نجـد عنـد الشّـيخ الأكبر تفسـير الآيـة الكريمـة «وَرَحْمَتِي وَسِـعَتْ كُلَّ شَـيْءٍ فَسَـأَكْتُبُهَا لِلَّذِيـنَ يَتَّقُـونَ وَيُؤْتُـونَ الـزَّكَاةَ وَالَّذِيـنَ هُـمْ بِآيَاتِنَـا يُؤْمِنُـونَ» [الأعراف: ١٥٦]، فالرّحمـة نَوعـان: رحمـة مقيّـدة لفئـة مخصوصـة تُدعـى رحمـة الوجـوب، لأنّ اللـه أوجبها علـى نفسـه، ورحمـة مطلقـة تُدعـى رحمـة المِنّة، وهـذه الآيـة الكريمـة مخصوصـة بطائفـة مـن أهـل الكتـاب يتّقـون ويُؤتـون الـزّكاة ويُؤمنـون بآيـات اللـه ويَتبعـون الرّسـول النّبـيّ الأُمّـيّ الّـذي يجدونـه مكتوبًـا عندهـم: «وَرَحْمَتِـي وَسِـعَتْ كُلَّ شَـيْءٍ فَسَـأَكْتُبُهَا لِلَّذِيـنَ يَتَّقُـونَ وَيُؤْتُـونَ الـزَّكَاةَ وَالَّذِيـنَ هُـمْ بِآيَاتِنَـا يُؤْمِنُـونَ. الَّذِيـنَ يَتَّبِعُـونَ الرَّسُـولَ النَّبِـيَّ الْأُمِّـيَّ الَّـذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبًـا عِنْدَهُـمْ فِـي التَّـوْرَاةِ وَالْإِنْجِيـلِ» فهـؤلاء طائفـة مخصوصـة يخـرج مَـن ليـس منهـم مـن هـذا التّقييـد الوُجوبـيّ، ولكـن تبقـى الرّحمـة فـي حـقّ مَـن خـرج مطلقـةً ينتظرهـا مَـن عَيّـن الفضـل والمنّـة[١١]. وهكـذا فالدّعـاء للمسـلم ولغيـر المسـلم هـو دعـاء بالرّحمـة العامّـة، وهـي رحمـة الامتنـان، وأمّـا الرّحمـة الخاصّـة الواجبـة فهـي لفئتَيـن مخصوصتَيـن ورد ذكرهمـا فـي القـرآن الكريـم الأولـى هـي لأهـل الكتـاب الّذيـن آمنـوا بالنّبـيّ الأُمّـيّ، والثّانيـة هـي للتّائبيـن: «كَتَـبَ رَبُّكُـمْ عَلَـى نَفْسِـهِ الرَّحْمَـةَ أَنَّـهُ مَـنْ عَمِـلَ مِنْكُـمْ سُـوءًا بِجَهَالَـةٍ ثُـمَّ تَـابَ مِـنْ بَعْـدِهِ وَأَصْلَـحَ فَإِنَّـهُ غَفُـورٌ

(١٠) محيي الدّين بن عربي، **الفتوحات المكّيّة**، ج. ١، ص. ٥٥٧.

(١١) المصدر السّابق، ج. ٤، صص. ٢٩٩ ـ ٣٠٣.

رَحِيمٌ» [الأنعام:٥٤]، فالله يغفر للتّائب ولغير التّائب، ولكنّه يغفر للتّائب ويرحمه بالرّحمة الواجبة، ويغفر لِمَن سِواه بالرّحمة المُطلقة رحمة المِنّة.

أمّا جواب الاعتراض الثّالث:

حَول مُخالفتي ما نقله الإمام النَّوَوي من إجماع العلماء على حرمة التّرحّم على غير المسلم، فإنّني لا أُخالفه في هذه المسألة فقط بل وفي مسائل أُخرى عديدة أَذكر منها الآن واحدة، وأَترك غيرها إلى مناسبات أُخرى، وهذه المسألة هي نقل الإمام النَّوَوي إجماع العلماء على حرمة الخروج على الحاكم المتغلِّب. هذا الإجماع الّذي اعتدَّ به كلّ مَن أَيَّد الحُكّام المُستبدّين العرب المعاصرين، ورفضه ولم يلتفت إليه كلّ مَن خرج عليهم وطالب بإسقاطهم.

إنّ مُخالفة عالِمٍ في مسألة بِنَقل الإجماع عليها أَمر فيه سَعَة، وإنّ تساهُل بعض العلماء، كالإمام النَّوَوي رحمه الله، في نقل الإجماع أَمر شائع. لذا فإنّني أَنصح أَرباب الحَمِيَّة الدّينيّة أَن يخفّفوا من حَمِيَّة الإدانة والتّأثيم، ويتريّثوا في اندفاعة التّهجّم والتّجريم.

على أَنني لستُ بدعًا في مخالفة الإمام النَّوَوي، فهذان العالِمان قليوبي وعميرة في حاشِيَتهما على كتاب النّووي منهاج الطّالبين يُصرّحان بمخالفته في هذه المسألة الّتي يدّعي الإجماع عليها، فنقرأ في هذه الحاشِيَة في كتاب صلاة المَيت وتغسيل الكافر: «الدّعاء للكافر بالمغفرة جائز إلّا إن كان على طريقة المصنِّف، كما تقدّم، أو يُقال إنّ العموم يشمل ذنب الكفر، وهو غير جائز»[١٢]. والمقصود بالمصنِّف هنا الإمام النّووي.

---

(١٢) أحمد سلامة القليوبي، وأحمد البرلسي عميرة، **حاشية على شرح العلّامة جلال الدّين المحلي على منهاج الطّالبين للشّيخ محيي الدّين النّووي**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥، ج. ١، ٤٠٧.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

ثـمّ نقـرأ فـي موضـع آخر مـن الحاشـيَة فـي أَركان صـلاة الجنـازة: «وفـي كلام ابـن حجـر حرمـة الدّعـاء للكافـر بـ [دعـاء] أُخْـرَوِيٍّ، وفيـه نظـر، والرّاجـح خلافـه كمـا هـو مقـرّر فـي محلّـه، ومنـه جـواز الدّعـاء لـه بالمغفـرة خلافًـا لِمـا فـي الأَذكار كمـا تقـدّم»(١٣).

ثـمّ نقـرأ مـرّة ثالثـة فـي صـلاة الاستسـقاء: «يجـوز إِجابـة دعـاء الكافريـن، ويجـوز الدّعـاء لـه ولَـو بالمغفـرة والرّحمـة، خلافًـا لِمـا فـي الأَذكار إِلّا مغفـرة ذنـب الكفـر مـع مَوتـه علـى الكفـر فـلا يجـوز»(١٤).

لقـد كان حـالُ الفقهـاء علـى مـدار تاريـخ التّشـريع الإِسـلاميّ مُتذبذبًـا بيـن الطّيَـران والتّحليـق فـي أُفـق الفهـم القرآنـيّ والنّبـويّ يتلمّسـون مـن خلالهمـا مُـرادات اللـه تلمّسًـا لمـّاحًا ذكيًّـا وبيـن الإِسـفاف والانحـدار إِلـى سـوء فَهْـمٍ وانغـلاق أُفـق، ومـن العجيـب حقًّـا أَنّهـم لـم يتناولـوا فـي سـورة التّوبـة نفسـها بقيّـة الأَحـكام الّتـي تخـصّ المُشـركين ذلـك التّنـاول الظّاهـريّ، فلـم يفهمـوا مـن قَولـه تعالـى: «إِنَّمَـا الْمُشْـرِكُونَ نَجَـسٌ» [التّوبـة: ٢٨]، أَنّ المُشـركين نجسـون فـي ذَواتهـم، بـل اتّفقـوا علـى طهـارة أَجسـامهم، وقالـوا: إِنّ النّجاسـة فـي اعتقادهـم لا فـي ذَواتهـم، حتّـى إِنّ الأوزاعـي والشّـافعي وأَبـا ثـور والحنفيّـة لـم يـرَوا بَأسًـا فـي شُـرْب سُـؤْرِ الكافـر(١٥)، والأَعجـب مـن ذلـك فَهْـمُ الفقهـاء الحنفيّـة لبقيّـة الآيـة: «إِنَّمَـا الْمُشْـرِكُونَ نَجَـسٌ فَـلَا يَقْرَبُـوا الْمَسْـجِدَ الْحَـرَامَ بَعْـدَ عَامِهِـمْ هَـذَا» [التّوبـة: ٢٨]، فبَينمـا قـال الشّـافعي بِمَنْـعِ المُشـركين مـن دخـول المسـجد الحـرام منعًـا مطلقًـا أخـذًا بظاهـر هـذه الآيـة، لـم يـرَ الحنفيّـة مانعًـا مـن

---

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) يقـول شـمس الأَئمّـة السّرخسـي فـي كتابـه **المبسـوط**: «وكذلـك سـؤر المشـرك عندنـا، وبعـض أصحـاب الظّواهـر يكرهـون ذلـك لقولـه تعالـى: {إِنَّمَـا الْمُشْـرِكُونَ نَجَـسٌ} [سـورة التّوبـة: ٢٨]، ولكنّنـا نقـول: المـراد منـه خُبْـثُ الاعتقـاد بدليـل مـا رُوِيَ «أنّ النّبـيّ ـ صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ ـ أنـزل وَفْـدَ ثقيـف فـي المسـجد وكانـوا مُشـركين»، ولـو كان عيـن المُشـرك نَجِسًـا لَمـا أنزلهـم فـي المسـجد». ج. ١، ص. ٤٧.

دخـول المُشـرك المسـجد الحـرام، وقالـوا بـأَنّ الآيـة محمولـة علـى مَنْعهـم مـن أَن يدخلـوا المسـجد الحـرام مُسْـتَوْلين عليـه ومُسْـتَعْلين علـى أَهـل الإِسـلام مـن حيـث التّدبيـر والقيـام بعمـارة المسـجد، أَو مُمارِسـين عبـادة الطّـواف عـراةً علـى الوجـه الّـذي اعتـادوه فـي الجاهليّـة. أَمّـا إِذا خلَـوا مـن ذلـك فـلا يُمنَعـون مـن دخـول المسـجد الحـرام ولا مـن دخـول سـائر المسـاجد، ويسـتَوي فـي ذلـك الحربـي والذّمـي[١٦]. وهـذا فهـمٌ سـديد ومَلْحَـظٌ معقـول.

مشكلات مَنْعِ التّرحّم على غير المسلم

عندمـا أَصـرّ الفقهـاء علـى مَنْـع التّرحّـم علـى غيـر المسـلم، وقعـوا فـي مشـكلات أَمـام النّصـوص الدّينيّـة الّتـي تنقـض رؤيتهـم، وأُشـير هنـا إِلـى بعضهـا وكيـف حاولـوا التّملّـص منهـا، فبحسـب الآثـار الـواردة كان الرّسـول يسـتغفر لعمّـه ولأُمّـه حتّـى بعـد نـزول الآيـة الكريمـة «إِنَّ اللَّـهَ لَا يَغْفِـرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِـهِ» [النّساء: ٤٨]، وبحسـب منطـق المانعيـن فـإِنّ فـي ذلـك اعتـداء فـي الدّعـاء، فيكفـي ورود هـذه الآيـة ليمتنـع الرّسـول عـن الاسـتغفار للمشـركين ولـو لـم تنـزل آيـة سـورة التّوبـة، ونقـرأ جوابًـا ضعيفًـا لذلـك يـورده المفسّـر الألوسـي فـي روح المعانـي: «وبعضهـم جـوّز أَن يكـون عليـه الصّلاة والسّـلام لوفـور شـفقته وشـدّة رأفتـه قـد حمـل الآيـة علـى أَنّـه تعالـى لا يغفـر الشّـرك إِذا لـم يشـفع فيـه، أَو لا يغفـر الشّـرك الّـذي تواطـأ فيـه القلـب وسـائر الجـوارح وعَلِـم مـن عمّـه أَنّـه لـم يكـن شـركه كذلـك فطلـب المغفـرة» [١٧]، وهكـذا نـرى كيـف أُوِّلـت هـذه الآيـة للخـروج مـن مـأزق هـذا الأثـر الـوارد.

---

(١٦) شـمس الأئمّـة السّرخسـي، **شـرح السِّـيَر الكبيـر**، تحقيـق أبـي عبـد اللـه محمـد حسـن محمـد حسـن إسـماعيل الشّـافعي، دار الكتـب العلميّـة، بيـروت، ١٩٩٢، ج. ١، ص. ٩٧.

(١٧) محمـود بـن عبـد اللـه الألوسـي، **روح المعانـي فـي تفسـير القـرآن العظيـم والسّـبع المثانـي**، تحقيـق علـي عبـد البـاري عطيـة، دار الكتـب العلميّـة، بيـروت، ١٩٥٥، ط. ١، ج. ٨، ص. ٤١٩.

وفي هذه المسألة بالذّات يُحيلنا القرآن الكريم إلى نبيّه إبراهيم عليه السّلام، فهو أُسْوَة لنا في قضيّة الاستغفار للمشرك فيقول: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» [الممتحنة ٤]، ويقول: «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» [سورة التّوبة ١١٤].

قال المفسّرون: إنّ إبراهيم استغفر لأبيه لأنّ أباه وعده بأن يؤمن بالله، فلمّا مات الأب من دون إيمان تبيّن له أنّه عدوّ لله فتبرّأ منه وأمسك عن الاستغفار له، وهذا الكلام يتماشى تمامًا مع الرّأي الشّائع في تحريم الاستغفار للمشركين، لكنّ هذا الرّأي لا يلبث أن يُصدم بدعاء إبراهيم في أواخر سِني حياته، وبعد أن تجاوز المئة سنة بالمغفرة لوالدَيه في لحظة صفاء روحيّ عالية تفيض بالمشاعر الإنسانيّة والعواطف الأبويّة.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ٣٩ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ٤٠ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ»

[سورة إبراهيم: ٣٩ ـ ٤١].

وحقيقةً سوف نرى عدّة حلول للخروج من مأزق هذا الدّعاء والاستغفار، فسنقع على رأي يقول بأنّه آزر عمّه وليس أباه، وسنقع على رأي آخر يقول بأنّ إبراهيم عليه السّلام تبيّن له أنّ أباه عدوّ لله في يوم القيامة وليس في الدّنيا، «وذلك أنّ أباه يتعلّق به إذا أراد أن يجوز الصّراط فيمرُّ به عليه، حتّى إذا كاد أن يجاوزه حانت من

إبراهيم التِفاتة فإذا هو بأَبيه في صورة قرد أَو ضَبع، فخلّى عنه وتبرّأ منه حينئذٍ»[١٨]، أَمّا بعض التّابعين، كإبراهيم النّخعي، فلم يجدْ حلاً إلّا بحذف أَلِفِ والديَّ، بحيث تغدو الكلمة ولديّ، ويغدو الدّعاء لإسماعيل وإسحاق، ووجد آخرون الحلّ بسرقة الشَّدّة من الياء فتغدو الكلمة والديْ، ثمّ فسّروا كلمة والديْ بأمّي، قال: لأَنّ والدته أَسلمت بخلاف أَبيه. وكلّ هذه الحلول مجرّد تمحّكات لا داعي لها، وكان بإمكانهم القول إنّ إبراهيم امتنع عن الاستغفار لأَبيه باعتبار كَونه عدوًّا لله، ثمّ استغفر له في نهاية حياته باعتباره والده بعد أَن انطَوَت قصّة العداوة وغدا ملفّها لدى الدّيّان.

خاتمة

نعم يجوز التّرحّم على غير المسلم إذا كان مسالمًا غير مُعادٍ أو باغٍ، «وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» [سورة الشّورى: ٥]. و«مَنْ» هنا من أَدوات العموم الّتي تستغرق كلّ إنسان في الأَرض إلّا إذا دلّ دليل على إخراجه، وقد دلّ الدّليل القرآنيّ على إخراج القتَلة من أَهل الجريمة والاعتداء فهؤلاء ملعونون يلعنهم الله، ويلعنهم اللّاعنون، وما سوى ذلك فنحن نترحّم على المؤمن وغير المؤمن اقتداءً بالملائكة الّذين «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» [سورة التّحريم: ٦]، واقتداءً بإبراهيم الّذي قال: « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي ـ أي لم يؤمن بي ـ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [إبراهيم: ٣٦]. وكذلك وَرَدَ نَظيرُ ذلك على لسان عيسى يوم القيامة عندما يسأله المَولى الكريم: «أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ»؟ [المائدة: ١١٦] فيجيبه عيسى: «قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي

---

(١٨) ابن جرير الطّبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق الدّكتور عبد الله بن عبد المحسن التّركي بالتّعاون مع مركز البحوث والدّراسات الإسلامية بدار هجر الدّكتور عبد السّند حسن يمامة، دار هجر، القاهرة، ٢٠٠١، ط. ١، ج. ١٢، ص. ٣٢.

أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١١٧ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [المائدة:١١٦ ـ ١١٨]، والله فعلًا وحقًّا وصدقًا هو العزيز الحكيم.

لقد أخذنا هذه الآية أَخْذَ عِضينَ: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُربى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجحيم»، وعمّمناها على كلّ غير مسلم من جهة، ثمّ عمّمناها على كل مُشرك من جهة أُخرى، وتغافلنا عن قوله تعالى الّذي يفسّر حدود هذا النّهي. متى يبدأ ومتى ينتهي، ومَن يتناول ومَن يتجاوز: «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»

[سورة الممتحنة: ٨ ـ ٩].

فنحن مَنْهِيّون عن أَن نستغفر ونترحّم ونتولّى المُجرم، وغير مَنْهِيّين عن أَن نبرَّ العادل ونقسِط إليه، والبِرُّ اسم جامع لكلّ أَنواع الخَيْر. نبرّه بتقديم كلّ أَنواع الخير الماديّة والمعنويّة، القَوْليّة والعمليّة، في حياته وبعد مماته جزاء مسالمته إيّانا. فنحن سِلْمٌ ورأفة وعطاء واكتناف لِمَن كان مُسالمًا، ونحن مناجزة ومفاصلة ومحاربة لِمَن كان محاربًا مقاتلًا معتديًا.

البــــاب الثّاني

الفكر الإسلاميّ المعاصر في مَحاريــــــب التّعسّــــــف

مؤسسة دَارالجـَديْد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

دُعاة القنَوات الفضائيّة شيوخ مَن لا شَيخ له

يـكاد ينحصـر دَور علمائنـا ومشـايخنا اليـوم فـي المحافظـة علـى الفولكلـور الدّينـيّ، والسّـهر عليـه فـي غرفـة الإنعـاش، وقـد اكتفـوا بهـذا الـدَّور لأَنّ مؤهّلاتهـم لـم تَعُـدْ تسـمح لَهُـم بغيـره، فقـد غـدا معظمهـم سـادة الأَقـوال ولا أَفعـال، وصـار جلّهـم رُسُـلَ تسـلية وترفيـه، ولا سـيّما منهـم نجـوم القنَـوات الفضائيّـة مـن الدُّعـاة، سـواء منهـم الشّـيخ المعجـزة الّـذي يفهـم فـي كلّ شـيء، ولا يعتـذر عـن شـيء، أَو الشّـيخ البشـوش، المتدفّـق بسـمات، والمُسـتحي دائمًـا مـن إطـراء المعجَبيـن والمعجَبـات، أَوالشّـيخ المِكثـار الّـذي لا يجـفّ حَلْقُـه، فتسـمعه فـي الصّبـاح الباكـر، وفـي الضّحـى، وبعـد الظّهـر، ومـا بيـن العشـاءَيْن، أَو الشّـيخ الّـذي أَمطـر النّـاس بِوابِـلٍ مـن الفتـاوى والأَحـكام علـى الهـواء مباشـرة، ثـمّ اكتشـف فـي لحظـة مـا أَنّـه غيـر مؤهّـل للإفتـاء وإعطـاء الأَحـكام فاكتفـى بالدّردشـة والإرشـاد، أَو الشّـيخ الّـذي لا تشـتمّ منـه أَدنـى رائحـة للثّقافـة، ولكـن تفـوح منـه قصـص وروايـات نصفهـا كـذب، ونصفهـا الآخـر مرشّـح ليكـون كذبًـا أَيضًـا، أَو الشّـيخ الغائـص فـي فضيلتـه وفكـره، والّـذي لا يتظاهـر بأَنّـه فريـد بـل يؤمـن بذلـك حقًّـا، أَو الأُسـتاذ الدّاعيـة الّـذي فرغـت جعبتـه، ومـا عـاد يعـرف مـاذا يقـول بعـد أَن سـرد علينـا قصـص الصّحابـة أَجمعيـن، وحكايـات كلّ الأَنبِيـاء والمُرسَـلين. أَقـول ذلـك وبرهانـي حاضـر، وشـاهدي شـاهد، ذلـك أَنّنـا نـرى بـأُمِّ أَعْيُننـا كيـف تتحـوّل الدّعـوة ذلـك المبـدأ الشّـريف السّـامي إلـى صناعـة إعلاميّـة،

تقـوم علـى مبـدأ الإثـارة، وتخضـع لمنطـق الاسـتهلاك، وتنصـاع لقانـون المنافسـة التّجاريّـة، وتأتمـر بأَمـر الرّأسـماليّ الّـذي يُمسـك بـكلّ الخيـوط فيحرّكهـا كيـف يشـاء، ومتـى يشـاء، والمهـمّ عنـده أَلّا يبقـى زبـون واحـد مـن البشـر خـارج اسـتهدافه، فلِمُحِـبّ الرّياضـة قنـاة، ولمُتابـع الأَفـلام قنـاة، ولعاشـق المسلسـلات قنـاة، وللأَطفـال قنـاة، وللموسـيقى والغنـاء قنـاة، وللسّياسـة قنـاة، ولـم يبـقَ إلّا الدّيـن، فللدّيـن أَيضًـا قنـاة.

وهـا نحـن اليـوم أَمـام نجـوم فيديـو كليـب دينـيّ دعَـوِيّ مَهَمَّتُهـم إمتـاع المُشـاهد لا تثقيفـه، وتسـليته لا تربيتـه، وتلبيـة رغباتـه لا حاجاتـه، مـن خـلال مُعطيـات معرفيّـة تخلـو مـن التّوثيـق والتّحقيـق، فيمزجـون فيهـا الصَّفْـوَ بالكـدر، والغُـرَر بالعَـرَر.

أَذكـر ذلـك بـلا خَـوف أَو وجـل مـن تأنيـب الضّميـر، وبـلا تأثّـم أَو تحـرّج مـن الوقـوع فـي خطـأ التّعميـم، فمـع الأُسـلوب الجـاري حتّـى الآن مـن قِبَـل هـؤلاء الدّعـاة مـا عـاد بوسـعنا أَن نميّـز الرّصيـن مـن المُبتـذل، ولا الباحـث مـن العابـث، ولا الفقيـه مـن الفهيـه، لأَنّ كلّ شـيء دُفـع بـه إلـى الضّحالـة مختلطًـا بعضـه ببعـض، ومَـن بـدأ منهـم بدايـة موفّقـة رصينـة اكتشـف سـريعًا أَنّ حصانـه لـن يُجـاري بقيّـة الأَحصنـة الدّعَوِيّـة إلّا إذا اتّسـم حديثـه بالثّرثـرة، وبضاعتـه بالغثاثـة، فمـا كان منـه إلّا أَن خـاض مـع الخائضيـن.

وعلـى هـذا النّحـو نشـأت تلـك البرامـج الدّينيّـة الّتـي يُعْجَـب لهـا المـرء مـن ضآلـة مضمونهـا، ويُعْجَـب أَكثـر مـن تناقـض هـذا المضمـون القائـم علـى خليـط غريـب مـن التّفجّـع المُتواصـل والزّجـر الدّائـم والتّملّـق المُسـتمرّ فـي الآن ذاتـه، فيَتَفَجَّـع علـى مـا صرنـا إليـه مـن ضعـف بَعْـدَ قـوّة، وانحـدار بَعْـدَ رقـيّ، ويَزْجُـر النّـاس والمُشـاهدين والمُسـتمِعين لنأيهـم عـن تعاليـم دينهـم، واغترابهـم عـن أَخـلاق نبيّهـم، ثـمّ يتملّقهـم فيقارنهـم مـع الغـرب، برجالـه السّـكارى، وبناتـه الحبالـى، ويبرهـن لهـم أَنّ المسـلمين منـارة بَيضـاء فـي

وسط بحر الإنسانيّة العَكِر، وأنّ المُسلمات حرائر محميّات في الغُرَف، وهل يُصان الدُّرُّ إلّا في الصَّدَف؟

ومن هنا فإنّي لا أرى إطلاق وَصْف النّجوميّة على هؤلاء الدُّعاة، بل أرى أنّه يليق بهم تشبيه شوبنهاور أنّهم مجرّد «دود مضيء يحتاج إلى كثير من العتمة ليَسطع»، وفعلًا إنّهم لَيَسطعون على اعتبار أنّ هذه العتمة مَوجودة مَوفورة، بل هي عتمة فَوقها عتمات من اللّاوعي، واللّامعرفة، واللّاثقافة، وفعلًا إنّهم يعملون بكَدّ على جعلها عَتَمات مقدّسة تجتاح معظم فئات المجتمع من طَلَبَة وأَساتذة ومِهَنِيّين وصناعيّين وتجّار وأَطبّاء ومهندسين، وبدون ذلك لن يوفَّق هؤلاء الدّعاة في أَن ينسلّوا إلى بيوت النّاس، ولا أَن يرتعوا في عقول أَبنائهم، ويلهوا بأَلباب بناتهم.

وأَمّا مَن يُدافع عن هؤلاء الدّعاة وعن برامجهم الفضائيّة فأُجيبه بالحديث عن أَطبّاء الأَبدان وأَطبّاء الأَديان، وبتعريف عمل كلٍّ منهما. أَمّا الطّبّ فَمَهَمَّتُه إطالة الحياة الإنسانيّة، وأَمّا الدّين فَمَهَمَّتُه مَلْؤُها بالحكمة. ولا شكّ في أَنّ مَهَمّة الدّين أَصعب وأَشقّ وأَعقد. إذًا فعلامَ نُجيز فيها أَن يقوم بأَوْدِها برنامج تلفزيونيّ يوجّه النّاس ويَفتيهم، من دون معرفة المُفتي المُستفتي، ومن دون متابعة المُوَجِّه المُوَجَّه؟ بينما لا نُجيز ذلك فيما هو أَخفّ وأَسهل، بل نرى أَنّه من قبيل الجنون أَن يتطبّب البشر على اختلاف صنوفهم وأَدوائهم وأَوجاعهم من خلال مشاهدة برنامج طبّيّ تلفزيونيّ.

ولِقائلٍ أَن يقول: أَفلا نُسلّم جميعًا بالفائدة الجليلة الّتي نجنيها من الأَطبّاء في برامجهم التّلفزيونيّة، من خلال تقديمهم النّصائح الطّبّيّة العامّة، وتعريفهم بالقواعد الصّحّيّة اللّازمة، وبِذا يُساعدوننا على الأَقلّ في وقاية أَنفسنا من العِلَل والأَسقام؟ وإذا سلّمنا بهذا فَلْنُسَلِّم أَيضًا

بالفائدة العظيمة الّتي يقدّمها لنا دُعاتنا في هذه البرامج من خلال نُصْحِهم الدّينيّ، وإِرشادهم الخُلقيّ.
أَمّا نحن فما كنّا لنرفض هذه المقايسة، وما كنّا لنأباها، بل على العكس كنّا نودّ لو أَنّها كانت صحيحة صائبة، فَمَن منّا لا يروم الخير، ومَنْ منّا يأبى النّفع؟ ولكنّ هؤلاء الدّعاة لا يساعدوننا على ذلك، فَهُم لا يمتلكون رؤية واحدة، ولا يتّفقون على استراتيجيّة جامعة، ولا يلتقّون حول الأَوْلَوِيات نفسها، ولا يشتركون في الأَهداف ذاتها، ولا يَصْدُرون عن مشرَب واحد، والنّتيجة: غدَوْنا أَمام خطاب دعَوِيّ سُداه تخبُّط وتخليط، ولُحمته مزاجيّة لا تستهدي بخطّة.
وخُلاصة الكلام: ما كانت هذه البرامج في يوم من الأَيّام عامل صحْوَة، أَو علّة ارتقاء فكريّ، أَو باعث تطور روحي، وأَمّا مَن أَراد أَن يُكابر فَلَهُ ذلك. يقول غوته: «يمكن ادّعاء كلّ شيء حين يسمح المرء لنفسه بأَن يستعمل ويُطبّق الكلمات دونما تحديد على الإِطلاق، بمعنًى واسع حينًا، وبمعنًى ضيّق حينًا آخر، وبمعنًى وثيق الصّلة، أَو بمعنًى بَعيد الصّلة». وهذا ما يفعله المُكابرون.

الإسلام والدّيمقراطيّة والمُراوَحة في المكان

منذ عدّة سنوات تساءل الباحث التّونسيّ محمّد الحدّاد في أثناء دراسته للمُناظرة المُهِمّة بين الأُستاذ فرح أَنطون والإمام محمّد عبده: «لماذا تُمنَح الفرصةُ للمسيحيّ أَنْ يتقبّل العلمانيّة بذرائعَ من الإنجيل، ولا تُمنح الفرصةُ للمُسلم أَن يَدْخُل العلمانيّةَ بتأويل جديد لبعض آيِ القرآن»(١)؟ واليوم ما زلنا نُعاود طَرْحَ هذا السّؤال بتَنْويعاته: الدّيمقراطيّةُ وحقوقُ الإنسان والحداثةُ واللّيبراليّة إلى آخر ما هنالك من مصطلحات تدور في فلك القِيَم الإنسانيّة المعاصرة. ولعلّ من سوء الطّالع أَنْ يتفرّد المسلمون من بين جميع الأُمَم بأَن يستمرّوا في معالجة هذه المسائل الفكريّة الّتي بدأ البحث فيها منذ ما يُقارب القرنَ والنّصف، وانتهى التّنظير لها منذ ما يُقارب النّصفَ قَرن، ثمّ تراهم في حالة استئناف متواتر، وبَداءٍ دائم، من دون الالتفات إلى أَنّ رَفْضَ العلمانيّة والدّيمقراطيّة وإنكارَهما والتّعالي عليهما كان من الأَسباب المسؤولة عن تشكّل فِرَقٍ هامشيّة جديدة في الإسلام، بكلّ ما تحمله من تصدّع وانشقاق في عالم المسلمين.

ولِبَيان هذا الإجمال أَقول:

لقد كان الشّرق، في نهاية القرن الثّامن عشر، وبدايات القرن التّاسع عشر، وبخلاف ظَنِّ كثيرٍ مِنّا، قد شَرَع يتلمّس التّحوّلاتِ الّتي تمرّ بها أوروبا،

(١) محمّد الحدّاد، **ديانة الضّمير الفرديّ**، دار المدار الإسلاميّ، بيروت، ٢٠٠٧، ط. ١، ص. ١٥٦.

والأَفكارَ الّتي تمور فيها من خلال: الحملة الفرنسيّة، والبعثات العِلميّة، والمعاهدات التّجاريّة، والرّوابط الاقتصاديّة، والمصارف، والتّرجمات[٢]، والمدارس التّبشيريّة، والإرساليّات الدّينيّة، والرّحّالة والسّائحين[٣]، والجرائد، والقنصليّات، ناهيكم عن الاستعمار. ولقد أَدرك بعض مثقَّفي هذا الشّرق، ولَو بشكل باهت ما أَنجزته أوروبا من نجاحات على مُستوى ثَورة الإصلاح الدّينيّ الّتي بدأت تُثمر حرّيّة الضّمير، وعلى مستوى الثَّورة الفرنسيّة الّتي بدأت تُحقِّق الحرّيّة السّياسيّة.

وأَمام التّحدّيات والأَسئلة الجديدة المُحرجة الّتي صبّتها فوق رؤوسهم الحداثة الأوروبيّة صبًّا وأَفرغتها إفراغًا ارتبك رجال الاستبداد السّياسيّ وخدّامُهم من رجال الاستبداد الدّينيّ بفكرهم التّقليديّ، المُفرِط بالتّصدُّع، والمُنْهَك المُنْهَمِك بالقيود وبالشّكل وبالقشور، والمُستهلَك بالتّعقيد. فعَمَد السّنّيّ الّذي اعتقم رأيه وصَدِيَت قريحته، والشّيعيّ الّذي نبا عقله وماتت خَواطره، إلى عَطْفِ الهَوى على الهُدى، فوَضعوا أَصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وانكفأوا إلى ذواتهم يمجّدونها، وإلى أَسلافهم يحتمون بهم، وأَعرضوا عن مجرّد التّفكير في القِيَم الحديثة وتَوابعها، وظنّوا أَنّهم في حَوزة لا تُستباح، وعدّوا الدّعوة إلى التّجديد والإصلاح مجرّد دُرْجة وموضة، لا تلبث أَنْ تزول، وشدّوا على الدّعاة إليها، في تَقَوِيّة مُنحطّة، يُهاترونهم ويطِنزون بهم، فزادوا

(٢) سنة ١٨٤٠ نَشر أحمد فارس الشّدياق عن المطبعة البروتستانتيّة في مالطا باللّغة العربيّة نصًّا تعريفيًّا بمارتن لوثر، ثمّ نَشر عبر المطبعة الناشرة عينها بعد انتقالها إلى بيروت تاريخًا معرّبًا لحركة الإصلاح بعنوان: «ملخّص تاريخ الإصلاح في القرن السّادس عشر» لميرل دوبينيه.

(٣) اللّواء محمد مختار باشا، **التّوفيقات الإلهاميّة في مقارنة التّواريخ الهجريّة بالسّنين الإفرنكيّة والقِبطيّة**، المؤسّسة العربيّة للدّراسات وللنّشر، بيروت، ١٩٨٠، ط ١، وفيه ذكر لإحصاءات مثبتة بعدد السّائحين القادمين لمصر في القرن التّاسع عشر، وكان يتراوح عددهم ما بين ٤٥ ألف سائح إلى ٧٠ ألف سائح سنويًّا. وهذا رقم كبير بالقياس إلى تلك الأَيّام.

فـي الشّـطرنج بغـلًا، وخرجـوا مـن فذلكـة إلـى مهلكـة، ومـن مزلقـة إلـى مغرقـة(٤).

وسَـرَتْ فـي فئـة أُخـرى حُمَيّـا الحداثـة وقِيَمُهـا، كأَنّهـا جُـذْوَة مـن ضـرام، بعـد أَن دهتهـم المقارنـات والمقايسـات بينهـم وبيـن الغـرب، ودهمتهـم المناظـرات والمناقشـات مـع أَفـكاره ومبادئـه، فأَدركـوا أَنّهـم أَمـام تَحَـدٍّ حفيـل هائـل، وأَنّهـم معلولـون ومُنهَكـون بالـدّاء العيـاء، الّـذي استشـرى وصـار فـي أَعلـى درج الاسـتحقاق: اسـتبداد، وفسـاد، وفَسـالة، وفشـل، وفُرقـة، وفقـر، وجهـل، ومـرض إلـخ، فطلبـوا الاسـتنقاذَ مـن تلـك المعاطـبِ الذّميمـة والخطـوب الطّارقـة بإِعـادة النَّظَـر فـي طبيعـة السّـلطةِ وآليّـاتِ تحقُّقِهـا، وسُـبُلِ ضبطِهـا وتَقْويـمِ مسـارِها لأَنّهـا المُؤثّـرُ الأَكبـر فـي حركـة كلّ أَفـراد المجتمـع، فمِنهـم مَـن نـادى بالثَّـورة دفعـةً واحـدة، ومنهـم مَـن دعـا إِلـى الإِصـلاح والتّجديـد والتّربيـة والتّـدرُّج، ونذكـر منهـم: رفاعـة الطّهطـاوي، سـير أحمـد خـان، السّـيّد أميـر علـي، جمـال الدّيـن الأَفغانـي، خيـر الدّيـن التّونسـي، نامـق كمـال، علـي باشـا مبـارك، عبـد الرّحمـن الكواكبـي، محمـد عبـده.

لكـن أَمـام العَنَـت والاسـتعصاء والانغـلاق والكَبْـتِ والخَنْـق الّـذي واجهتهـم بـه الفئـة الأولـى الّتـي راعهـا أَن تفقـد امتيازاتهـا وسـطْوَتَها، قامـت فئـة ثالثـة فحَلّـت العُقـدة بقَطْعهـا، بعـد أَن رُجّـت أَفكارُهـا رجًّـا، وبُسَّـت تصوّراتهـا بسًّـا، فكانـت القاديانيّـة المَولـودة مـن الرّحـم السّـنّيّ فـي الهنـد، والبابيّـة/ البهائيّـة المَولـودة مـن الرّحـم الشّـيعيّ فـي إيـران، دِيانتـان اسـتجابتا لـكلّ مُتطلّبـات الحداثـة، وتخفّفتـا مـن عـبءٍ ثقيـل، وتركـة باهظـة، مـن كلّ مـا يقـف عائقًـا أَمـام القِيَـم الكَونيّـة الحديثـة. وكان علـى رأس أَوْلويّـات

(٤) يمكـن الإِحالـة ههنـا إِلـى موقـف الفقهـاء، مـن كلا الطّرفيـن: سـنّة وشـيعة، المنـاوئ والرّافـض للمشـروطة = الحيـاة الدّسـتوريّة.

هاتَيْـن الفرقتَيْـن تَمَثُّـلُ العلمانيّـة والدّيمقراطيّـة حيـث نصَّـت نصوصُهمـا الّتـي عدّهـا أَتباعهـا مقدَّسـة علـى فصـل الدّيـن عـن الدَّولـة، وعلـى مُراعـاة الدّيمقراطيّـة الكفيلـة بتحقيـق قِيَـم الحداثـة وتطبيقهـا.
وقـد أَدرك الشّـيخ علـي عبـد الـرّازق هـذه الحقيقـةَ فقـال فـي محاضـرة لـه عـن الدّيـن والدّيمقراطيّـة: «مـن الرّاجـح أَنّ دينًـا مـن الأَدْيـان الّتـي نعرفهـا لـم يتكلّـم عـن الدّيمقراطيّـة ولـم يـأتِ فيهـا بقَـوْل صريـح، اللّهـم إلّا أَن تكـون بعـضُ الأَديـان الحديثـة كالبهائيّـة والأَحمديّـة»[٥].
فهـذه إذًا فئـة كانـت مـن المسـلمين حُسِـمَت مسـألة الدّيمقراطيّـة لديهـا منـذ أَكثـر مـن مئـة سـنة، وغـدَتْ أَمـرًا مفروغًـا منـه، بـل مُسَـلَّمة مـن المسـلّمات، لكنّهـا لـم تحسـمها إلّا بعـد الخـروج مـن الإسـلام ذاتـه.
وإذا مـا انتقلنـا إلـى الجيـل الثّانـي مـن تلامـذة الـرّوّاد فـي عالَمنـا العربـيّ والإسـلاميّ فسـنجد أَنّهـم تَعاملـوا مـع مصطلـح الدّيمقراطيّـة بأَرْيَحِيَّـة تامّـة مـن دون أَدنـى تشـنّج أَو تكهـرب. حتّـى مَـن كان مشـهورًا بينهـم بنزعتـه السّـلفيّة المتشـدّدة لـم يكـن يجـد غَضاضـةً فـي أَن يسـتخدم هـذا المصطلحَ ويدلّـل مـن خلالـه علـى رُقِـيِّ الإسـلام وتطـوّر أَهلـه، فهـذا الأُسـتاذ محـبّ الدّيـن الخطيـب مؤسّـس المطبعـة والمكتبـة السّـلفيّة يتحـدّث فـي سـنة ١٩٢٢ «عـن الدّيمقراطيّـة العربيّـة فـي صـدر الإسـلام»، فـي نشـرته الّتـي كان يُصدرهـا بِاسْـم «الحديقـة»، ونقـرأ بعـد ذلـك المقاربـات العديـدة للدّيمقراطيّـة والإسـلام بـدءًا مـن: محاضـرة علـي عبـد الـرّازق حـول الدّيمقراطيّة والدّيـن سـنة ١٩٣٥، إلـى مقـالات أَحمـد حسـن الزّيّـات حـول الدّيمقراطيّـة المنشـورة فـي الرّسـالة سـنة ١٩٣٧، إلـى مقالـة عبـد المجيـد نافـع «الإسـلام والدّيمقراطيّـة» المنشـورة فـي الرّسـالة فـي السّـنة ذاتهـا، إلـى محمّـد البهـي قرقـر الّـذي أَكّـد فـي بحـث لـه نُشِـر فـي «الرّسـالة»

(٥) «مجلّة الهلال»، عدد سنة ١٩٣٥.

أَيضًـا فـي السّـنة نفسـها أَنّ الإِسـلام يضمـن المُلكيّـة والدّيمقراطيّـة، إِلـى محمـد فريـد وجـدي الّـذي كتـب عـن الإِسـلام والدّيمقراطيّـة فـي «الهـلال» سـنة ١٩٤١، إِلـى عبـاس محمـود العقّـاد الّـذي أَصـدر كتابـه **الدّيمقراطيّـة فـي الإِسـلام** سـنة ١٩٥٢، إِلـى عبـد العزيـز الحبابـي الّـذي كَتـب عـن الحرّيّـة والدّيمقراطيّـة فـي «الأَديـب» كذلـك سـنة ١٩٦٠. ونحـطّ رِحالنـا فـي الفتـرة ذاتهـا أَيْ سـنة ١٩٦٠ عنـد مالـك بـن نبـي الّـذي جَمَـع كلّ الـكلام السّـابق ففصّـل وبرهـن وحـدّد محطّـات الوفـاق بيـن الدّيمقراطيّـة والإِسـلام بمـا لا مزيـد عليـه، بحيـث سـيَغدو كلّ الـكلام الّـذي سـيَأتي بعـده حتّـى هـذه اللّحظـة مجـرّد تكـرار وتطويـل وشـرح للمَتـن الّـذي كتبـه وقـرّره. لـذا فمِـن أَعجـب العجـب أَن نتنـادى نحـن المسـلمين اليـوم لتأصيـل مـا أُصِّـل مـن العلاقـة بيـن الدّيمقراطيّـة والإِسـلام، وكأَنّهـا مسـألةٌ مُسـتحدَثة، أَو قضيّـةٌ طارئـة مستجِدّة، فهـل يُتصـوَّر أَن نُعالـج هـذه المسـألة منـذ مئـة وخمسـين سـنة فـي نَفَـس طويـل يحطّـم أَعلـى رقـم يمكـن أَن يتخيّلـه إِنسـان، وفـي ترديـد وتكـرار وإِعـادة بـلا إِفـادة، وفـي مُراوَحـة فـي المـكان، بـلا كلـل ولا ملـل؟

يقول الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس:

«لقـد كانـت المسـيحية أكثـر مـن مجـرد بشـير أو محفّـز لخلـق الوعـي الذاتـي الحديـث، فمبـادئ المسـاواة والكونيـة والتـي ظهـرت منهـا أفـكار الحريـة والتضامـن الاجتماعـي والسـلوك المسـتقل فـي الحيـاة والتحـرر والتي ظهـرت منهـا أيضًـا أخـلاق الضميـر الفرديـة، وحقـوق الإنسـان والديمقراطيـة كلهـا كانـت إرثًـا لأخـلاق العدالـة اليهوديـة وأخـلاق المحبـة المسـيحية. إنّ هـذا الميـراث لـم يتغيّـر جوهريًـا، ولكنـه كان ومـا يـزال موضوعًـا للنقـد المتواصـل وإعـادة التأويـل. حتـى هـذا اليـوم، ليـس ثمـة بديـل آخـر. وفـي ضـوء التحديـات الراهنـة للتشـكلات مـا بعـد القوميـة فإننـا نسـتمر فـي

الاعتماد على جوهر هذا التراث. وكل ما سوى ذلك هو مجرد ثرثرة ما بعد حداثية»[٦].

وما ذكره هابرماس عن ميراث اليهودية والمسيحية يمكن أن نقوله أيضًا عن ميراث الإسلام شريطة أن يخضع هذا الميراث، كما ذكر هابرماس بالنسبة إلى الميراث اليهودي والمسيحي، للنقد المتواصل وإعادة التأويل، ونضيف عليه: شريطة أن تخضع الديمقراطية نفسها للنقد المتواصل بغية تجاوز مشكلاتها ومحاذيرها ومطبّاتها.

فلنترك المتنطّعين، ولْنَدَعْ أَذاهم، ولْنُعْرِض عن استدراجهم إيّانا لمناقشات عدميّة لا تنقطع، ومُماحكات لفظيّة لا تنتهي، فلا يُعقَل أَن نظلَّ لأَكثر من قَرْنٍ نصبّ ماءنا في برميل مثقوب، كفانا... كفانا.

(٦) نادر هاشمي، **الإسلام والعلمانية والديمقراطية الليبرالية، نحو نظرية ديمقراطية للمجتمعات المسلمة**، ترجمة، أسامة غاوجي، تقديم، د. محمد أبو رمان، الشبكة العربية للأبحاث، بيروت، ٢٠١٧، ط.١، ص.٧.

هدي الحيَوان في التّشريع الجنائيّ الإسلاميّ

تستمرّ رحلة دُعاتنا الإسلاميّين في التّنقيب والتّنقير عن كلّ جديد يُسهم في استمالة النّفوس وعطف القلوب نحو الإسلام العظيم، فهُمْ له حُماة كُفاة، ولِتشريعاته قادة ذادة.

وبجأش رابط ينهالون علينا في كلّ إصباحة بأَفكار وتَوْجيهات وإرشادات ومَواعظ لا مقطوعة ولا مَمنوعة، ثمّ وبِنِيَّةٍ جَسور ينثالون علينا في كلّ إمساءة بتحليلات ومقارنات ومقاربات ينسلونها من كلّ حَدْبٍ، ويقتنصونها من أيّ صَوْب.

أمّا نحن المستمعين والمشاهدين فنغضّ الطَّرْف عمّا هُوَ غثّ من طروحاتهم في سبيل ما تحتها من ثمين، ونتجاوز عن محدوديّتهم على اعتبار أنّها تتّسم بقَدْرٍ من الإرادة الخيّرة، وتصبر آذاننا على ضجيج ألسنتهم عسى أن نسمع نغمةَ كلمة طيّبة. ولكن ما لا نصبر عليه هو ما تستكّ منه مسامعنا من شخير عقولهم الّتي تغطّ في نَوم عميق.

ولعلّ آخر ما دهمتنا به قرائحهم هوَ دعْوَتهم النّاس للاعتبار والاهتداء بتشريعات الحيَوان الجنائيّة الجزائيّة الّتي تُثبِت بشكل إعجازي أَنّ تشريع الإسلام، ينسجم مع قوانين العدالة الفطريّة الّتي اهتدى إليها الحيَوان بغريزته وطبعه.

وعلى الرّغم من تسالُم العقلاء جميعًا على أَنّ الحيَوان غير خاضع للتّكليف أَصلًا، فإنّ هؤلاء الدُّعاة يُوَجّهوننا لنسلخ طباعنا وتصرّفاتنا من طباع الحيَوان وتصرّفاته، ويهيبون بنا أَن نتّخذه قدوة وأُسْوَة، وهاديًا

ونصيرًا، سواء أكان قردًا أو طَيرًا أَو حتّى حشرة، مُستخدِمين طريقة الاستدلال الأَوْلَوِيّ، الّذي يقول: إذا كانت الحيَوانات تَجْلِدُ وتَقتل وتَرْجُمُ أَبناء جلدتها من الحيَوانات، فنحن البشر يجب علينا من بابٍ أَوْلى أَن نَجْلِدَ ونَقتل ونَرْجُمَ إحقاقًا للحقّ وإقامة للعدل.

ونبتدئ من الحشرات. فقد أَطلّ علينا الدّاعِيَة الدّكتور محمد العريفي ليَعرض علينا في إحدى القنَوات الفضائيّة فيلمًا تسجيليًّا عن نحلات تتقاتل فيما بينها، لأَنّ إِحدى هذه النّحلات، كما يُخبرنا، كانت قد شربتْ من رحيق إِحدى الزّهرات المُتخمِّر ممّا أَدّى إِلى سكرها، لكنّ الله زوّد بعض النّحلات بما يُشبه أَجهزة الإِنذار، فتستطيع تحسُّس رائحة النّحل السّكران، هذا النّحل الّذي يُفسد العسل، وتُقاتله وتُبعده عن الخليّة بل وتجلده [كذا][1].

ينتهي الفيلم فيظهر العريفيّ وقد ارتسمت على ملامحه أَقصى حدود الاغتباط بهذا الاكتشاف المذهل، أَلا وهو عقوبة النّحلة السّكرانة المتطابق مع عقوبة الشّريعة الإِسلامية الغرّاء، وليخلص إِلى النّتيجة النّهائيّة الحاسمة: «أَليس النّحل أَعقل من بعض البشر»؟! وربّما ظنّ هذا الدّاعية أَنّ المُشاهد سيَقف أَخرس من الإِعجاب، وأَنّه سيهتزّ هزّة تبلغ أَعماق روحه، ولم يَدْرِ أَنّه لا يطرح إلّا تساؤلًا نابيًا عن الذّوْق والفَهْم، بل لا يقدّم إلّا صُرّة من المهانة والعار. فهذا الإِسقاط من عالم البشر على عالَم الحيَوان هو السّقوط بعَيْنه، وهوَ علامة الإِعياء في التّفكير النّظريّ، وفي المُحاكمة العقليّة والشّرعيّة.

وننتقل إِلى الطّيور حيث يُطلّ علينا داعيَة آخر أَكبر سنًّا، وأَرفع منزلة وأَعلى مقامًا من الدّاعيَة الأَوّل وهو الدّكتور زغلول النّجار، المُمسك بأَعِنَّةِ المعلومات الجيولوجيّة والجغرافيّة والفلكيّة والرّياضيّة والفيزيائيّة

(١) https://www.youtube.com/watch?v=HIzxD0yJX4Q

والكيميائيّة إلى آخر ما هنالك من علوم تجريبيّة وتطبيقيّة، فيُحدّثنا عن إعجاز التّشريعات الجنائيّة الجزائيّة للغربان، فيقول لنا: «وللغربان محاكم تلتزم قوانين العدالة الفطريّة، تُحاكِم الجماعة فيها أيَّ فَرْدٍ يخرُج على نظامها من مِثْل محاولات التّعدّي على حُرمات غراب آخر من أُنثى أو فراخ أو عشّ أو طعام، ولكلّ جريمة عند جماعة الغربان عقوبتها الخاصّة بها، ففي حالة اغتصاب طعام الفراخ الصّغار تقوم جماعة الغربان بنَتْفِ ريش الغراب المُعتدي حتّى يُصبح عاجزًا عن الطَّيَران، كالفراخ الصّغار قبل اكتمال نُمُوِّ ريشها، وفي حالة اغتصاب العشّ وتهدّمه في مراحل الدّفاع عنه تكتفي محكمة الغربان بإلزام المُعتدي ببناء عشّ جديد لصاحب العشّ المُعتدَى عليه، وقد يتبع ذلك الطّردُ من الجماعة إذا تكرّرت الأَخطاء من هذا النَّوع، وفي حالة اغتصاب أُنثى غراب آخر فإنّ جماعة الغربان تقضي بِقَتْلِ المُعتدي ضربًا بمناقيرها حتّى المَوْت. وتنعقد محاكم الغربان عادة في حقل من الحقول الزّراعيّة أو في أَرض فضاء واسعة تتجّمع فيه هَيئة المحكمة في الوقت المحدّد، ويُنحى الغراب المتّهم تحت حراسة مشدّدة، وتبدأ محاكمته فيُنَكِّس رأسه، ويخفض جناحَيْه، ويُمسك عن النّعيق اعترافًا بذنبه، فإذا صدر الحُكم بالإعدام، وَثَبَتْ جماعة الغربان على المُذنب توسِعُه تمزيقًا بمناقيرها الحادّة حتّى المَوت، وحينئذ يحمله أَحد الغربان بمنقاره ليحفر له قبرًا يَتَواءم مع حجم جسده، يضع فيه جسد الغراب القتيل، ثمّ يَهيل عليه التّراب احترامًا لحرمة الموت»(٢).
أَمّا الخلاصة والنّتيجة الّتي يجنيها الدّكتور الزّغلول، ثمّ يُلقّمنا إيّاها فهيَ قوله: «وهكذا تُقيم الغربان العدل الإلهيّ في الأَرض أَفضل ممّا يُقيمه

(٢) زغلول راغب محمد النّجار، **من آيات الإعجاز العلميّ: الحيَوان في القرآن الكريم**، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٦، ط. ١، ص. ٤٠٧.

كثير من بني الإنسان، فالعدل في الغربان من الأُمور الغريزيّة الفطريّة لأنّها لا تُشرِّع لنفسها، ولكنّها تتحرّك بفطرتها المسلمة بأَنّ الحاكميّة لله وحده، ومن أَهمّ بنودها التّشريع، فالمُشرِّع هو الله سبحانه وتعالى الّذي شرّع لكلّ الخلائق وغَرَس شريعته في جبلة كلّ مخلوق غير مكلّف حتّى أَصبح العدل الإلهيّ جزءًا لا يتجزّأ من تَكْوينهم وفطرتهم، أَمّا الإنسان، ذلك المخلوق المكلّف فيُحاول التّشريع من عنده بعِلمه المحدود، وقدراته المحدودة حتّى نسِيَ العدل الإلهيّ، وأَراد إِقامة عَدْلٍ نسبيّ من عنده فظلم نفسه وظلم غيره»[٣].

هنا يُخطئ داعيَتُنا العلّامة إِذا ظنّ أَنّ فِكْرَنا سيتقبّل هذه الخلاصة وتلك النّتيجة بقبول حسن، ويَتَوَهَّم إِذا خال أَنّ أَحاديث ثرثراته ستحوز الإعجاب، فهذه المعلومات المجمّعة تجميعًا مسرحيًّا، والبالغة حدّ الغروتسك Grotesque، والّتي لا نعلم مدى مَوْثوقيّتها، ولا مقدار صحّتها، تأتلف من عدد من ضروب الشّطط والتّجاوز لا يمكن الصّفح عنها، وإِلّا فَلْيُحَدِّثْنا هذا الدّاعية عن أَركان الجريمة في عالَم الغربان، وهل يكتفي الغربان بالفعل فقط أَم ينظرون إِلى النّيّة وإِلى القصد؟ وهل من فَرْقٍ بين الفاعل والشّريك في عالَم العدالة الفطريّة!؟ وَلْيُخبرنا عن وسائل إِثبات الجريمة، وعن الشّهادة ونصابها، وهل العدالة الرّبّانيّة الفطريّة المطلقة فرّقت بين شهادة ذَكَر الغراب وبين شهادة أُنثاه؟ أَم سَوَّتْ بينهما؟ وهل إِقرار الغراب معتبَر؟ وهل هو حجّة قاصرة على المقرّ؟ وفي معرض حديثه عن صُوَر تنفيذ العقوبة هلّا حدّثَنا عن موانع التّنفيذ، وهل العدالة الرّبّانيّة الفطريّة الغريزيّة عند الغربان تدرأ الحدود بالشّبهات؟!

نعم مهما كان جواب الدّكتور الزّغلول فإِنّه سيَظلّ يدفع بالأُمور خارج

---

(٣) المصدر السّابق، ص. ٤٠٨.

حدودها، بل وسوف يفقس حتمًا أَسئلة جديدة لا حدّ لها ولا حصر.
وعجبي من هؤلاء الدُّعاة الّذين يتّخذون من أَفعال الحيَوان حجّة علينا في حين يقرّر معظم علماء أُصول الفقه أَنّ أَفعال الرّسول نفسها لا حجّيّة فيها إِذا لم يُعلَم على أيِّ وجه فُعِلَت، لأَنّ الفِعل يحتمل الوجوب والاستحباب والإِباحة، وإِذا احتمل هذه الوجوه لم يكن حَمله على بعضها بأَوْلى من الحَمل على الباقي فوَجب التّوقّف فيها.
وعلى كلّ حال لن نذهب في استعراض المسابقة المَحمومة في الاستنجاد والاستهداء بأَفعال الحيَوان الّتي يقدّمها لنا في كلّ يَوم داعيَة جديد حتّى لا يطول بنا المقام، ولن نتحدّث عن عقوبة النّملة الكاذبة الّتي يُتحفنا بها الدّكتور الشّيخ عمر الأَشقر، ولا عن العقوبة الّتي أَوْقعها بنفسه الحصان الّذي نزا على أُمّه دون أَن يدري، إِلى آخر هذه الاستشهادات الّتي ستتكاثر وتَطغى إِن بقينا في سُباتنا[٤].
ونحطّ رحالنا ـ أَخيرًا ـ عند المُنَظِّر الأَوّل والإِمام الأَكبر لِمَن بعده من الدّعاة في التّرويج لتشريعات الحيوان الجَزائيّة المُطابقة لتشريع الإِسلام، أَلا وهوَ عمرو بن ميمون، الّذي أَدرك الجاهليّةَ، وأَسلم في عهدِ النّبيّ ـ صلّى اللهُ عليه وسلّم ـ ولكنّهُ لم يرَهُ، ولم يَرْوِ عنهُ، ويُطلَقُ على أَمثالهِ في كُتبِ التّراجمِ والرّجالِ: مُخَضْرَمٌ.
وقد أَراد هذا الرّجل إِثبات أَنّ حُكْمَ رَجْمِ الزّاني المحصّن أَصيل ثابت، وأَنّ الإِسلام لم يبتدعْه، فساق هذه القصّة الّتي أَوْردها الإِمام البخاريّ في كتابه **التّاريخ الكبير** على الشّكل التّالي: عن عمرو بن ميمون قال: «رأيتُ في الجاهليّة قِرْدَةً اجتمع عليها قرودٌ فرجموها فرجمتُها معهم»[٥]، وهذه هي الحادثة بحذافيرها كما وردتْ في

(٤) عمر سليمان الأَشقر، **عجائب صنع الله**، تصميم وإخراج موقع معرفة الله، ص. ١١.
(٥) محمد بن إسماعيل البخاري، **التّاريخ الكبير**، تحقيق محمد عبد المعيد خان، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانيّة، ج. ٦، ص. ٣٦٧.

شكلها الأَوّل، ثمّ رواها البخاريّ مرّة أُخرى في صحيحه فزاد فيها أَنّ القِرْدَةَ زنتْ، فأَصبحت الرّواية كما يلي: «رأيتُ في الجاهليّة قِرْدَةً اجتمع عليها قِرَدَة قد زنتْ فرجموها فرجمتُها معهم»(٦)، ولكن باعتبار أَنّ المخيّلة لا يتأتّى لها إِلّا أَن تزداد تحفّزًا أَمام هذه القصّة فقد بدأت تظهر روايات أُخرى تسدّ النّقص وتشرح وتعلّل وتبيّن وتوضح، فرواها الإِسماعيليّ في مُستخرَجه على الشّكل التّالي، قال عمرو بن ميمون: «كنتُ في اليَمن في غنم لأَهلي وأَنا على شرَف، فجاء قرد مع قِرْدَة، فتوسّد يدها، فجاء قرد أَصغر منه فغمزها فسلّت يدها من تحت رأس القرد الأَوّل سلًّا رقيقًا وتبعَتْه فوَقَع عليها وأَنا أَنظر، ثمّ رجعتْ فجعلتْ تُدخل يدها تحت خَدّ الأَوّل بِرِفْقٍ، فاستيقظ فزعًا، فشمّها فصاح فاجتمعت القرود فجعل يَصيح ويومئ إِليها بيَده فذهب القرود يمنة ويسرة، فجاؤوا بذلك القرد أَعرفه، فحفروا لهما حفرة فرجموهما. فلقد رأيت الرّجم في غير بني آدم»(٧).

وفي هذه الرّواية اللّاحقة نرى شرحًا يُثبت واقعة الزّنى، بل ويقدّم له مسوّغاته، وهو فتوّة القرد الزّاني وشبابه، فهما سبب غواية القِرْدَة وخيانتها، وحتّى لا يتنطّع مُتَنَطِّع ويتساءل عن صعوبة أَن يحفر القِرَدَة حفرة يُحصر فيها الزّاني والزّانية، فقد جاء في رواية تالية: «فانطلَقوا بها وبالقرد إِلى مَوضع كثير الرّمل، فحفروا لهما حفيرة، فجعلوهما فيها، ثمّ رجموهما حتّى قتلوهما»(٨)، ثمّ ومن أَجل إِكمال المشهد

---

(٦) محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، تحقيق محمد زهير النّاصر، طوق النّجاة، بيروت، ٢٠٠١، ط. ١، ج. ٥، ص. ٤٤.

(٧) أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تحقيق عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، ١٩٦٠، ج. ٧، ص. ١٦٠.

(٨) أبا نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، **معرفة الصّحابة**، تحقيق عادل العزازي، دار الوطن للنّشر، الرياض، ١٩٩٨، ط. ١، ج. ٤، ص. ٤٧.

وإغنائه تُضيف الرِّواية: «فانتبَهَ القرد، فقام فشمّ دبرها، فصاح صَيحة، فاجتمعت القرود، فقام واحد منهم كهَيئة الخطيب، فوجّهوا في طلب القرد، فجاؤوا به بعَيْنِه، وأَنا أَعرفه، فحفروا لهما فرجموهما»[٩].

والحقّ أَنّ بعض علماء السّلف شكّك في هذه القصّة، فالحميدي في كتابه **الجَمع بين الصّحيحَيْن** قال: «وحكى أَبو مسعود أَنّ له في الصّحيح حكاية من رواية حُصَيْن عنه قال: رأيتُ في الجاهليّة قِرْدَةً اجتمع عليها قِرَدَة، قد زنتْ فرجموها فرجمتُها معهم. كذا حكاه أَبو مسعود، ولم يذكر في أَيّ مَوضع أَخرجه البخاري من كتابه، فبحثنا عن ذلك فوجدناه في بعض النُّسَخ لا في كلّها، وقد ذُكِرَ في أَيّام الجاهليّة. وليس في رواية النّعيمي عن الفربري أَصلًا شيء من هذا الخبر في القردة، ولعلّها من الْمُقْحمَات الّتي أُقحمَت في كتاب البخاري»[١٠]، أَمّا ابن عبد البرّ فَقَدْ استنكر القِصَّة سندًا ومتنًا، وقال: «وأَمّا القصّة بطولها فإنّها تدور على عبد الملك بن مسلم، عن عيسى بن حطان، وليسا مِمَّن يُحْتَجّ بهما، وَهَذا عِنْدَ جماعة أَهل العِلم مُنكَر إضافة الزّنا إلى غَير مكلّف، وإقامة الحدود فِي البهائم، ولَو صحَّ لَكانوا من الجِنّ، لأَنّ العبادات في الجنّ والإنْس دون غيرهما»[١١]. وكان يُفترَض بعلمائنا أَن يقفوا عند هذا الحدّ، ويُسقِطوا هذه الرّواية، لكنّ عددًا كبيرًا منهم كان ذا عقل تسويغيّ أَمام المَرْوِيّات، وبخاصّة إذا وردتْ في صحيح الإمام البخاريّ، وعندها فلكلّ سؤال جواب، ولكلّ معضلة حلّ، ولكلّ طامّة إلزام. فهل نحن على استعداد للجَرْيِ مع هذا الإلزام إلى آخر مداه؟

---

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) الحميدي، **الجمع بين الصّحيحَيْن**، تحقيق علي حسين البواب، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٢، ط. ٢، ج. ٣، ص. ٤٩٠.

(١١) أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأَصحاب**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢، ط. ١ ج. ٣، ص. ٢٠٦.

وأمام طامّة عمرو بن ميمون هذه، وشكّ الحميدي في أنّها قد تكون مُقْحَمَة على كتاب الإمام البخاري أتانا العُلماء، على لسان ابن حجر، بالإلزام التّالي: «وأمّا تَجويزه أن يُزاد في **صحيح البخاري** ما ليس منه فهذا يُنافي ما عليه العلماء من الحُكم بتصحيح جميع ما أوْرده البخاري في كتابه، ومن اتّفاقهم على أنّه مَقطوع بنسبته إليه، وهذا الّذي قاله [أيْ الحميدي] تخيُّل فاسد يُتطرَّق منه عدم الوثوق بجميع ما في الصّحيح، لأنّه إذا جاز في واحد لا بعَيْنه جاز في كلّ فَرْدٍ فَرْدٌ، فلا يبقى لأحد الوثوق بما في الكتاب المذكور»[١٢].

فإمّا أن تُصدّق هذه الطامّة وتُطأطئ لها، وإمّا أن نُلزِمَك بأنّك تفتح الباب لِنَسْفِ **صحيح البخاري** كاملًا.

وَلْنَعُدْ مرّة أُخرى إلى السّؤال الأساسيّ الّذي تُثيره هذه القصّة:

كيف نُضيف الزّنا إلى الحيوان؟ والزِّنا وَصْفٌ شرعيّ لفعل المكلّف، تمامًا كَوَصْف الزّواج والزّواج الفاسد والزّواج الباطل والوطء بشبهة فهذه كلّها أوْصاف نابعة من عالَم الاعتبار الشّرعيّ، الّذي لا يدخل الحيوان في حرمه.

كيف تُقيم البهيمة الحدَّ على أخواتها في حين أنّ الحيوان غير مكلّف، كما هو مسلّم به؟

ومن هنا شكّل الاستشهاد بفعل الحيوان لِدعم هذا الاعتبار الشّرعيّ مُعْضِلَةً تحتاج إلى حلّ.

وأمام هذه المعضلة استَوْلدنا من رحم المُمكن والمُحتمَل وربّما ولعلّ أجْوِبةً مضحكة مبكية داست بنعلها أكبر عقل، ودمغت أبلغ حجّة.

---

(١٢) الحافظ ابن حجر العسقلاني، **شرح صحيح البخاري**، ج. ٧، ص. ١٦١.

أمّـا الجـواب الأوّل فـأوْرده ابـن عبـد البـر قائـلًا: «لعـلّ هـذه القِـرَدَة كانـت مـن الجـنّ لأنّهـم مـن جملـة المكلّفيـن»[١٣]. علمًـا أنّ هـذا الجـواب يُخالـف صريـح القـرآن الكريـم الّـذي جـاء فيـه: «إنّـه يَراكُـم هُـوَ وَقَبيلُـهُ مـن حيـث لا تَرَوْنَهـم» [الأعراف: ٢٧]. ولكـن لا بـأس بمخالفـة القـرآن الكريـم كُرمـى عيـون روايـةٍ انفـرد بهـا الإمـام البخـاري مـن دون الكُتُـب التّسـعة.

أمّـا الجـواب الثّانـي فـأَوْرَدَه ابـن التّيـن وقـال: ربّمـا كان هـؤلاء القـرود مـن نسـل اليهـود الّذيـن مُسـخوا فبقـي فيهـم ذلـك الحُكـم. لكـنّ هـذا الجـواب فتـح سـؤالًا آخـر وهـو أنّ المسـخ لا يتناسـل، فقـد ثَبَـتَ فـي صحيـح مسـلم: «إنَّ الْمَمْسُـوخ لا نَسْـل لَـهُ»[١٤]!؟

فجـاء الجـواب الألمعـي: «ولكـن لا يلـزم أن تكـون القـرود المذكـورة مـن النّسـل، فيُحتمـل أن يكـون الّذيـن مُسـخوا لمّـا صـاروا علـى هيئـة القِـرَدَة مـع بقـاء أفهامهـم عاشـرَتْهم القِـرْدَة الأَصليّـة للمُشـابهة فـي الشّـكل فتلقّـوا عنهـم بعـض مـا شـاهدوه مـن أفعالهـم فحفظوهـا وصـارت فيهـم»[١٥]. وهذا يعنـي أنّ اليهـود المَمسـوخين بلّغـوا رسـالة اللـه للقـرود، فعلّموهـم حُكْـمَ رَجْـمِ الزّانـي، ولكـن لا نـدري لمـاذا لـم يعلّموهـم أَحكامًـا أُخـرى تتعلّـق بالختـان، أَو بالقصـاص العَيْـنُ بِالعَيْـنِ، وَالسِّـنُّ بِالسِّـنِّ، وَالبـادي أَظْلَـمُ، أَو أَحكامًـا تتعلّـق بالعبـادات والمُعامـلات إلـى آخـر مـا هنالـك ممّـا يتفتّـق فـي ذهـن الإنسـان.

أمّـا ابـن العربـي المالكـي فلَـمْ يسـلّم بـأَنّ المَمسـوخ لا نَسْـلَ لـه، واسـتخدم أُسـلوب الفنقلـة فقـال: «فـإن قيـل: وكأَنَّ البهائـم بقيَـتْ فيهـم معـارف الشّـرائع حتّـى وَرِثوهـا خَلَفًـا عـن سَـلَف إلـى زمـان عمـرو.

(١٣) ابن حجر، **فتح الباري**، ج. ٧، ص. ١٦٠.
(١٤) المصدر السّابق.
(١٥) المصدر نفسه.

قلنا: نعم، كذلك كان؛ لأَنَّ اليهود غيّروا الرّجم، فأَراد اللّه أَن يُقيمَه في مُسُوخهم، حتّى يكون إبلاغًا في الحجّة على ما أَنكروه من ذلك، وغيّروه، حتّى تَشهد عليهم كتبهم وأَحبارهم ومسوخهم، حتّى يعلموا أنّ الله يعلم ما يُسِرُّون وما يُعلنون، ويُحصي ما يُبَدِّلون وَمَا يُغَيِّرون، ويُقيم عليهم الحجّة من حيث لا يشعرون، وينصر نَبِيَّهُ وهُمْ لا يُنصَرون»[١٦].

هكذا إذًا نَصَرَ الله نبيّه، وخَذَل اليهودَ، وأَقام الحُجّةَ عليهم...

نعم، هذا غَيْضٌ من فَيْضٍ من تراث أُقحِم فيه دَخيلٌ مملوءٌ بالخرافة والفَوضى والتّناقض، دَخيلٌ أَعمًى مُنطمِسُ البصيرة يقود عميانًا آخرين.

وعلى الرّغم من أَنّ ربّهم يدعوهم للإبصار والتّبصّر، وإسلامهم يحضّهم على التّعقّل والتّدبّر، ويأمرهم بالمحاكمة وبالنّقد وبالنّصيحة، فإِنّهم يرفضون أَن يُبصروا ويتبصّروا، ويأبَون أَن يتعقّلوا ويتدبّروا، ويخافون ويمرضون ويموتون دون أَن يحاكِموا أَو ينقدوا أَو ينصحوا.

يخشَون الله ويُوَقّرون رسوله، وهُمْ للبخاري أَشدّ خشية وتَوقيرًا وتعزيزًا، ومثالنا الّذي نحن فيه هو خَيْر مُخبِر وأَوْفى مُعبِّر.

ولعلّنا بِتنا الآن نعرف جواب السّؤال التّالي: لماذا اجتبانا القدرُ من بين جميع البشر بمثل هؤلاء الدّعاة المُعاصرين، من أَمثال العريفي وزغلول النّجّار الّذين زادهم الله بسطةً في الجهل والسّخف؟

أَيّها الدّعاة: دَعوكم من التّرّهات، ومن أَحاديث الإعجاز الّتي لا تُثبِت إلّا عَجْزَكم.

---

(١٦) محمد بن عبد الله ابن العربي المالكي، **أحكام القرآن**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٣، ط. ٣، ج. ٢، ص. ٣٣٢.

أَمّـا إِذا أَردتـم البرهـان علـى صـدق الوَحْـيِ فأَمامكـم كمـال النّظريّـة الدّاخلـيّ، وإِن أَردتـم بيـان هـذا الكمـال فهيّـا إِلـى التَّوثيـق والتّحقيـق. أَعنـي تَوثيـق المعلومـات وتحقيـق المفاهيـم والمُصطلحـات اللّذَيْـن يختزنـان فـي طيّاتهمـا: الضّبـط والتّدقيـق، والدّرايـة والإِلمـام، والشّـمول والاتّسـاع، والرّسـم والتّحديـد. وبهـذا يقـوم التّوثيـق والتّحقيـق بـدَوْرِ الصّمـغ الّـذي يُمسـك مفـردات المُعطـى المعرفـيّ الإِسـلاميّ أَن تنزلـق فـي وِهـاد الفَوضـى والتّشـتّت والاختـلال.

النّكاية باعثٌ من بَواعث الفكر الإِسلاميّ من أَجل فَهْمٍ أَعمق لأَسباب اختلاف الفقهاء والعلماء

وقف دارِسو تاريخ التّشريع الإِسلاميّ في بحثهم لأَسباب اختلاف الفقهاء عند الأَسباب الموضوعيّة والظّاهريّة لهذا الاختلاف، وفتّشوا عنها في طبيعة النّصّ، وفي طُرُق دلالاته واحتمالاتها وتَعارُضها، وفي اختلاف الفقهاء والأُصوليّين في بعض المبادئ اللّغويّة الّتي يتوقّف عليها استنباط الأَحكام من النّصوص، أَو اختلافهم في الاحتجاج ببعض مصادر الفقه والاعتماد عليها في عمليّة الاستنباط الشّرعيّ، أَو اختلافهم في كَيْفِيَّة التّرجيح بين بعض النّصوص المُتعارضة، إِلى آخر ما هنالك من أَسباب معروفة مشهورة، لكنّ هذه الأَسباب الّتي عرضها هؤلاء الدّارسون لم تكن كاملة، فَقَدْ أَغفلوا أَسبابًا أُخرى لِصالح رَسْمِ صورةٍ مُتخيَّلة مأمولة مثاليّة، فَهُمْ لم يتناولوا دَوْرَ الفقيه نفسه بما هو إِنسان باعتباره سببًا من أَسباب هذا الاختلاف، اللّهم إِلّا في حديثهم عن اختلاف الاستعدادات والملَكات الذّهنيّة والعقليّة بين العلماء، وكَوْنها مسؤولة عن بعض هذا الاختلاف، غَيْرَ أَنّهم لم يمتلكوا الجسارة التّنويريّة ليدرسوا الأَسباب الذّاتيّة النّفسيّة كالنّكاية مثلًا، أَو ليُمَحِّصوا الأَسباب النّفعيّة كالتّملّق واصطناع الأَيادي الّتي تُحرّك الفقيه أَو العالِم لإِنتاج قول دون قول، أَو لِتبنّي رأيٍ على رأي، أَو تدفعه للاصطفاف في طابور فقهيّ أَو مذهبيّ ضدّ طابور آخر، ولَوْ على خلاف مُيوله سواء

أكانت صاحِيَة أم هاجعة، ولم يتوجّهوا لصياغة كلّ ذلك ضمن رؤية بانوراميّة متكاملة.

ولَئِنْ سألني سائل: ما الّذي تقدّمه لنا مِثْلُ هذه الإثارة؟ وبماذا تُفيدنا؟ فإنّي أُجيب: يكفي أن تُقدّم لنا شيئًا واحدًا فقط، ألا وَهُوَ الفَهم. أَنْ نفهم ما جرى، وأَنْ نفهم ما يجري. وهذا في حدّ ذاته أَهَمّ مكسب وأعظم ربح. أمّا جميع الفوائد الأُخرى فتأتي في الدّرجة الثّانية، وفي مقدّمتها الخروج من حالة سوء الفِطنة الّتي تتلبّسنا جرّاء حُسْن ظنّنا المُفرط بالعلماء، ومعاملتهم على أنّهم نَوع من الكائنات العُلْوِيَّة الّذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمَرون، وهذه الفائدة تنطلق من المنطق القرآنيّ نفسه الّذي عاب على السّابقين إضفاءهم القداسة والعِصْمَة على الأحبار والرّهبان «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» [التّوبة: ٣١]، ومن البَيان القرآنيّ عَيْنِه الّذي يؤكّد أَنّ الانخراط في سلك العِلم والرّهبنة والمشْيَخة لا يَعْصُمُ الإنسان من النّوازع المادّيّة الّتي قد تسيطر عليه، فتُوَجِّهُه وتدفعه وتؤثّر في حركته الفكريّة والسّلوكيّة «إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» [سورة التّوبة: ٣٤].

ومن هذا المُنطلَق نقول: إنّ بعض النّاس يظنّون أنّ العلماء والمشايخ ورجال الفكر الإسلاميّ الغابرين والمُعاصرين رَهْطٌ مؤتَلِفون، وزملاء في الله، لا تحرّكهم إلّا روحٌ عذبة وإرادةٌ طاهرة، ونحن إن سلّمنا بذلك لبعضهم أو لِقلّة قليلة منهم، فإننا نجزم أنّ أكثريّتهم تتوزّع بواعثهم ودوافعهم ومحرّكاتهم على المنافسة تتبعها النّكاية، وعلى التّملّق يصحبه اصطناع الأيادي، بل نعتقد أنّ أُخُوَّتهم تناحريّة، وصداقتهم تشاكسيّة، مِصداق ما رُوِيَ عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: «خذوا العِلم حيث وُجِدْتُم، ولا تقبلوا قَوْلَ الفقهاء بعضهم في بعض،

فإنّهم يتغايرون تغايُر التُّيوس في الزّريبة»[١]، وما رُوِيَ عن مالك بن دينار: «يؤخَذ بِقَوْل العلماء والقرّاء في كلّ شيء إلّا قَوْل بعضهم في بعض فإنهم أَشدّ تحاسدًا من التُّيوس، تُنْصَب لهم الشّاة الضّارب فَيَثِبُ هذا من ههنا، وهذا من ههنا»[٢].

وفي حَوْمَةِ تَطاحُنِهم تُجدَل أَحابيل الدّهاء فَيَنتُج عنها ما نسمّيه في العُرْف العامّ مواقف، وفي خضمّ تناطُحهم تنقدِح شرارات مُتطايرة فنسمّيها في العُرْف الفقهيّ فتاوى، وفي العُرْف الكلاميّ مقالات.

أَمّا المُطّلِع على المُعاصرين منهم فيعرف أَنّ كلّ واحد من هؤلاء هو أَعظم في نفسه من جَلِفَر بَيْن الأَقزام، ومن البُراق بَيْن الحمير، وأَمّا المُنغمِس فيهم فيعرف ما في صدورهم على بعضهم من سَخيمَة وحَسيكَة، وما في قلوبهم من غِلّ وَوَغْر، وليس هذا أَمرًا طارئًا ولا مُستحدَثًا، فلَوْ رجعنا إلى المؤلّفات والكتب التّراثيّة فإنّنا سنَجِد تَوْثيقًا كاملًا لِما ندّعيه، وخُذوا على سبيل المثال الباب الّذي عَقَدَه الإمام ابن عبد البرّ في كتابه **جامع بيان العلم وفضله** تحت عنوان: باب حُكم قَول العلماء بعضهم في بعض[٣] حيث نقرأ في هذا الباب عرضًا مُوَثّقًا بالأَسانيد المتّصلة لآراء أَئِمّة العِلم بعضهم ببعض فيُصيبنا الذّهول والعجب، فَعَنْ عبد الله بن إدريس أَنّه قال: «قَدِم علينا محمد ابن إسحاق [أَهمّ مُدوِّن للسّيرة النّبويّة] فذكرنا له شيئًا عن مالك، فقال: «هاتوا عِلم مالك فأَنا بيطاره»». قال ابن إدريس: «فلمّا قَدِمْتُ المدينة ذكرتُ ذلك لمالك فقال: «ذاك دجّال من الدّجاجِلة. نحن أَخرجناه من المدينة»».

---

(١) يوسف بن عبد الله ابن عبد البر، **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق أَبو الأَشبال الزّهيري، دار ابن الجوزي، السّعوديّة، ١٩٩٤، ط. ١ ج. ٢، ص. ١٠٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ج. ٢، ص. ١٠٩١.

(٣) المصدر نفسه.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

ويتحدّث كذلك الإمام مالك عن فقهاء العراق فيقول: «أَنزِلوهم منكم منزلة أَهل الكتاب، لا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم، وقولوا آمنّا بالّذي أُنزِل إلينا وأُنزِل إليكم وإِلَهُنا وإِلَهُكم واحد».

وهذا ابن أَبي ذؤيب يتكلّم في الإمام مالك بِكلام فيه من الخشونة والجفْوَة ما يُخجِل ابن عبد البرّ عن إيراده.

أَمّا إِبراهيم بن سعد فَلَمْ يكن يُشْفيه مجرّد ذمّ الإمام مالك بل كان يدعو عليه.

وهذا حمّاد بن أَبي سليمان فقيه الكوفة وشيخ الإمام أَبي حنيفة يقول لأَهل الكوفة بعد أَن يعود من مكة: «يا أَهل الكوفة إني لَقيْتُ عطاءً وطاووسًا ومجاهدًا فلَصِبْيانكم وصِبْيان صِبْيانكم أَعْلَمُ منهم».

وهذا هو الزّهري يقول: «ما رأيتُ قَوْمًا أَنقض لِعرى الإِسلام من أَهل مكّة».

أَمّا الشّعبي فيُذْكَر عِنده إبراهيم النّخعي فيقول عنه: «ذاك الأَعْوَر الّذي يستفْتيني باللّيل، ويجلس يَفتي النّاس بالنّهار»! وعندما يُذكَر ذلك لإِبراهيم يقول عن الشّعبي: «ذاك الكذّاب لم يسمع من مسروق شيئًا».

وقال المروزي: كان بَيْنَ سعيد بن المسيب وبَيْنَ عكرمة ما كان حتّى قال فيه ما حُكِيَ عنه أَنّه قال لغلامه بُرْد: «لا تكذب عليّ كما يكذب عكرمة على ابن عباس».

وعن علي بن خشرم قال: «سمعتُ الفضل بن موسى يقول: دخلتُ مع أَبي حنيفة على الأَعمش نَعودُه، فقال أَبو حنيفة: «يا أَبا محمّد لَولا التّثقيل عليك لَعُدْتُك أَكثر ممّا أَعودُك». فقال له الأَعمش: «والله إنّك لَثقيل وأَنت في بَيتك فكيف إذا دخلتَ عليّ»؟ قال الفضل: فلمّا خرجنا من عنده قال أَبو حنيفة: «إنّ الأَعمش لم يَصُمْ رمضان قطّ، ولم يغتسل من جنابة»، فقلتُ للفضل: ما يعني

بذلك؟ قال: كان الأعمش يرى الماء من الماء، ويتسحّر على حديث حذيفة».

أمّا ابن معين فكان لدَيْه فَضْلُ طاقةٍ تجريحيّةٍ تدميريّةٍ لم يَسْلَم منها الإمام الأوزاعي ولا الزّهري ولا طاووس ولا الإمام الشّافعي.

ويقول الذّهبي في كتابه **ميزان الاعتدال**: «كلام الأَقران بعضهم في بعض لا يُؤْبَه به، لا سيّما إذا لاح لك أنّه لِعداوة أو لِمنصب أو لِحسد، وما ينجو منه إلّا مَنْ عصمه الله، وما علمتُ أنّ عصرًا من الأعصار سَلِمَ أهلُه من ذلك سوى الأنبِياء والصّدّيقين، ولَو شئتُ لَسردتُ من ذلك كراريس»(٤).

وما أَوْردناه للتّوّ يكشف لنا حقيقةً لسنا بِحاجة للجدال بشأنها من كَوْن العلماء ليسوا في قلعة حصينة منيعة من الغرائز والطّباع، فَهُمْ أولو هواجس، ينتابهم ما ينتابنا من انفعالات، ويُحيق بهم ما يُحيق بنا من وَساوِس ويخضعون لآليّات التّنافس والتّحاسد نفسها الّتي يخضع لها أَرباب المهنة الواحدة، وهذا ما قرّره الجاحظ وابن الجوزي، وهذا ما أَسْهَبَا في شرحه وضَرْبِ الأَمثلة له، ولئن أَكَّدَا أَنّ أَهل الظّرف قلّما يتحابّون فيما بينهم، فإنّني أُؤكّد أَنّ أَهل العِلم قلّما يتصافون، فَضْلًا عن أَن يتحابّوا، غير أَنّهم يمتازون من الجميع بأَنّهم ذوو جِبِلَّة حارّة وقائظون، ولا يُطيقون شَيْئًا فَوْق ذَواتهم، فقد اعتادوا أَنْ يكونوا أَوّلًا، وأَن يكونوا مُرادين، وأَنْ يكونَ النّاسُ تابِعين مُريدين، لذا فَهُمْ يَشْقَوْن بالمنافسة، ويعيشون حالةً من التّوهّم الكئيب الّذي يَسومُهم سوء العذاب، ويَحْيَون بتأهّب دائم لأَنْ تترعرع حفائظهم ضدّ مُزاحِميهم، ولأَنّهم بَشَر فإنّ لهم شَياطينَهم أَيضًا، وهي كشَيْطان كزنتزاكس الّذي

---

(٤) محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي، **ميزان الاعتدال**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٣، ط. ١، ج. ١، ص. ١١١.

يكمـن منتظـرًا وراء فضائلهـم لابسًـا لُبـوس الفضيلـة، وهـو واثـق أَنّ سـاعته سـتجيء عاجًـلا أَم آجـلًا، وهـي عندمـا تأتـي لا يتّجـه عملهـم غالبًـا إلّا إلـى إسـاءة فَهْـمِ أَقْـوال المُنافِـس، وإلـى تشـويه رأيـه أَو مَوقفـه تشْـويهًا مُسـبَقًا، ثـمّ إلـى محاربتـه علـى أَنّـه شـيء رهيـب خطيـر، مـن دون أَن تأخذهـم فـي اللـه لَوْمـة لائـم.

أَمّـا سُـيوفهم فـي ذلـك فالتّقصّـي الدّائـب عـن لـوازم الـرّأي أَو المَوقـف أَو الفتـوى، وتضخيمهـا وتهْويلهـا لينقَضّـوا بهـا علـى ذلـك المَوقـف، أَو ليَنقُضُـوا بهـا تلـك الفتـوى، ناسـفين بذلـك القاعـدة العلميّـة الّتـي جـفّ حَلْقهـا وهـي تصيـح وتُنـادي: «لازِمُ المذهـبِ لَيْـس بمذهـب».

وأَمّـا حِرابهـم فالحَفْـر والتّنقيـب فـي النّوايـا والبَواعـث والمَقاصـد والمَرامـي، فَهُـمُ الأَقْـدَر علـى تَولّـي السّـرائر، وعلـى كشـفها وهتكهـا وفضحهـا وإبلائهـا، لأَنّهـا أَهـمّ مـن الظّواهـر، وأَصْـدَق منهـا، وهـي الأَسـاس وعليهـا المُعـوَّل، بغـضّ النّظـر عـن صـلاح الظّاهـر أَو صلاحيّتـه للصّـلاح.

وأَمّـا سِـهامهم فالتّفتيـش والتّقميـش حـول العلاقـات الخفيّـة المشـبوهة المنسـوجة وراء الأَكمـة، فـي غفلـة منّـا نحـن عبـاد اللـه.

ومـن هنـا فـإنّ كثيـرًا مـن آرائهـم الّتـي يبثّونهـا، أَو فتاويهـم الّتـي يقدّمونهـا، أَو مَواقفهـم الّتـي يتبنّونهـا مـا هـي إلّا شـكل مـن أشـكال الغثاثـة المُتبادلـة المُنطَوِيَـةِ علـى مُتْعَـة إيـذاء الخَصْـم وتحطيـم المُنافـس، وإيقـاع النّكايـة فيـه.

وهكـذا تنشـأ عـن الفتـاوى فتـاوًى مُضـادّةٌ، وعـن الآراء آراءٌ مُخالِفـة، وعـن المَواقـف مَواقـفُ مُباينـة، وكلّهـا ليـس بَيْنها نِسَـبٌ منطقيّـة علـى الإطـلاق، لأَنّهـا فـي المحصّلـة ليسـت سـوى مُضاربـة علـى كَسْـبِ مَرضـاة ذبذبـات السّـلطة أَو المعارضـة أَو الشّـعب، والمحظـوظ مِـن هـؤلاء العلمـاء

مَـن يتغلّـب بالسّـعاية والمكيـدة والحيلـة والاختـلاق والقـوّة والمظلوميّـة والفضيلـة والمَعونـة الرّبّانيّـة.

علـى أَنّ النّكايـة لا تكـون فـي حـدود الأَشـخاص فقـط، ولكنّهـا تَعْبُـر للمذاهـب والطّوائـف، ولا بـأس هنـا بالعِنَديّـات والاختـلاق نكايـةً بالمذهب المُخالِـف، وإغاظـةً للطّائفـة المُبايِنـة، وخُـذوا علـى سـبيل المثـال تفسـير الآيـة القرآنيـة: «خافضـة رافعـة»، فهـذه الآيـة بحسـب جميـع المفسّـرين تـدور علـى كَـوْنِ القيامـة خافضـةً لأَعـداء اللـه إِلـى النّـار، رافعـةً لأَوْلِيائـه إِلـى الجنّـة، لكـنّ النّكايـة تعمـل عملهـا عنـد ابـن العربـي المالكـي فيختلـق قَـولًا لـم يَـرِدْ بتاتًـا فـي كُتـب السّـابقين، ويـورِده فـي كتابـه **سـراج المُريديـن**، فيقـول: «تُرفـع عائشـة علـى فاطمـة، فـإِنّ النبـي مـع عائشـة، وفاطمـة مـع علـي»[٥]، والنّكايـة هنـا تُطـلّ برأسـها بـدون بُرْقُـع أَو حجـاب، ذلـك أَنّ النّبـيّ كان لـه زَوْجـات غَيْـر عائشـة، وبنـات غَيْـر فاطمـة، فلمـاذا خـصّ ابـن العربـي الخفـض بفاطمـة دون سـائر بناتـه، وخـصّ عائشـة بالرّفـع دون سـائر زَوْجاتـه؟

بـل والنّكايـة تَعْبُـر للأَدْيـان، وهنـا تكـون النّكايـة فـي الأَعـمّ الأَغلـب خالصـةً لوَجـه اللـه تعالـى، أَوَلَيْسَـت هـذه النّيّـة الحسـنة أَحـد أَبـرز دَوافـع حركـة الوضـع والاختـلاق فـي الحديـث الشّـريف والسّـيرة النّبويّـة، والّتـي اجترحـت للنبـي محمـد صلـى اللـه عليـه وسـلم إِرهاصـات ومعجـزات تُضاهـي بـل تَفـوق معجزات عيسـى وموسـى عليهما السّـلام، نكايـة باليهوديّة والمسـيحيّة، ولَـو راجعنـا أَسـماء الوضّاعيـن والكذّابيـن فـي تراثنـا الإِسـلاميّ فسـنقع علـى مقـولات عـدّة لهـؤلاء كانـوا يقولـون فيهـا: «إِنّمـا نكـذب لرسـول اللـه ولا

---

(٥) أورد كلام ابـن العربـي عبـد الحـيّ بـن محمـد الصّدّيـق، فـي كتابـه: **حكـم اللّحـم المسـتورد مـن أوروبـا النّصرانيّـة**، تقديـم مفتـي مصـر علـي جمعـة، ط. ٣، ص. ١٨.

نكذب عليه»[٦]. وهي نفسها الدّافع وراء إخراج كَمٍّ هائل من الرّوايات ممّا بات يُعرف بالمناقب والفضائل الّتي تتوزّع بالتّساوي على أفراد آل البيت النّبويّ، وعلى أَفراد معيَّنين من الصّحابة، بل وتطال قبائل وأَمكنة وبلدانًا، وقد أَوْرَدَ الإمام مسلم في مقدّمة صحيحه عن سعيد القطّان قوله: «لم نرَ الصّالحين في شيء أَكذب منهم في الحديث»[٧]. وبِبَركة مبدأ الاستصحاب فإنّ ما صدق على الماضي يَصدُق بصورة أَفدح وأَفظع على الحاضر، والأَمثلة الحاضرة تملأ أَيضًا كراريس.

(٦) محمد بن أبي بكر بن أيّوب ابن القيم الجوزية، **المنار المنيف في الصّحيح والضّعيف**، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلاميّة، حلب، ١٩٧٠، ط. ١، ص. ١١٠.

(٧) مسلم بن الحجّاج بن مسلم القشيري النيسابوري، **الجامع الصّحيح**، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ج. ١، ص. ١٧.

قِيَم بائدة ما زلنا ننفخ فيها

كـم نحـن بائسـون يائسـون حيـن يسـتعيد ويسـرُد فـي القـرن الحـادي والعشـرين شَـيْخٌ يحمـل درجـة الدّكتـوراه فـي الدّراسـات الإسـلاميّة مـن جامعـة غربيّـة فـي صفحتـه علـى الفيسـبوك أَحاديـثَ ومأثـوراتٍ تدعـو للتّشـفُّع والتَّوَسُّـط بَيْـن الغنـيّ والفقيـر، وبَيْـن القـويّ والضّعيـف، وبَيْـن الحاكـم والمحكـوم، وتُبيّـن فَضْـلَ الشّـفيع والوسـيط، ومكانتهمـا وكرامتهمـا. فيورد ما يلي:

- «أَفضـل الصَّدَقـة اللّسـان. قيـل: يـا رسـول اللـه ومـا صَدَقـة اللّسـان؟ قـال: الشّـفاعة. يُفَـكّ بهـا الأَسـير، ويُحقَـن بهـا الـدّمّ، وتَجـرُّ بهـا المعـروف والإحسـان إلـى أَخيـك، وتَدْفَـع عنـه الكريهـة».
- «مَـنْ كان وُصْلَـةً لأَخيـه المسـلم إلـى ذي سـلطان فـي مبلـغ بـرّ، أَو تَيْسـيرَ عَسـيرٍ أَعانـه اللـه علـى إجـازة الصِّـراط عنـد دحـض الأَقـدام».
- «إنّ للـه خَلْقًـا خَلَقَهـم لِحوائـجِ النّـاسِ، تَفْـزَع النّـاسُ إليهـم فـي حوائجهـم. أولئـك الآمنـون مـن عـذاب اللـه».
- كان رسـول اللـه صلّـى اللـه عليـه وسـلّم يقـول: «أَبلغونـي حاجـةَ مَـنْ لا يسـتطيع إبلاغهـا فإنّـه مَـنْ أَبْلَـغَ سـلطانًا حاجـةَ مَـنْ لا يسـتطيع إبلاغهـا ثَبَّـتَ اللـه قدمَيْـه يَـوْم القيامـة» الترمـذي.
- «مَـنْ أَتـى إليكـم بمعـروف فكافئـوه، فـإن لـم تجـدوا فادْعـوا لـه حتّـى تعلمـوا أَنْ قـد كافأتمـوه».

ولسْـنا هنـا فـي مقـام دراسـة هـذه الأَحاديـث مـن حيـث درجـة ثبوتهـا وقـوّة أَسـانيدها، لكنّنـا نؤكّـد أَنّهـا حتّـى فـي حـال صحّـة إسـنادها لا يمكـن حملهـا علـى المعنـى التّوظيفـيّ المُتهالـك الّـذي نـراه بـأُمّ أَعيُننـا، ليُغطّـي بـه بعـض المشـايخ عَوراتهـم، فـإِنّ هـذا المعنـى يصطـدم بعمـوم مقاصـد الشّـريعة ومعانيهـا، بـل وأُسُسِـها ومبانيهـا.

وهنـا سأَسـتعير مصطلحـات الأُصوليّيـن فـي عِلـم الدّلالـة، حيـن يتكلّمـون عـن ثـلاث مراحـل لهـا: الوضـع ـ الاسـتعمال ـ الحَمـل.

ففي الوضـــع: يقـــوم الواضِـــع بوَضع اللّفـــظ بـــإِزاء المعنى.

وفي الاستعمال: يقوم المُتكلّم باستعمال اللّفظ في ذلك المعنــى.

وفي الحَمْـــــل: يقـوم السّامـع بحَمْل اللّفـظ على ذلك المعنــى.

ولا شـكّ فـي أَنّ الواضـع حيـن قـال هـذه الأَحاديـث فـي ذلـك الزّمـان فإِنّـه راعـى قِيَـم النّـاس وأَعرافهـم وحدودهـا وإِمكاناتهـا، وماشـى آليّـات تحريـك المشـاعر والضّمائـر حتّـى تنالهـا هـزّة الأَرْيَحيّـة والكـرم، وعَطْفَـة الإِسـعاف والإِنجـاد، نُصـرةً للمظلـوم، ورعايـةً للأَسـير، وخدمـة للفقيـر، وكَلاءة للمُعَتّـر. ولكنّنـا نشـكّ فـي أَنّ المسـتعمِل، وهـو ههنـا الشّـيخ ورجـل الدّيـن، الّـذي يُعيـد سَـرْدَ هـذه الأَقـوال والأَحاديـث إِنّمـا يسـردها فـي نفـس المعانـي، ولنفـس الأَهـداف الّتـي أَرادهـا الواضـع، حيـن يسـتدعيها بعـد خمسـةَ عشـرَ قرنًـا. ذلـك أَنّـه لـم تَكَـد تمضـي خمسـون سـنة علـى قَوْلها حتّـى انزاحـت عـن مقاصدهـا، وحُرِّفـت عـن معانيهـا. فقـد اكتشـف الحاكـم مـن جهـة، والطُّفَيْلِيّـون مـن جهـة أُخـرى أَنّ مِثْـلَ هـذه الأَحاديـث أَوْطـأ مـن المِهـاد الوثيـر للاسـتبداد والفسـاد. اكتشـف الحاكـم أَنّ هـذه الأَحاديـث تثبّـت سـلطته، وتزيـد شـرعيّته، وتمنحـه لـذّةً ونَشْـوَةً لا تصمـد أَمامهمـا مُتَـع الدّنيـا بأَجمعهـا، ولـم يطلـب مـن الوسـيط سـوى أَن يكـون حُلْـوَ المَعشـر مُداهِنًـا لِيَنـال الحَظْـوَة والاسـتجابة. وهكـذا تحوّلـت الدّلالـة مـن الواضِـع وِفْـقَ مـا

رأيْنا لتَغْدُوَ لدى الحاكم في غمرة حجّه لنفسه، وسيلةً لتحقيق نشْوَة التّألّه، ولذّة التّربّب. فالحاكم إِلَهٌ يجب أَن يدعُوَه النّاس ليستجيب لهم، ويجب أَن يتشفّع له الشّفعاء ليَعفُوَ ويصفح، ويفيض وينعم، أَوَليس وجود الرّعيّة بحدّ ذاته عطيّة من عطاياه؟ فالحاكم هو السّيّد القائد، والأَب البطريرك الصّامد، وعَبْرَ الوريث هو الممتدّ الخالد.

وقد غدا هذا الطّلب: «اشفَعوا تُؤجَروا» عادةً لدى المستبدّين، ودَيْدَنًا لهم، وفي الحقيقة كان هو الغاية والنّهاية من وراء استبدادهم وفسادهم، فجميع حركاتهم وسَكِناتهم، وتلويحاتهم وإِشاراتهم فضلًا عن عباراتهم كانت تقول:

امدحوني، واستعطفوني، وتملّقوني، وقِفوا ببابي واطلُبوني.

أَرسِلوا شُفَعاءَكم، وَلْيَقولوا لي: «كان شابًّا، أَهْوَج، غرًّا، مندفعًا، ملعوبًا بعقله، وبعاطفته، وإِنّ له أُمًّا تدعو لك لَيْلَ نهار لكي يعطّف الله قلبك الشّريف عليه»، وسأُخرِجه من المُعتقل.

قولوا لي: «خَدَمَ في دَولتك، بل في مزرعتك، بل في حظيرتك ثلاثين سنة، ولم يَغِبْ يومًا واحدًا عن وظيفته، وكان كامل الولاء والوفاء لك»، وسآمر بتقريب دَوره في العمليّة الجراحيّة المُستعجَلة.

قولوا لي ولا تتأخّروا، فأَنا الّذي أُنْشِط الحبل على رقابكم فأَشنقكم، وأَنا الّذي أَفكّ الأُحبولة عنها فأُحْييكم، وأَنا الّذي أُفْقِركم، وأَنا الّذي أُغنيكم.

واكتشف الطّفَيْليّون في الوقت نفسه كيف يَفِدُون على ذَوي السّلطان بكلّ وسيلة وآلة، وكيف يرتبطون به بأَسبابٍ مِتانٍ، وكيف يفْتَدون كَلَبَهم عليهم بكلّ مُرْتَخَصٍ وَغالٍ، كيف يُجيدون لعبة الاستخفاء السّخيفة وراء نَفْعِ الآخرين. وما كان أَسْعَدهم بعبارة: «اشفَعوا تُؤجَروا». حيث لم تُسَوِّغ دَوْرهم في مُعافَسة ذَوي القوّة والسّلطة، ولم تَسْتُرْ طفَيْلِيَّتَهم

فحسْـب، وإِنّمـا جعلَـتِ التَّمَسُّـح فـي عتبـات السّـلطان، وبَسْـطَ كامِـلِ عُـدّة التّبجيـل والتّزلّـف بَيْـنَ يدَيْـه عبـادةً يؤجَـر المتملِّـق عليهـا، فيتـوَّج بتـاج الفَضـل، وينـوء بأَوْسِـمة المِنّـة، فـي الدّنيـا قبـل الآخـرة، كمـا هـو واقـع ومُشـاهَد.

ونعـود للشّـيخ ورجـل الدّيـن حيـن يسـتعمل هـذه الأَحاديـث لنـرى المعانـيَ المسـتكنّة وراء حجـابِ مـا أَراده الواضـع مـن معنًـى نبيـل، ومقصـد إِنسـانيّ سامٍ.

١ ـ «أَفضـل الصَّدَقـة اللّسـان». فـلا تتعتّبـوا علينـا ـ أَيّهـا المسـتمعون ـ فكيـف للّسـان أَنْ يسـتحصد الخيـر والمعـروف والإِحسـان مـن «ذي السّـلطان» إِنْ لـم يُتقـن فنـون التّزلّـف والتَّـوَدّد والمُحابـاة والاسـتعطاف والاسـتلطاف، ونَفْـخِ ذي السّـلطان إِلـى أَن يَغـدو بحجـم الكُـرة الأَرضيّـة، بـل إِيهامـه أَنّ الكـرة الأَرضيّـة تظـلّ أَدنـى مـن مزايـاه وسـجاياه، وهكـذا لا تضيـع دراسـتنا لـلأَدب العربـيّ هبـاءً، ولا حِفْظُنـا مدائـحَ الشّـعراء سُـدًى، ولا تذهـب ملَكاتنـا البلاغيّـة أَدراج الرّيـاح.

٢ ـ ولأَجلكـم، وكُرمـى عيـون أَوْلادكـم وزعرانكـم نسـجنا علاقاتنـا مـع رؤسـاء فـروع الأَمـن والمخابـرات، ومـع كلّ ضربـة مكّـوك فـي نَـوْل هـذا النَّسـج ضَرَبَتنـا خَضَّـةُ تَوَجُّـس، وخَفْقَـةُ قَلَـقٍ، حتّـى لَـكأَنّ الرّيـح تَحْتَنـا وفَوْقَنـا وعـن أَيْمانِنـا وشـمائلنا، إِلـى أَنْ غدَوْنـا «وُصلـةً» بينكـم وبينهـم. تحمّلنـا غَلَظَـةَ العلاقـة معهـم، وكُـرْبَ المَكْـثِ بَيْنهـم، وغَضَضْنـا الطَّـرْفَ عـن سـائر أَنـواع تجديفهـم، وتجاوَزنـا عـن معظـم أَنـواع مزاحهـم، بـل اسـتهزائهم، وسـتَرَون كيـف سـيكافئنا ربّنـا، و«يُجيزنـا الصّـراط» عندما تُدحَـض أَقدامهـم وأَقدامكم.

٣ ـ ولأَجلكـم، وكُرمـى عيـون أُسَـركم وبناتكـم شـبكْنا هـذه العلاقـات مـع التّجّـار والأَغنيـاء وأَربـاب النّعمـة واليَسـار. أَوَتظنّـون أَنّ الجميـع مؤهَّـل لهذه العلاقـات؟ لا. فنحـن خلقَنـا اللـه «لقضـاء حوائجكـم»، وللتّوسُّـط والشّـفاعة

لكم، ولأَجلكم ذهبْنا لمزارعهم ومَضافاتهم الفاخرة، وشاركناهم بَطَرهم في أَفراحهم وأَتراحهم الفاجرة، وباركْنا حولهم وبهم وفيهم، وأَفتيْنا لغُلولِهم، وسكتْنا عن مصائبهم وفظائعهم، وها أَنتم ذا تَفْزَعون إلينا فنُلبّيكم، ونأخذ بأَيْديكم، فنستجديهم لكم، ونستعطفهم عليكم، فنحن «الآمنون من عذاب الله» يوم يعذّبهم ويعذّبكم.

٤ ـ نحن نستحقّ المكافأة، فالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «مَنْ أتى إليكم بمعروف فكافئوه». هيّا فكافئونا، والشّاعر العربيّ الّذي يَقْطُر حكمة وحِنكة يقول:

وإذا امرؤٌ أَهدى إليك صَنيعة مِن جاهِه فكأَنّها من ماله

فها نحن ذا نبذُل جاهَنا لكم، بل نبذُل ماء محيّانا لكم. أَلا فكافئونا، أَو لم تسمعوا غوته يقول: «نكران الجميل أَعظم الآثام»... فإنْ لم تجدوا فقبّلوا أَياديَنا، شُكْرانًا لأَيادينا، فنحن من ريحة الاستبداد يسرّنا ما يسرّه، ويُبهجنا ما يُبهجه، وكما أنّنا دعَوْنا للفاسدين في خُطَبِنا وصلواتنا فَلْتتدفّقوا دعاءً لنا، قيامًا وقعودًا وعلى جُنوبكم، ولْتَرْسِفوا في أَغلال الشّكر والحَمْد والثّناء إلى يَوْم الدّين، وأَبَدِ الآبدين.

نكتفي بسرد هذه الشّذرة من لسان حال السّلطان والشّفيع، ويعلم الله أَنّنا لم نسطّر ههنا من هذه المعاني إلّا ما يَلوح كباقي الوَشْم في ظاهر اليد إيجازًا واختصارًا وترفّعًا. على أَنّنا لا نعتِبُ على المشايخ ورجال الدّين حين يتلهّفون لأَداء هذا الدَّور، ويستميتون لعطف القلوب والعقول إليهم، فهُمْ من ناحية جُبِلوا على أَنْ يكونوا كاللّبلاب يسرّه أَنْ يلعب الدَّور الرّئيسيّ حيثما الْتَصَق، وهُمْ من ناحية أُخرى لم يأتِهم نبأ الدَّولة المدنيّة الحديثة الّتي غدا القانون ومؤسّساته فيها الوسيلة الوحيدة لإقرار الحقوق والحصول عليها، وتحديد الواجبات وفَرْضها، بدون تمْييز بَيْن الأَفراد على اختلاف صُنوفهم وأَنْواعهم ومراتبهم، حيث تفقد

وسيلة «التّشفّع والاستجداء» قيمتها، بل حتّى إنّه لا يمكن تفعليها ولا ممارستها، وكذلك ينتفي وجود رجل الدّولة «ذي السّلطان» الّذي يُلتَمَس دَفْعُ ضَرِّه، أو جَلْب منفعته، فهُوَ بكلّ بساطة مجرّد مُوَظّف لا يملك أَدنى صلاحيّة خارج وظيفته الّتي تنتهي في وقت محدّد معلوم، ولا يجوز له أَن يتجاوز في أَدائها، قَيْدَ أُنْمُلَةٍ، الإطار المرسوم.

ولكن هل لنا أَنْ نحلُم بمشايخ ورجال دين يتعالَون على واقعهم مهما كان مشؤومًا بالقَبَلِيّة، منخورًا بالعشائريّة، ويكفّون عن ترسيخ ما هو عَفِن، وتثبيت ما هو منحطّ؟

هل لنا أَن نطمح بأَن نخرج وإِيّاهم من عصور السّلاطين والمماليك؟ هل لنا أَن نأمل بأَن ينطفئ تَوْقُهم الدّائم ليكونوا مجرّد بديل بائس للقانون، وبدَلًا من أَن ينفخوا في قِيَمٍ باليَة بائدة أَن يدعوا لمجتمع يسوده القانون، ويبسط سلطانه في مختلف مناحيه، فلا يحتاج المواطن لأَن يتمسّح بالشّفيع، ولا أَن يلهث وراء الوسيط، ولا أَن يظلّ مُبرشَمًا بالاستجداء المُبتذَل الّذي لا يلائمه سوى عطاء مُبتذَل. هل لنا أَن نتطلّع إلى أَن يغدُوَ هؤلاء المشايخ دُعاةً لمُواطِن أَشمّ، لا يستنشق سوى عبيرِ الكرامة الإنسانيّة، ويخلو صدره ورئتاه من غبار التّملّق وسُخام الاستجداء؟

إنْ كان حلمُنا بعيدَ المَنال فَلْنُعَرِّ هذه الطّبقةَ من الطُّفَيْليّين، ولْنُقاطِعْها، ولْنَدْعُ الإنسانَ ليَكون سيّد نفسه، سيّد مصيره.

«إسلاميّة المعرفة» آمال وبروفات وخَيْبات

نحن الآن أَمام حَدَثٍ رمزيّ بالغ الدّلالة في مسيرة الفكر الإسلاميّ المعاصر، وهو تغْيير اسم «مجلّة إسلاميّة المعرفة» الّتي تصدر عن المعهد العالَميّ للفكر الإسلاميّ، ومقرّه في هيرندن قرب واشنطن، لِيَغْدُوَ اسمها في عددها الأَخير التّاسع والتّسعين الصّادر بتاريخ ٦ـ ٤ ـ٢٠٢٠ باسم «الفكر الإسلاميّ المعاصر»، وليَغدو رئيس التّحرير الدّكتور عماد الدّين خليل بعد أَنْ كان في العدد ما قَبْل الأَخير الدّكتور فتحي حسن ملكاوي.

صدر العدد الأَوّل سنة ١٩٩٥، واليوم بعد ربع قرن بالتّمام والكمال يكتشف القائمون على هذه المجلّة وهُمْ من أَهمّ المُنظِّرين للفكر الإسلاميّ المعاصر أَنّ «إسلاميّة المعرفة» اسْم يجب تغْييره والتّخلّي عنه، وهكذا ينهار حلُمٌ عزيز، وحلمٌ غالٍ، على قلب هذا الفكر. حُلُم أَسلمة المعرفة، الّذي انطلق قبل ربع قرن ونيّف بكامل التّوفّز والجَيَشان لِيُؤسِّس ويؤصِّل ويؤثِّل ويمكِّن «إسلاميّة المعرفة ومنهجيّة التّثاقف الحضاريّ»[1]، ولِيُحدّثنا عن «التّأصيل الإسلاميّ للعلوم الاجتماعيّة»[2]، وعن «نحو منهجيّة أُصوليّة للدّراسات الاجتماعيّة»[3]، وعن «بناء

(١) «مجلّة إسلاميّة المعرفة»، الكويت، ١٩٩٦، مجلّد ٢، عدد ٥، ١٩٩٦.
(٢) المصدر نفسه، مجلّد ١، عدد ٣، ١٩٩٦.
(٣) المصدر نفسه، مجلّد ١، عدد ١، ١٩٩٥.

النّظريّات في الاقتصاد الإسلاميّ»[٤]، وعن «إسلاميّة المعرفة: رؤية مغايرة»[٥]، ولا عجب أن تكون الرّؤية هنا مغايرة، لَأنّ الّذي يُقدّمها أَبو يعرب المرزوقي صاحب الرّؤى المغايرة في كلّ شيء.

حُلُمٌ أُقيمَتْ على أَطْيافه النّدواتُ والمؤتمراتُ حول «إسلاميّة المعرفة في جامعة الجزيرة في السّودان»، و«حلقة دراسيّة حول إسلاميّة المعرفة ومنهجيّة البحث العلميّ من منظور إسلاميّ»، و«من السّودان إلى ماليزيا: مشاغل أَسْلَمة المناهج الجامعيّة وآفاقها»، إلخ، وتحدثنا المجلة عن أهدافها وتثبّتها في أول صفحاتها: «إعادة صياغة المعرفة الإنسانيّة» نعم: «إعادة صياغة المعرفة الإنسانيّة وِفْقَ الرُّؤية الكَوْنيّة التَّوحيديّة من خلال الجمع بين قراءتَيْن: قراءة الوحي، وقراءة الكون»[٦]. ولا تذكر لنا المجلّة ههنا أَمَدًا محدّدًا لإعادة صياغة المعرفة الإنسانيّة هل ستَتِمّ في عهد رئيس تحرير واحد، أَمْ أَنّها ربّما تمتدّ لعهد رئيسَيْن أَو ثلاثة، ولا تذكر إذا كان المقصود بالمعرفة الإنسانيّة تلك المكتوبة باللّغة العربيّة فقط، أَم باللّغات الفارسيّة والتّركيّة والأورديّة، أَم أَنّ المعرفة الإنسانيّة تعني كذلك تلك المكتوبة بالانكليزيّة والفرنسيّة والأَلمانيّة والإسبانيّة والرّوسيّة، وباقي اللّغات الأوروبيّة؟ أَمّا لغات شرق آسيا فلَيست على البال من الأَصل، ولا تدخل في باب المعرفة الإنسانيّة، ونقرأ كذلك في جملة الأَهداف: «العمل على تطوير وبلْوَرة البديل المعرفيّ الإسلاميّ في العلوم الإنسانيّة، والاجتماعيّة، على أَساسٍ من التّمثّل المنهجيّ للرّؤية الكَونيّة التّوحيديّة والقِيَم الأَساسيّة والمقاصد العُليا للإسلام من ناحية، والتّمثيل العلميّ النّقديّ لِمُعطيات الخبرة

(٤) المصدر نفسه، مجلّد ١٦، عدد ٦٢، ٢٠١٠.

(٥) المصدر نفسه، مجلّد ٤، عدد ١٤، ١٩٩٨.

(٦) المصدر نفسه، مجلّد ١، عدد ١، ١٩٩٥.

العلميّـة والعمليّـة الإنسـانيّة فـي عمومهـا وشـمولها مـن ناحيـة أُخـرى»[٧].
وهـذا الهـدف يتكـرّر تسـعًا وتسـعين مـرّة بعـدد أَسـماء اللـه الحُسـنى، وبعـدد أَعـداد المجلّـة الصّـادرة حتّـى اليـوم، مـن دون أَنْ يتنبّـه قائـم واحـد مـن القائميـن علـى هـذه المجلّـة الّتـي تهـدف إلـى إعـادة صياغـة المعرفـة الإنسـانيّة إلـى خطـأ الصِّياغـة الأُسـلوبيّ فيـه حيـث كان عليهـم أَن يقولـوا: «العمــل علــى تطويــر البديــل المعرفــيّ الإِســلاميّ وبلْوَرتــه فــي العلــوم الإنسـانيّة، والاجتماعيّـة»، بـدلًا مـن أَن يقولـوا: «العمـل علـى تطويـر وبلْـوَرة البديـل المعرفـيّ الإِسـلاميّ فـي العلـوم الإنسـانيّة، والاجتماعيّـة»[٨].
يُحدّثنـا المعهـد الّـذي يُصـدر هـذه المجلّـة عـن رؤيتـه: «بنـاء رؤيـة حضارية شـاملة تسـتهدف نظـام معرفـي ومنهجيـة قـادرة علـى المحافظة علـى التراث ومواكبــة العصــر لفهــم الطبائــع، وإدراك الإمكانــات والتحديــات، ومواكبــة السـقف المعرفـي المتنامـي، ولتقويـم المعرفـة المعاصـرة وإنتـاج المعـارف الجديـدة»، أَمّـا الهـدف الاسـتراتيجيّ للمعهـد فهـو «تأصيـل المعرفـة، مـن خـلال الإفـادة ممّـا ورد فـي الأُصـول التّأسيسـيّة للإسـلام، وممّـا هـو صالـح ونافـع مـن التّـراث، وممّـا هـو مُتَّسِـقٌ مـع الهويّـة الحضاريّـة مـن الخبـرة البشـريّة والإنتـاج الإنسـانيّ، ولاسـيّما العلـوم الاجتماعيّـة والإنسـانيّة».
انطلقـت المجلّـة سـنة ١٩٩٥ بكامـل العنفُـوان، لإنجـاز إسـلاميّة المعرفـة مـن دون أَنْ يكـون لدَيهـا تصـوّر محـدَّد عـن هيكليّتهـا وطريقـة ترتيـب مقالاتهـا، ولكــن سـرعان مـا اهتـدَتْ مـن خـلال الخبـرة إلـى تنويـع موادّهـا ضمـن: بحـوث ودراسـات، ورأي وحـوار، وقـراءات، ومُراجعـات، وتقاريـر ومؤتمـرات، والتّعريــف بالتّــراث، وورّاقيّــات علــى وزن لزّاقيّــات وهــي أَكلــة حَوْرانيّــة طيّبـة مـن أَنـواع الحلويـات.

(٧) المصدر السّابق.
(٨) المصدر السّابق.

ولا شكَّ في أنّ هذه المجلّة تحتوي على مقالات مُهِمّة، وهي مُهِمَّة ما دامت لا تنصاع لأَهداف المجلّة في «إِعادة صياغة المعرفة البشريّة»، أَو في «العمل على تطوير وبلْوَرة البديل المعرفيّ الإِسلاميّ في العلوم الإِنسانيّة والاجتماعيّة». أَمّا ما سِوى ذلك فنقرأ مقالات وبحوثًا تندرج تحت إطار ما يُسمّى بـإِسلاميّة المعرفة هذا الاسم الّذي أَزالوه للتّو لإدراكهم أَنّه مجرّد دعوى وأَهاويل، ونقرأ تقارير أَيضًا تصُبُّ في صالح هذه الإِسلاميّة تَشْرُق بهجة وغِبطة وهي تحدّثنا عن إِنجازاتها. نقرأ على سبيل المثال عن «دَورة تدريبيّة وطنيّة عُقِدت سنة ١٩٩٨ لمعلّمي المدارس القرآنيّة وأَساتذة الدّراسات القرآنيّة لتدريبهم على استخدام التّقنيّات التّربويّة الحديثة في تدريس القرآن الكريم وعلومه»، وعن المحاضرات الّتي أُلْقِيَت فيها، ومن جُمْلَتِها محاضرة الدّكتور ملكاوي حول «استخدام الوسائل السّمعيّة والبصريّة في تدريس القرآن، وإِنتاج الشّفافيّات التّعليميّة وإِنتاج الشّرائح التّعليميّة وتقنيّات تَوظيف عارض الوثائق المُعتِمة، وتقنيّات تَوظيف صحيفة عرض الصُّوَر الرّقميّة في تقديم المحاضرات، ومقاربة أَوّليّة للحاسوب وكيفيّة اشتغاله»[٩]، ولعلّ القيمة المعرفيّة اليوم للمقاربة الأَوّليّة للحاسوب وكيفيّة اشتغاله تُعطينا فكرة عن القيمة المعرفيّة الحقيقيّة لِإسلاميّة المعرفة.

يتخفّف القائمون على إِسلاميّة المعرفة من دَعْواهم، ويضربون صَفْحًا عنها، بدون مُراجعة، بدون تقديم اعتذار، بدون بَيان أَسباب، بل بكلّ هدوء، ومن دون لَفْتِ نَظَرٍ سِوى ما يقوله كاتب كلمة التّحرير هشام يحيى الطّالب رئيس المعهد العالميّ للفكر الإِسلاميّ، ويختار لِكلمته ونحن في سنة ٢٠٢٠ عنوانًا أُتخم استهلاكًا هو: الفكر الإِسلاميّ المعاصر وسؤال النّهضة ويقول: «يأتي هذا العدد من مجلّة الفكر

(٩) المصدر السّابق، مجلّد ٤، عدد ١٦، ١٩٩٩، ص. ١٣٣.

الإسلاميّ المعاصر بحلّته الجديدة امتدادًا للجهود الّتي بذلها مؤسّسو المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ لا سيّما من تَوَلَّوا التّنظير والتّأطير الفكريّ والّذين أَشرفوا على صياغة رؤية المجلّة منذ عددها الأَوّل [...] وهذا التّجدّد المستمرّ مَطْلَبٌ رئيسٌ، فمبدأ الحركة مُفْرَدَة أَصيلة في الفكر الإسلاميّ، ليبقى الفكر في مراجعة دائمة كلّ حين مُستثمرًا بناءه التّأصيليّ المَكين، وقدرته على استثمار الحاضر بصورة إيجابيّة، وهذا الطَّيْفُ الجديد للمجلّة المتمثِّل في العنوان والأَهداف والأَعلام هو امتداد لهذا الحِراك التّجديديّ الّذي بدأته المجلّة منذ عددها الأَوّل»(١٠). وهكذا نرى هذا الانتقال يتِمّ بسلاسة تَفوق سلاسة الانقلاب الأَبيض، فهو مجرّد طَيْفٍ جديد وليس طائفًا طاف على المجلّة فجعلها كالصّريم. ولكن لا مشكلة، فَحياتنا كلّها مجرّد بروفات! إنْ خابت واحدة فلا بدّ مِن أَنْ تُصيب الثّانية، وإنْ خابت الثّانية، فربّما أَصابت الثّالثة، وإنْ لم تُصِبْ فنصيبنا في الجنّة، ويخبرنا أَخيرًا: «نسعى إذًا إلى تأسيس شخصيّة قادرة على التّفكير بحرّيّة دون الارتهان لِمركزيّة الماضي، أَو مركزيّة الآخَر»(١١). وهنا لا يَسَعُني إلّا أَنْ أَقول للمُحرِّر: آمين!

---

(١٠) المصدر السّابق، مجلّد ٢٥، عدد ٩٩، ٢٠٢٠.

(١١) المصدر نفسه.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

من الآهات الكُلثوميّة إِلى الآهات الإِسلاميّة

تعريفــات

الآهــات الكُلثوميّــة هــي الأُغنيــة الّتــي كتبهــا الشّــاعر بيــرم التّونســي ١٨٩٣ ـ ١٩٦١، ولحّنها الشّـيخ زكريـا أحمـد ١٨٩٦ ـ ١٩٦١، وغنّتها أُمّ كُلثـوم ١٨٩٨ ـ ١٩٧٥ سـنة ١٩٤٣.

تُسْـتَهَلُّ الأُغنِيَـةُ بكلمـة آه، ثـمّ تتكـرّر هـذه الآه فـي كلّ شـطر مـن أَشْـطُرِها مـرّات ومـرّات ومـرّات.

أمّـا الآهـات الإِسـلاميّة فهـي تلـك المقطوعـات الموسـيقيّة بـدون موسـيقى والّتـي نراهـا فـي مَوْقـع اليوتيـوب تحـت عناويـن متعـدّدة: آهـات إِسـلاميّة حزينـة. آهـات إِسـلاميّة حزينـة جـدًّا. آهـات إِسـلاميّة حزينـة مُبكيـة. آهـات إِسـلامية مؤثّـرة. آهـات إِسـلاميّة فرحـة. آهـات إِسـلاميّة رووووعـة. آهـات إِسـلاميّة لـن تمـلّ سـماعها. آهـات إِسـلاميّة رائعـة جـدًّا. آهـات إِسـلاميّة للمونتـاج. آهـات إِسـلاميّة بـدون حقـوق نشـر.

اختُرِعـت هـذه الآهـات فـي تسـعينيّات القـرن الماضـي، وتحديـدًا فـي اسـتدْيوهات الخليـج العربـيّ لِتُصاحِـبَ الأَفـلامَ أَوِ البرامـجَ الدّينيّـة، بديـلًا عـن الموسـيقى التّصويريّـة، فـكان يُـرَدِّد شـخصٌ مـا حَسَـنُ الصَّـوْتِ كلمـةَ الآه ويُكرِّرهـا بنغمـة حزينـة متفجّعـة مُتَماوِتـة، وكان يعمَـد إِلـى التّنويـع أَحيانًـا فيقـول: هـا بـدلًا مِـن آه، وقـد يُدخِـل فـي تأوُّهـه حـرف الميـم، فيمطّـه ويكـرِّره فيُنتِـج نغمـة مكتومـة: مممممممممـم، ممممممممـم!

وفـي أَحْيـانٍ قليلـةٍ يمـزج الآه بالـلا لا لا لا المنغّمـة فـي تطويـرٍ وتحديـثٍ للآهــات الإِســلاميّة، كمــا فــي المقطــع المنشــور علــى اليوتيــوب بعنــوان: آهـات إِسـلاميّة. جديـد عمـر داودي ألبـوم تانفوسـت ممّـا يُشـير إِلـى انتقـال إِنتـاج الآهـات الإِسـلاميّة إِلـى الجزائـر أَيضًـا.

وخـلال فتـرة وجيـزة غَـدا اسـتخدام هـذه الآهـات تقليـدًا فَـرَضَ نفسـه علـى المُحتـوى الإِسـلاميّ المَرئـيّ والمَسـموع: شـارَة البدايـة والنّهايـة، الفواصـل بَيـن الفقـرات، أَو الخلفيّـة الثّابتـة مـن أَوّل المُحتـوى إِلـى مُنتهـاه.

نقرأ في منتدًى من المُنتديات الإِسلاميّة الطّلب التّالي:

ـ أَنا محتـاج إِلى مجموعة حلوة من الآهات الإِسلاميّة.

ويأتيه الجَواب من أَحد المُشاركين:

ـ إِنْ شاء الله سَوْف أَرفع لك أَحلى آهات إِسلاميّة أَخي الكريم.

إِنّهـا مُنتَـج إِسـلاميّ معاصـر مطلـوب لصناعـة الشّـريط الإِسـلاميّ الّـذي امتدحـه العلّامـة ابـن بـاز وبيّـن فوائـده وعوائـده علـى الدّعـوة الإِسـلاميّة المرجُـوَّة والمُبتغـاة.

نشـأت هـذه الآهـات بِوَصفهـا إِحـدى مظاهـر الاسـتجابة الفنيّـة للصّحـوة الإِسـلاميّة المباركـة الّتـي تَلاقَـح فيهـا اتّجاهـان: الحَرَكيّـة الإِسـلاميّة والسّـلَفيّة، فتولَّـدت منهمـا هـذه الآهـات، فـي تحايُـل فقهـيّ طريـف، يُحـرِّم الموسـيقى ويشـتاق إِليهـا، علـى مبـدأ: «نفسـي فيـه وتفـو عليـه»، ومـن أَجـل ذلـك اختُرِعـت هـذه الآهـات بِصَـوت بشـريّ يترنّـم بهـا، ثـمّ يُعالَـج مـن خـلال برامـج الصَّـوت الإِلكترونيّـة، فـإِذا بـه موسـيقى بـكلّ مـا تعنيـه الكلمـة مـن معنًـى، ولكنّهـا موسـيقى معدّلـة وراثيًّـا، علـى الطّريقـة الإِسـلاميّة، ولذلـك هـي أَنغـام وموسـيقى حـلال، أَمّـا أَنغـام الآخريـن وموسـيقاهم فَحـرام. علمًـا أَنّ أَنغـام الآخريـن تدخـل فـي نَفْـس البرامـج الصّوتيّـة الإِلكترونيّـة، وتخـرج منهـا بالآليّـة نفسـها.

إنّها باختصار أُنموذج حَيٌّ لمُصطلَح البديل الإسلاميّ، البديل في أَحد تجلّياته الواقعيّة. نسمع هذه الآهات الإسلاميّة، على سبيل المثال لا الحَصْرِ، في شارَةِ بداية برامج الدّاعِيَة السَّلَفيّ محمد المنجد الّذي يحرّم الموسيقى تحريمًا قَطعيًّا، ونقرأ في بداية بعض المقاطع الدّعَوِيّة الجملة التّالية: «لا يوجد موسيقى فقط مؤثّرات صَوتيّة». وكأَنّهم يقولون: صحيح أَنّك تسمع موسيقى، ولكنّها ليست بموسيقى. لأَنّنا لا نُسمّيها موسيقى، بل نُسمّيها مؤثّرات صَوتيّة، لذلك هي ليست بموسيقى. فالحلال والحرام مرتبطان بتسمِياتنا. نغيّر التّسمية فتصبح حلالًا، ونَقْلِبُها فتغدو حرامًا كما تشاء لنا الهِواية والغِواية. تمامًا مثلما نسمّي الفائدة البنكيّة رِبًا فنجعلها حرامًا، ثمّ نسمّي الفائدة نفسها في البنك الإسلاميّ ربحًا فنصيّرها حلالًا، علمًا أَنّ تحديد هذا الرّبح يخضع لمؤشّرات الفائدة العالميّة، ويستهدي بها حَذْوَ القُذّةِ بالقُذّةِ.

الفرق بَيْن الآهات الكُلثوميّة والآهات الإسلاميّة

يُروى أَنّ بعض مستشاري السّتّ حذّروها من غناء الآهات حتّى لا تَظهر في غنائها كأَنّها نائحة، لكنّها بِحَدْسها الفنّيّ العظيم، وبإيمانها بالعبقريّة اللّحنيّة للشّيخ زكريّا أحمد انطلقت في غنائها تتنقل بَيْن أَربعة مقامات: الهزام والبياتي والنّهاوند والرّاست، في أَداء جبّار يجمع ما بَيْن التّعبير والتّطريب، وفي كلّ آهٍ من الآهات معنًى مختلف: آهٍ مُتعَبة، وآهٍ مُسْتَجْدِيَة، وآهٍ مُستكينة، وآهٍ واهِنة، وآهٍ مُحترِقة، وآهٍ مُلوَّعة. إنّها آهات ذات مغزًى، تتدرّج وتتلوّن، وتتداخل، وتَمور، وتَتَبَرْعَم وتتفتّح وتُزهِر في كلّ تَرْديد وتَرَنُّم وتطريب. آهات كأَنّها صُوَر المِشْكال الّتي لا يشبه بعضُها بعضًا لدى كلّ تحريك جديد.

أَمّا الآهات الإسلاميّة فهي آهات بدون فتح ولا قفل ولا استنتاج نهائيّ،

وبـدون أَبعـاد نغميّـة متصاعـدة مترقّيـة، وبـدون دراما، بـدون قصّـة خاصّـة بهـا، بـدون انفعـال صـادق، وإنّمـا تكـرار آلـيّ رتيـب سُـلِبت منـه الـرّوح والخلجـات والمشـاعر.

آهـات إسـلاميّة عبيطـة يسـمّيها مُنتِجوهـا بالآهـات الحزينـة تـارةً، وبالآهـات المُفرحـة تـارةً أُخـرى، ولا أَدري حقًّـا كيـف يَصِفـون كلمـةً وُضِعَـت للتّنهّـد والحـزن والأَسـى والشَّـجى بأَنّها مُفرحـة!

آهـات إسـلاميّة تفتقـد الهارمونـي، وربّمـا خلطـت الماجـور بالمينـور، والدّييز بالــبيمول، لأَنّ أولئـك المتأوِّهيـن المتديّنيـن يريـدون أَن يُنتجـوا موسـيقى أَو بالأَحـرى بديـلًا عـن الموسـيقى مـن دون أَن يدرسـوا الموسـيقى، ومـن دون أَن يعرفـوا أَساسـيّاتها ومبادئهـا.

ومـن أَجـل ذلـك يمكننـا أَن نقـول بـكلّ اطمئنـان: إنّ الفـرق بَيـن آهـات أُمّ كلثـوم والآهـات الإسـلاميّة هـو الفـرق مـا بيـن التّنـوّع الغنـيّ والتّماثـل الباهـت، والفـرق مـا بَيـن التّحليـق والإسـفاف. والفـرق مـا بَيـن العلـم والجهـل، والفـرق مـا بَيـن الانتظـام والعشـوائيّة. الفـرق مـا بَيـن العريـق الأَصيـل ذي السّلسـلة الممتـدّة عبـر الأَسـاطين[١] والدّعِـيِّ والهجيـن. الفـرق مـا بَيـن التّصاعـد المُتَواتِـر الّـذي يغتنـي درجـة فدرجـة والتّكـرار السّـاذج الّـذي يُـراوح فـي المـكان. الفـرق مـا بَيـن الفارابـي وابـن سـينا وجـلال الدّيـن الرّومـي والنّابلسـي وعبـده الحامولـي ومحمّـد رفعـت ومصطفـى إسـماعيل وأُمّ كلثـوم، وبَيـن المدخلـي وابـن بـاز وابـن عثيميـن والمنجّـد والعفاسـي.

(١) أَقصـد بالعريـق الأَصيـل وسلسـلته هھنـا: كاتـب كلمـات الأُغنيـة الشّـاعر بيـرم التّونسـي المتشـبّع بتـراث المقريـزي والإمـام الغزالـي فضـلًا عـن عبـد اللـه النديـم والشّـاعرَيْن الشّـيخ النّجّـار والشّـيخ القوصـي، وملحّنهـا زكريـا أحمـد سـليل مدرسـة الشّـيخ درويـش الحريـري، والشّـيخ الإمـام علـي محمـود، والموسـيقي البـارع محمـد عبـد الرحيـم الشّـهير بالشّـيخ المسـلوب، والملحّـن المبـدع إبراهيـم محمـد حسـين الوكيـل الشّـهير بإبراهيـم القبّانـي، ومؤدّيتهـا سـيّدة الغنـاء العربـيّ أُمّ كلثـوم الّتـي جمعـت فـي إهابهـا خلاصـة التّجربـة والقواعـد الفنّيّـة الطّربيّـة العربيّـة المقطّـرة المصفّـاة علـى مـدار القـرون السّـالفة.

الفرق بَين العالَم بمجرّاته وكواكبه وأَفلاكه وبَين سكّة ضيّقة مُقفرة في حارة صغيرة في قرية نائية.

اختزال مُشين

ما الّذي دهى هؤلاء المتأوّهين حتّى يختزلوا ذلك التّقليد الموسيقيّ الإِسلاميّ الأَغنى بآهات ساذجة بدائيّة؟ ذلك التّقليد المُنبسط على طول المنطقة العربيّة، والمنفتح على بلاد فارس وصولًا إِلى الهند، وعلى المغرب العربي الممتدّ إِلى إِسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا، وعلى تركيا المَوصولة بآسيا الوسطى، وما الّذي اعتراهم حتّى استغلق على إِدراكهم وفهمهم أَنّ قراءة القرآن الكريم بأَصوات كبار القرّاء الكلاسيكيّين لا تتمّ إِلّا بِبناءٍ لَحْنِيّ مُحْكَم متكامل، وملاءمة في النّغمة الموسيقيّة لمعنى الآية؟

يقول جوته: «إِنّ فنّ العمران عبارة عن موسيقى متجمّدة، والتّناسق في فنّ العمران أَوْزان موسيقيّة صامتة»[٢]. ويبدو أنّ هؤلاء المتأوّهين لم يفهموا معنى العمران، سواء كما يستعمله غوته، أَو كما يستعمله ابن خلدون.

ويقول أَفلاطون: «لقد أَخبرني دامون ـ وأَعتقد تمامًا بما يقول ـ وهو أَنّه عندما تتغيّر أَساليب الموسيقى تتغيّر معها قوانين الدّولة الأَساسيّة»[٣].

وأَقول: يا لَبُؤْس قوانين هذه الدّولة إِذا كانت أَساليب الموسيقى فيها هي أَساليب الآهات الإِسلاميّة.

---

(٢) ويل ديورانت، **قصّة الفلسفة**، ترجمة فتح الله المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ص. ٤٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ص. ٣٥.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

من داعش إلى الوثنيّة

كنّا نقرأ في كتب التّراث أنّ أعرابيًا قرأ سورة النّصر أمام الحجّاج فقال: «وَرَأَيْتَ النَّاسَ «يخرجون من» دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا»، فقال له الحجّاج: ويحك! «يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا» [النّصر: ٢]. فقال الرّجل: ذلك في عهد مَنْ سبقك، أمّا في عهدكم أنتم فيَخْرُجون من دين الله أَفواجًا. ولو تأمّلنا أَفعال الحجّاج وقارنّاها بأفعال داعش اليوم لَحكمنا أَنّ هذه القصّة إنّما سيقَت على سبيل التّندّر والفكاهة، فعلى الرّغم من بَطْش الحجّاج وسفكه للدّماء فإنّه لم يقتل بِاسْم الله، ولم يذبح نُصرةً للدّين، ولم يصلُب تمكينًا للشّرع القويم، ولم يرجُم إحياءً لسُنّة سيّد المُرسَلين، ولكنّه فَعَل بعض ذلك بِاسْم الحُكم والمُلْك والسّياسة فَرْضًا للطّاعة، وبَسْطًا للإذعان. أَمّا داعش فكان شعارها ودِثارها وهي تقوم بكلّ موبقاتها: لله وبالله، ومن هنا فقد كانت بحقّ أَوْلى وأَجدر أن تُخرِج النّاس من دين الله أَفواجًا، بعد أَن باتت تَفْهَق عَنَتًا وإِصَرًا واعْوِجاجًا، في تمدّد شبيه بتمدّد الإعصار الّذي يضرب بلا شفقة ولا هَوادة، فلا يخلف وراءه على المستوى المادّيّ سوى خليط من التّقويض والتّدمير والتّهشيم، وعلى المستوى المعنويّ سوى الحَيرة والذّهول واليأس وفقدان الرّجاء. إعصار يضرِب كلّ ما في طريقه: التّنوّع والتّعدّد والمرأة والطّفولة والطّبيعة والفنون والآثار، وبكلمة مختصرة: الحياة. ويكفي ههنا أَنْ نذكر أَنّه منذ إعلان

هـذا التّنظيـم عـن خلافتـه فـي ٦/٢٨ /٢٠١٤ وحتّـى ٢٠١٥/٥/٢٨ وُثِّـق إعـدام ١٥١١ مواطنًـا مدنيًّـا بَينهـم ٢٣ طفـلًا، و٣٢ امـرأة. عـلاوةً علـى مـن جُلِـد وقُطِّـع وسُـجِن وعُـذِّب.

لكـن وَسَـط كلّ هـذا الـرّكام كان هنالـك أَثـر يفعـل فعلـه ويفـرض نفسـه. بدأنـا نلمـس بَـوادره ومظاهـره هنـا وهنـاك، ولعـلّ هـذا الأَثـر هـو أَهـمّ آثـار داعـش المعنويّـة حيـث حفّـزت الأَذهـان للتّفكيـر وإِعـادة النّظـر فـي مُمارسـات المسـلمين فـي عصـر الإِسـلام الأَوّل، وبمُقايَسَـتِها وفَهْمِهـا بنـاءً علـى مـا يقـوم بـه الدّاعشـيّون، وبمـا يمدّوننـا بـه مـن إيحـاءات وظـلال، ولعـلّ أَوّل مـا يتبـادر للذّهـن فـي إِعـادة النّظـر الآنفـة الذّكـر مقولَتـا: جئتكـم بالذّبـح ونُصـرت بالرّعـب اللّتيـن قالهمـا النّبـيّ محمّـد صلّـى اللـه عليـه وسـلّم.

وعلـى الرّغـم مـن الفـارق الهائـل فـي الممارسـة بَيـن مـا قـام بـه النّبـيّ الكريـم وبَيـن مـا تقـوم بـه داعـش فـإِنّ تأكيـد داعـش المسـتمرّ بأَنّهـا متأسّـية ومقتديـة وملتزمـة بالنّهـج المحمّـديّ الأَصيـل يُمحـي هـذا الفـارق ويمحقـه، ويجعـل البحـث فيـه والحديـث عنـه لا جـدوى منهمـا، لأَنّ الدّمـاء الّتـي تُـراق إِعدامًـا وذبحًـا وحرقًـا ورجمًـا وجلـدًا سـتبقى أَمضـى أَثـرًا، وأَقـوى دلالـةً، مـن كلماتنـا الباحثـة عـن هـذا الفـارق، ومـن تفسـيراتنا المتلهّفـة لاقتناصـه.

مـن هنـا لـم يكـن لِيُثيـر دهشـتنا إِعـلان ثُـلّات مـن النّـاس ولا سـيّما مـن العراقيّيـن والسّـوريّين كُفْرانَهـم بـكلّ ديـن، ورَفْضَهـم كلّ إِلَـهٍ، وازدراءهـم كلّ لِحْيَـة، لكـن مـا اسـتَوْقَفنا فعـلًا هـو تلـك التّعليقـات الّتـي بِتنـا نقرأهـا فـي مواقـع التّواصـل الاجتماعـيّ لأُنـاس عاديّيـن يكشـفون فيهـا عـن حنينهـم للوثنيّـة، وتطلّعهـم لِعَـودة أيّامهـا، وسـأَقبس نمـاذج منهـا، ممَّـن أُقـدِّر فعـلًا أَنّهـا كانـت ردّات فِعـل علـى داعـش، وليسـت سـابقة عليـه.

يكتب أَحد الشّباب من سوريا: «ما أَجمل الكعبة وحولها ٣٦٠ صنمًا يُعبد من دون الله، أَو يُعبد مع الله، من دون أَنْ ينكر أو يعيّر أَو يتعالى أَحد على أَحد».

ونقرأ عند آخر: «هلَكوا ديننا. لعنوا سمانا. دمّروا أرضنا. أَحتقرُهم. وأَحتقر ربَّهم. وأُعلِن حبّي وَوَلهي بآلهة الحبّ والجمال والخصب والعطاء».

ويكتب آخر من العراق: «إِنْ كان ربّك يأمرك بقتل الآخرين فاذهب أَنتَ وربّك إِلى الجحيم، وإِنْ كان يأمرك باحترام الآخرين فأَهلًا بربّك ولَو كان حجرًا».

ونَجِدُ رابعًا يُسمّي نفسه نكاية بداعش عبد عشتار، ونقرأ عند خامس: «لا تشتُم إِلَهًا لا تعبده. كُتبت هذه العبارة على أَحد المعابد في تَدْمُر السّوريّة باللّغة الآراميّة التَّدْمُرِيّة. هذه العبارة الّتي كُتبت قبل أَلْفَيْنِ وخمس مئة عامٍ تقريبًا، لم يكتبها عبثًا أَجدادنا التَّدْمُرِيّون الّذين تباهَوا بتعدّد آلهتهم، بل إِنّهم عندما حفروها على الصّخر أَرادوها رسالة لتقرأها كلّ الأَجيال الّتي كانت ستولد على أَرض سوريا الجميلة الملوّنة».

ويُشارك سادس: «حطِّم سَيفك، وتناول مِعْوَلك، واتبعْني لِنزرع المحبّة والسّلام. هذه المقولة المذهلة هي جزء من التّعاليم السّوريّة الّتي وُجِدَت في أوغاريت. إِنّها نموذج لِعقل السّوريّين الّذين يؤمنون بالمحبّة والتّسامح، بنفس لَوْح الفخّار الّذي كُتب عليه: لا تحتقر إِلَهًا لا تعبده».

إِنّ هذا التَّوْقَ إِلى الوثنيّة ورموزها، وتصويرها حاملَ رسالة البِشْرِ إِلى البَشَر، يُحقّق عدّة غايات:

فأَمام اضطهاد المرأة الفظيع: الرّجم، الجَلد، السّبي، الاغتصاب يُلَبّي

الحنينُ إلى الوثنيّة ردَّ اعتبار للمرأة، لأَنّها تغدو في ذلك العالم الوثنيّ إلَهَةً جنبًا إلى جنب مع الإلَه.

وأَمام تصحّر الذَّوق الفنّيّ ومعاداة كلّ شكل من أَشكال الفنّ: تصاوير، ومنحوتات، وزخارف يغدو الحنين إلى الوثنيّة تعبيرًا عن تقديرٍ عالٍ للذَّوق الفنّيّ، وإِعادة اعتبار لِما حُطِّم ونُسِف وذُرِّي مع الرّياح.

وأَمام العبث بموارد الطّبيعة، والتّهتّك في استخدامها يعني الحنين إلى الوثنيّة تدعيم الوعي البيئيّ، حيث يُنظر إلى الطّبيعة والأَرض باعتبارهما إلَهًا حيًّا وقوّة حياتيّة.

وأَمام احتقار الآخرين، وازدراء أَديانهم تغدو الوثنيّة منجاةً من الإيغال في اقتحام خيارات النّاس، وتأكيدًا على الاستقلال الشّخصيّ، فما يؤمِن به المرء ويمارسه بِوَصفه وثنيًّا يعود إِليه وحده على المستوى الفرديّ.

إِذًا: هنيئًا لداعش، وهنيئًا لتمدّدها، ومرحى لشَدْوها الّذي حفّز النّاس على الرّقص بطُرُق كلاسيكيّة وأُخرى مُبتكرة.

لماذا لا يُجيد الإسلاميّون التّعاطف الإنسانيّ؟

يحدّثنا راشد الغنوشي وهو من أَبرز الإسلاميّين الحَرَكيّين في وقتنا الرّاهن والّذي سُجن لفترتين في عهد بورقيبة: الأولى ما بَين ١٩٨١ ١٩٨٤، والثّانية ما بَين ١٩٨٧ ١٩٨٨، أَنّ البرقيّات والرّسائل كانت تتواتر إِلى النّظام الحاكم من معظم أَنحاء العالَم مُحتجّةً ومُستنكِرة أَنْ تضمّ السّجون التّونسيّة سجناء سياسيّين ومُعتقَلي رأي، بغضّ النّظر عن انتماءاتهم وتيّاراتهم وتوجّهاتهم، ولاحظ الشّيخ راشد في تلك الآونة أَنّ هذه الرّسائل والاحتجاجات والمُطالبات والضّغوط المُطالِبة بالإِفراج عنه كانت تأتي من مؤسّسات حقوقيّة وإِنسانيّة ومن كُتّاب ومُفكّرين وشخصيّات وأُناس معظمهم غربيّون، مِمَّنْ يَنْشُدون العدالة والرّحمة ورَفْعَ نير الاضطهاد عن الأَحرار والشّرفاء من ذَوي الضّمير الشّريف والرّأي الحرّ، ولاحظ أَيضًا متأسّفًا متألّمًا أَنّه لم يكن من بَيْن تلك الأَصوات النّبيلة صَوْت إِسلاميّ، ولا من تلك الشّخصيّات شخصيّة إِسلاميّة. هذه الملاحظة تُحيلنا إِلى سؤال: لماذا لا نُجيد التّعاطف الإِنسانيّ؟ وإِلى تنويعات عليه مُماثِلة ومُقارِبة: لماذا لا نُجيد التّعاطف مع البشر الآخرين المضطَهَدين؟ أَو المنكوبين بالجائحات البشريّة أَو الطّبيعيّة؟ ولماذا نُصابُ بالعِيّ فلا نتكلّم، وإِذا نطقنا فبِحَصْرٍ وحُبْسَة ننبِس.

لا نتكلّم هَهنا عن أَتباع الاتّجاه الإِسلاميّ المتطرّف الّذي لا يرى في العالم سوى ساحة معركة وقتال وشَوكة وغلبة تُلجئ النّاس كلّ النّاس

للإذعان مغلوبين صاغِرين، وإنّما عن التيّار الواسع العريض المعتدل الّذي يرى نفسه مؤهّلًا لِحَمْل مِشعَل الحضارة العالميّة، ويسعى لذلك بكلّ أَوْهامه وأَمانيه، متَوَسّلًا مقولات السّياسية والاقتصاد والاجتماع والفلسفة والأَدب والبرمجة اللّغويّة العصبيّة في خطابه الّذي يطفح بالتّفاخر والمُباهاة والمُضاهاة، ويُصرّ على أَنّ العالم اليوم مجرّد أرض عطشى متشقّقة، وأَنّه الوابل الصَّيِّب الطَّيِّب، والطَّلُّ النّديّ التّقيّ، ولا يخطر على باله أَنّه حين يُمارِس التّقوى فإِنّما يُمارسها، في كثير من الأَحيان، بشكل معكوس منكوس، على اعتبار ما عرّفها به أَحد السّلف تعريفًا موفَّقًا فقال: «اَلتقوى أَنْ ألّا يراك الله حيث نَهاك، ولا يفقدك من حيث أَمرَك»(١)، ولكنّنا لا يَطيب لنا المَهْرَبُ إلاّ في أَعزّ مطلَب، فنختفي في غفلة، ونتوارى في تجاهل، ونحتجِب في تَعالٍ.

في أَوّل يوم من شهر آب سنة ٢٠١٤ تداولت وسائل الإعلام أَنَّ مسلَّحين في ريف حلب الغربيّ الخارج عن سيطرة السّلطة الأَسديّة اختطفوا النّاشطتَيْن الإيطاليّتَيْن فانيسا مارزولو وغريتا راميلي في ريف حلب الغربيّ، وكانتا تعملان في إغاثة السّوريّين داخل الأَراضي السّوريّة وفي المخيّمات المنتشرة خارجها. كان الخبر مُرفَقًا بِصورة الفتاتَيْن وقد تلفّحتا بعَلَمِ الثَّورة السّوريّة الأَخضر، وفي الصّفحة نفسها قرأت تعليقًا لشخص كان واضحًا أَنّه مُتديّن ومُؤيّد للثَّورة قال بالحرف الواحد: «لا أَستطيع التّعاطُف معهما». وكان من الواضح أَنّ سبب عدم تعاطفه معهما يرجع لأَحد هذَيْن السّببَيْن: كَوْنهما مسيحيّتَيْن، أَو كَوْنهما غَيْرَ محجّبتَيْن. في تلك اللّحظة قفزتْ إلى ذهني مباشرة نسخة المَخطوطة المُزخرفة من

(١) رواها الثّعلبي عن سهل التستري، أحمد بن محمد الثّعلبي، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأُستاذ نظير السّاعدي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ٢٠٠٢، ط. ١، ج. ١، ص. ١٤٤، ورواها أَبو نعيم الأَصبهاني عن داود بن نصير الطّائي، أَبا نعيم الأَصبهاني، **حلية الأَولياء وطبقات الأَصفياء**، مطبعة السّعادة، القاهرة، ١٩٧٤، ج. ٧، ص. ٥٨.

قصيـدة سُـوز فـا قُـدّاز «الاحتـراق والذَّوَبـان» لمؤلِّفها نـاوي خابوشـاني، المُتوفّـى عـام١٦١٠ م، الّتـي تسـرد قصّـة حـبّ فتـاة هِندوسـيّة تُحرِق نفسـها فـي مِحرقـة جنـازة خطيبهـا. وقـد قـام ابـن السّـيّد مـراد الحسـيني بكتابـة المخطوطـة بخـطّ النسـتعليق بالحِبـر الأَسـوَد وشـرحها محمـد علـي مشـهدي عـام ١٦٥٧ م، وقـد تجـاوزتْ أَبياتها المئتَـيْ بَيْـت.

مخطوطـةٌ تكشِـف عـن إنسـانية الفنّـان المُسـلم: شـاعرًا وشـارحًا ورسّـامًا، وعـن تفاعُلـه الإنسـانيّ الرّهيـف مـع حادثـة حـبّ الفتـاة الهندوسـيّة ورَبْـطِ ذلـك بالحـبّ الكَوْنـيّ اللّانهائـيّ. والآن أتسـاءل عـن سـبب اختـلاف المَوقِفَيْـن فـي الماضـي والحاضـر، مَوقـف الفنّـان والشّـاعر والرّسّـام المُسـلم المُفعَـم بالتّعاطـف ومَوقـف هـذا الشّـابّ المتديِّـن المعاصـر الّـذي نَضَـب تعاطفـه.

إنّنـا نتحـدّث عـن عالميّـة الإِسـلام، ونحـن لـم نَرْتَـقِ لِنكـون محلّيّيـن، ونُبشّـر بكَوْنيّـة قِيَمنـا، والقِيَـم الّتـي نُمارسـها لا تسـتجيب لِمطالِـب زِقـاقٍ فـي حـارة.

هـل نذكـر الأَحـداث العالميّـة الجِسـام مـن انتفاضـات إنسـانيّة مصيريّـة ضـدّ الدّيكتاتوريّـات حدثـتْ فـي القـرن العشـرين فلَـمْ نَجِـدْ لَهُـم ردّة فِعْـل مُناسِـبة ولا غيـر مناسِـبة، سـواء مـن المؤسّسـات الإِسـلاميّة الرّسـميّة كالأَزهـر وسـواه، والّتـي قـد نَجِـدُ لهـا مسـوّغًا مـن العُـذْرِ باعتبارهـا لا تجـرؤ علـى تجـاوُز السّلسـلة المرتبـط بهـا، أَو مـن الحـركات الإِسـلاميّة وقادَتِهـا الّتـي لا نَجِـدُ لهـا أَوْهـى مسـوّغ فـي تجاهلهـا وغفلتهـا عـن تضحيـات المناضليـن، وإِعراضهـا عـن دَعْـمِ حقـوق المُكافحيـن، وهـي الّتـي عاشـتْ معهـم ضَنْـكَ الدّيكتاتوريّـة الخشـن، وشَـظَفَ الطّغيـان المُنهِـك.

هـل نجـد بيانًـا إِسـلاميًّا واحـدًا يتكلّـم، علـى سـبيل المثـال لا الحَصْـر، عـن ربيـع بـراغ سـنة ١٩٦٨، أَو عـن مظاهـرات سـاحة تيـان آن مـن فـي بكيـن والّتـي قُتـل فـي فضّهـا حوالـي عشـرة آلاف مواطـن سـنة ١٩٨٩؟

هـل نجـد بَرقيّـات ورسـائل لِشـخصيّات أَو أَحـزاب إِسـلاميّة، يمكـن أَن نُحيـل

إليها، طالبتْ نظام الفصل العنصريّ في جنوب إفريقيا بوَقْف عنصريّته الّتي راح ضحيّتها آلاف الأنفُس من الأَبرياء؟ وهل نجد رسالة موقَّعة من حزب إسلاميّ طالبَ بالإفراج عن نيلسون مانديلا؟ أَو عَمَّن يُماثِله من مُعتقَلي الرّأي في التّاريخ القريب أَو في الوقت الرّاهن؟
والأَمثلة الّتي يمكن أَنْ نُمْعِن في ذكرها لا تُعَدّ ولا تُحصى، ولا شكّ في أَنّها الآن تتقافز في أذهاننا، غير أنّنا سنتجاوزها جميعًا لنتكلّم عن سوريا والسّوريّين. ففي هذا اليوم نُصادِف الذّكرى السّابعة لاعتقال خليل معتوق أَهمّ محامٍ سوريّ دافع عن مُعتقَلي الرّأي ضدّ أَشرس نظام همجيّ أرعن، مخاطِرًا بمصيره وروحه، فهل رأينا بيانًا واحدًا مِمَّنْ يتصدّر المشهد الإسلاميّ السّوريّ يطالِب به ويَذْكُره عِرفانًا بأَياديه الّتي لم نشكرها، وبأَفضاله الّتي لم نذكرها، هل نذكر كذلك مغيَّبي دوما: رزان وسمير ووائل وناظم؟ هل وهل وهل؟ أَم نرضى ونفرح من الغنيمة بأَنْ يسكتوا عنهم فلا يتناولونهم قدحًا وذمًّا؟
أَيْن المشكلة؟ أَفي العقل أَم في الضّمير أَم في الوعي أَم في المبدأ أَم في الثّقافة المتراكِمة المتأصِّلة المُتعشعِشة؟
لن أُنهِيَ كلامي إلّا بعد أَن أَوْرد نصّ هذه الرّسالة الفريدة الّتي خطّها يَراع الإمام محمد عبده مفتي الدّيار المصريّة، قبل مئة سنة ونيّف، مُعلنًا تضامنه وتأْييده لِتولستوي الّذي تعرّض لاضطهاد السّلطة الدّينيّة الكَنَسِيَّة عندما طردَتْه من رِحابها فكتب إليه في ١٨/٤/ ١٩٠٤ مُعبِّرًا عن تقديره ومُواساته وتعاطُفه، ومدلِّلًا على رُقِيّ أُفُقِه وعُلُوّ كَعْبه:
«أيّها الحكيم الجليل مسيو تولستوي:
لم نَحْظَ بمعرفة شَخْصِك، ولكنّنا لم نُحْرَم التّعارفَ بروحك، سَطَع علينا نورٌ من أَفكارك، وأَشرقتْ في آفاقنا شُموسٌ من آرائك أَلّفت بَين نفوس العقلاء ونفسك. هداك الله إلى معرفة سرّ الفِطرة الّتي فُطِر النّاس

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

عليها، ووفّقك على الغاية الّتي هَدى البشر إليها، فأَدركتَ أَنّ الإِنسان جاء إلى هذا الوجود لِينبُت بِالعلم، ويُثمِر بالعَمَل، ولأَنْ تكون ثمرته تعَبًا ترتاح به نفسه، وسعيًا يبقى ويرقى بها جنسه. شعرتَ بالشّقاء الّذي نزل بالنّاس لمّا انحرفوا عن سنّة الفِطرة، واستعملوا قواهم، الّتي لم يُمنَحوها إلّا لِيَسعَدوا بها، فيما كدّر راحتهم، وزعزع طمأنينتهم [...]. فكما كنتَ بِقَولك هاديًا للعقول، كنتَ بعلمك حاثًّا للعزائم والهِمَم. وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي به الضّالون، كان مثالك في العمل إمامًا يَقتدي به المُسترشِدون. وكما كان وجودك تَوْبيخًا من الله للأَغنياء، كان مِدادًا من عنايته للفقراء.

وإِنّ أَرفع مجد بلغتَه، وأَعظم جزاء نلتَه على متاعبك في النّصح والإِرشاد هو هذا الّذي سمّوه بالحرمان والإِبعاد، فلَيس ما كان إليك من رؤساء الدّين سوى اعتراف منهم أَعلنوه للنّاس بأَنّك لستَ من القَوْم الضّالين، فَاحْمَد الله على أَنْ فارقوك بأَقوالهم، كما كنتَ فارقتَهم في عقائدهم وأَعمالهم» (٢).

هل من بارقة صحْوَة تَرقى بنا لِسُدّة آمالنا وطموحاتنا الّتي تنوء بِحَمْلها الجبال فضلًا عن الجِمال؟ فَقَدْ ضاق الحبل على الوَدَج من دَعاوينا تارةً، ومن إهمالنا وإِسفافنا تارةً أُخرى.

---

(٢) انظُر: الإِمام محمد عبده، **الأعمال الكاملة**، تحقيق د. محمد عمارة، دار الشّروق، القاهرة، ١٩٩٣، ط. ١، ص. ٣٥٩.

رسالة في صناعة المَشْيَخة

خصّصتُ فترة الحجر الصّحّيّ لِتَصفّح مواقع مكتبات المخطوطات العربيّة، فوقعتُ على رسالة عنوانها لطيف وهو رسالة في صناعة المَشْيَخة، وهي من الرّسائل المجهولة الّتي لم يَرِدْ لها ذِكْرٌ في فهارس المخطوطات، ونظرًا لِغرابتها وطرافتها فقد أَحببتُ تقديمها قَبْل التّحقّق من كاتبها وتاريخ كتابتها، وهأنذا أَنقلها بتمامها كما وجدتُها.

يقول مؤلِّفُها:

«اعلَم وفّقني الله وإِيّاك أَنّ المشْيَخة صناعة كباقي الصّناعات، كالزّراعة وهي للمَطعم، والحياكة وهي للمَلبس، والبناء وهي للمَسكن، والسّياسة وهي للتّأليف والاجتماع والتّعاون على بقيّة الأَعمال وضبطها، ولكلّ صناعة من هذه الصّناعات ما يُعين عليها، وما يُتمّم به أُصولها ويُزيّنها. وقد يجتمع للمرء أَكثر من صناعة فيُنسب إِليها مجتمعة، كما حدث للشّاعر كُشاجِم فإِنّ اسمه منحوت من صناعاته، فالكاف من كاتب، والشّين من شاعر، والأَلِف من أَديب، والجيم من مُنَجِّم، والميم من مُؤدِّب، وقد كتب مُشارِكُنا في الفلسفة أَبو يوسف الكندي رسالة عنوانها: رسالة في التّرفّق في الصّناعات، وكتب كذلك صديقنا في أَيّام الطّلب طاش كبري زاده رسالة وَسَمَها: رسالة في الصّناعات، ولكنّهما أَغفلا ذِكر صناعة المشْيَخة، وذكرا ما هو أَقلّ خطرًا ومكانةً ومنزلة، ولذلك استدركْنا في هذه الرّسالة ما فاتَهما، وحرّرْناها في ثلاثين إيقاظًا،

واختصرْنـا الـكلام غايـة الاختصـار، فالـكلام الكثيـر فـي هـذا المَوْطـن لـن ينفـع البليـد، ولـن يفطـم الوليـد.

قـال أَحـد مُتفلسـفة الإِسـلام: «أُصـول الصّناعـات أَربعـة: صَنعـة التّجـارة، والحِـدادة، والنّسـاجة، والسّياسـة؛ أَصْعَبهـا صنعـة السّياسـة، وأَصعـب هـذه الصّناعـات صناعـة النّبـوّة». ولا يعنينـا هنـا أَنْ نبحـث فـي مقصـود قَولـه: صناعـة النّبـوّة: هـل قصـد أَنّهـا صناعـة إِلهيّـة أَم صناعـة بشـريّة، فهـذا خـارج حـدود عنايتنـا، أَمّـا مـا يعنينـا هنـا فـأَنْ نقـول: إِنّ صناعـة المشْـيَخة تقـع في بـرزخ بَيـن أَصعـب الصّناعـات، أَيْ: السّياسـة، وبَيـن أَخطرهـا علـى الإِطـلاق أَي النّبـوّة.

وقـال أَردشـير: «الدّيـن والمـُلْك توأمـان. الدّيـن أَصْلٌ، والمـُلك حـارسٌ، وما لا أَصـل لـه فَمهـدوم، ومـا لا حـارس لـه فَضائـع»، ولذلـك نقـول: الدّيـن بحاجـة إِلـى صناعـة هـي المشْـيَخة، والمـُلك بحاجـة إِلـى صناعـة هي السّياسـة.

إِيقـاظٌ أَوّل: لـكلّ صناعـةٍ صناعـةٌ مهيِّئـة ومُعينـة تقـع تحتهـا، كصناعـة الحِـدادة الّتـي تُعَـدّ بهـا آلات الزّراعـة، والغَـزْلِ يُعَـدُّ بـه محـلّ الحياكـة، إِلـى آخـر مـا هنالـك مـن صناعـات، وإِذا سـألتَني أَخي السّـالك فـي درج المشْـيَخة عـن الصّناعـات المهيِّئـة والمُعينـة لصناعـة المشْـيَخة فإِنّنـي أُرشـدك وأَمنحـك وأَحْبـوكَ: همـا صناعتـان لا ثالـث لهمـا: الجـدل والدّجـل، فإِنّـك بهمـا تَجـدِل الأَحابيـل، وتُجَنْـدِل الـرّؤوس، وبِدونهمـا تسـعى إِلـى الهَيْجـا بـدون سـلاح. أَلَـمْ تسـمع أَبـا مالـك وهـو يقـول: «مَـن تمشْـيَخ ولـم يُتْقـن الجـدل والدّجـل فَقَـدْ تخـرّق، ومَـن أَتقـن الجـدل والدّجـل ولـم يتمشْـيَخ فَقَـدْ تفسّـق، ومَـنْ جمـع بَينهمـا فَقَـدْ تحقّـق»؟ ولسـتُ هنـا فـي صـدد إِيـراد مَظـانٍّ تعليـم الجـدل، فأَنـتَ تَعْلَمُهـا مـن خـلال دراسـتك وتحصيلـك، ولكـن أَلْفِـتُ عنايتـك، وأَنـتَ تبتغـي الصّعـود فـي مَراقـي صناعـة الدّجـل، إِلـى وجـوب معرفـة

أَصناف المُكدّين وأَفعالهم، فالكُدْيَة ذُرْوَةُ سِنام الدّجل، وتتبُّع الأَخبار والأَشعار والنّصوص والفصوص المتعلِّقة بصناعة الكُدْيَة مِن أَوْثَقِ ما يُحوِّل معرفتك إلى مَلَكة، والشّيخ المتمكّن هو مَنْ يعرف مضاحيك أَقوالهم، ومحاسن مُخاطباتهم، ونوادر طبقاتهم، ويتّخذها زادًا ونُجْعَة.

إيقاظٌ ثانٍ: اعلَم، رحمكَ الله، أَنّ أَبا عبد الله الطّبري سُمِع وهو يقول: «لَو استقبلتُ من أَمري ما استدبرتُ في دَعْوى حالٍ، وتَمهيد أَمرٍ، واصطلاح طريقة، لَما تجاوزتُ ادّعاء النّبوّة، ولكنّي مزّقت ثَوْب الشّباب، وودّعت راحِلَة الأَمل». وأَخزاه الله من قَوْلٍ وقائل، لكنّنا نستفيد من قَولِه أَنّ طلب صناعة المشْيَخة يجب أَن يبتدئ في مُقتبَل العمر، وناشئة الشّباب، لأَنّنا لم نرَ، بَعْدَ التّتبّع والاستقصاء، مَنْ أَفْلَحَ في هذه الصّناعة لِمَنْ بدأ بِطلبها وقد جاوز حدَّ الكهولة.

إيقاظٌ ثالث: طَلَبُ المشْيَخة المُبكّر لا يعني ممارستها وإِعلانها، ولكنّ التّحضير لها وطَلَبَ أَسبابِها، لأَنّ إعلانَها والانشغالَ بها زَمَنَ التّحصيل يقضي على التّحصيل، وإذا لم يتمّ تحصيلك ظلّت مشْيَختك ناقصة، تُلحَظ بالشّك، وتُلفَظ بالارتياب، وتُرمى بسهام الطُّعون، لذلك الْتَفِتْ إلى دروسك، وأَحْكِم تحصيلك، ونَلِ الشّهادات والإِجازات، فهِيَ كالشّحم الّذي تَدهَن به عَجَلَة المنجنيق، وبدونها لن يتحرّك منجنيقك، ولن تَصِل رمْيَتك، وستُضطرّ عندئذ إلى ركوب جُدُد الدّجل تعويضًا لنقص، وإِلى أَنْ تنغمر في لُجّة الخَتْل رَتْقًا لِفِتْق. وَلْتَعْلَم أَنّ قليل الدّجل والخَتْل في المشْيَخة صالحٌ مُثمر، وأَنّ كثيرهما فاسد مدمِّر.

إيقاظٌ رابع: المشايخ أَصناف: مشايخ قال، ومشايخ حال، أَمّا القال

فأَنـتَ أَهْـلٌ لـه بمقـدار تحصيلـك وكـدّك، ونهلـك وعلّـك، وأَمّـا الحـال فعَطيّـة إِلَهيّـة، ومنحـة ربّانيّـة، لا يجـوز فيهـا التّصنّـع، ولا يمشـي معهـا الادّعـاء، ولا ينفـع التّشـبّع بهـا مـن دون أَن تُعطاهـا، بـل سـرعان مـا يَنهتِـك سَـتْرُ الادّعـاء، وينكشـف زَيْـف الانتحـال، وهنـا يُستحسَـن للشّـيخ أَنْ يَصْطَفِـيَ مُنشـيدًا قَـوّالًا صاحـب نَغَـمٍ ورَبَّ صنعـة، فيَسـترقّه بالعطـاء، ويسـتخلصه بالمِنَـح، لِيَترنّـم بذِكْـرِ المواجيـد والأَحـوال، فيعطـف العقـول والقلـوب إلـى الشّـيخ، ويُلهـب مكامـن الشّـوق لـه، والارتمـاء فـي عتباتـه.

ومـن أَصنافِهـم: مشـايخ دَرْسٍ، ومشـايخ هَـرْسٍ. مشـايخ الـدّرس أَنفـع، ومشـايخ الهـرس أَشـبع وأَمتـع، وأُصـول الصّناعـة تقتضـي أَنْ تُحَسِّـن الموازنـة فـي نفسـك، فتكـون شَـيْخ دَرْس وهَـرْس فـي الآن نفسـه، بحَيْـث لا يغلـب الـدّرس علـى الهـرس فتَفْقِـد الغَوغـاء والعَـوام والطّغـام، ولا يغلـب الهَـرس علـى الـدّرس فتفقـد الحُظـوة لـدى الصَّفـوة، بـل سـاعة فسـاعة، وكذلـك مـن أُصـول النُّجْـحِ الخَلـطُ بيـن العِلـم والخرافـة، فـلا يكـون حديثـك كلّـه مـن ذا أو ذاك، بـل هكـذا وهكـذا، مـع مراعـاة مخالفـة التّوقّعـات، فتفيـض فـي حديـث الخرافـة إذا توقّعـوا حديـثَ عِلـم، وتُسْـهِب فـي حديـث العِلـم إذا استسـلموا لِحديـث الخرافـة.

إيقـاظٌ خامـس: اِعْلَـم أَنّ زبـون هـذه الصّناعـة مـن البَشَـر كالفـرس الجمـوح، أَو البغـل الشّـموس، أَو السّـمك السّـارح فـي البحـر المالـح، فيأتـي الشَّـيْخ فيصطـاده ويروّضـه ويؤهّلـه ويُرقّيـه، ويعلّمـه ويدرّبـه وينمّيـه، وهـؤلاء الزّبائـن رغـم كثرتهـم الكاثـرة فئـةٌ محـدودة، وجماعـة معـدودة، يتقاسـمها أَربابهـا، ويتنافـس علـى اكتسـابها وحيازتهـا أَصحابهـا، والصَّنَـاع مـن هـؤلاء المشـايخ مَـنْ لا يـروم اصطيـاد زبائنـه مـن القفر، ولا يرمي شِـباكه فـي البحر، ولكـن يرنـو إلـى زبائـن المشـايخ، فيرمـي أَلْجِمَتَـه وشِـباكه فـي سـاحاتهم

وقِفافهـم، ولْيَتلطّـف وهـو يصطـاد التّلميـذ المذلَّـل والزّبـون المُسـتأنَس. وهـذا سـرٌّ مـن أَسـرار الصّنعـة، يجـب أَن يبـرع الشَّـيْخ فيـه، فيُجَـوِّد اختيـاره للشَّـرَك والحِبالَـة، ويُحْسِـن انتقـاءه للشِّـباك والصّنانيـر، ولْيتلطّـف، وأولـى درجـات التّلطّـف إيهـام الزّبـون أَنّـه مُحِـبٌّ لشَـيْخه، مُقـدِّرٌ لـه، يجـري معـه فـي مِضمـار واحـد، وأَنّـه لِهـذا الشّـيخ ناصـح أَميـن، وأَنّ هـذا الشَّـيْخ مـن أَهـل الكمـالات، ثـمّ يكـرّر ذلـك مـرّات ومـرّات إِلـى أَنْ يقـول أَخيـرًا: إِنّ الشَّـيْخ مـن الكُمّـل لَـولا هَنـات، ولْيتلطّـف، إِلـى أَنْ يسـتدرج التّلميـذ ويُطبِـق الفـخّ أَو القفـص، وعندهـا لا بـأس بـأَنْ يَسـلُق الشَّـيْخ القديـم بِمـا شـاء تحصينًـا للزّبـون مـن العَـودة إِليـه، وتنفيـرًا لـه مـن أَيّامـه الخاليَـة معـه.

إيقـاظٌ سـادس: أَوّل وسـائل هـذه الصّناعـة وآلاتهـا أَنْ يكـون للشَّـيْخ مَقَـرّ: مسـجد أَو جامـع أَو زاويـة أَو ربـاط أَو خانْقـاه، وأَن يختـاره بَيـن العمـران، وأَنْ يعمـد بعـد ذلـك إِلـى معرفـة سـكّان الحـيّ: طبقاتهـم وأَحوالهـم، فيَبحث عـن رجـل السّـلطان الأَكبـر بَينهـم، ويُستحسَـن أَنْ يكـون مـن كبـار العسَـس أَو كبـار البصّاصيـن، وعـن تاجـر، وطبيـب، وقـاضٍ ومعلّـم، شـرط أَلّا يعرفـوا بعضهـم مـن قَبْـل معرفـة وثيقـة، ويدعـو الجميـع إِلـى وليمـة، ولْتَكُـنْ خروفًـا محشـيًّا بـالأَرزّ واللّحـم وأَنـواع المكسّـرات مـن الفُسـتق الحلبـيّ العاشـوريّ، والجَـوز الدّمشـقيّ، والصّنَوبـر البلـديّ، واللّـوز الأَمريكـيّ، والكاجـو الهنـديّ، ومـا يَتْلـوه مـن حلويـات، ولْتَكُـن مـن محـلّات مهروسـة أَو مسـتّت إِنْ كان فـي حلـب، أَو مـن محـلّات مهنّـا أَو قزّيهـا أَو نفيسـة إِنْ كان فـي دمشـق، أَو مـن محـلّ هافـال إِن كان فـي كوبانـي الّتـي كانـت تُدعـى فـي سـالف الأَزمـان عَيْـن العـرب، وعنـد الاجتمـاع علـى الوليمـة عليـه أَنْ يوهِـم الجميـع أَنَّ معرفتـه بـكلّ واحـد منهـم قديمـة عريقـة، واضحـةٌ فِجاجُهـا، ومشـدودٌ عِناجُهـا، وسـوف يدعوهـم التّاجـر مـن كلّ بُـدّ للتـوِّ إِلـى وليمـة، فالطّبيـب،

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

فالمعلّم، وسيغدو الشَّيْخ حينها سُرّة اللّقاء وبهجته، وعُقدة الاجتماع ومُهْجَته، وسيشعر الجميع تجاهه بالامتنان، وسيُقابلون عِرفانه بالعِرفان.

إيقاظٌ سابع: تقوم صناعة المشْيَخة على الحكمة، والتّصرّف مع كلّ تلميذ بما يلائم مقتضى الحال، فلكلّ زَبون قابليّة واستعداد، وميزان وسعر، وطريقة تأليف وتدجين، والشَّيْخ البارع مَنْ يَضَع الأُمور مواضعها مُستهديًا بقَول المتنبّي الحكيم:

ووَضْعُ النّدى في مَوْضِع السَّيف بالعُلى مُضِرٌّ، كَوَضْع السَّيْف مَوْضِع النّدى

ومن تمام الحكمة أَن يُجانب الشَّيْخ التّصنّع والمُخالَفة المستنكَرة في الهَيْئة، في مأكله وملبسه ومجلسه وتكلّمه، فلا يبالغ في التّشدّق، ولا يُكثِر منه، بل يَكفيه أَن يتشدّق مرّة أّو مرّتَيْن في الأُسبوع، وَلْيحرص كلّ الحِرص على أَنْ يُجرِيَ أَحكام التّجْويد في كلامه من إِخفاء وإِدغام وغنّة بَين الفترة والأُخرى، حتّى يَعلَم الأَتباع أَنّ شَيْخهم يَعرف، ولكنّه لا يُبالغ ولا يتعمّق ولا يَخرج عن حدّ القَصد في أُموره كلّها.

إيقاظٌ ثامن: إِذا أَراد الشَّيْخ أَنْ يُوَسّع صناعته، فلا بُدّ له من حجّة سلطانيّة، ووثيقة ملوكيّة، تُيَسّر له...».

وهنا انتهتْ أَوْراق المخطوطة، وعسى أَنْ نَجِدَ بقيّتها في المكتبات الإِلكترونيّة الأُخرى الّتي ما زلنا نبحث فيها، لأَنّ الكاتب ذَكَر في المقدّمة أَنّ الرّسالة تحتَوي على ثلاثين إيقاظًا. والله وَلِيّ التَّوفيق، ومنه نستلهم السَّداد والإِمداد[1].

---

(١) لعلّه من الواضح أَنّه لا وجود لهذه المخطوطة، وأَنَّني أَحببتُ أَن أَكتبها بهذه الطّريقة في نوع من المُعابثة.

الباب الثّالــث

أَوْهــام الاقتصاد الإسلاميّ

مؤسسة دارالجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد

Dar al Jadeed

أَراعيل دُعاة الاقتصاد الإِسلاميّ ومُنَظِّريه

يُمكنُنا ونحن نراقب مسيرة ما يُسمّى الاقتصاد الإِسلاميّ منذ نَشأته قَبْل حوالَي التّسعين عامًا حتّى اليَوم أَنْ نُحدّد ثلاثة أَراعيل تَواردوا على تَوليده وتمجيده:

أَمّا أَفراد الرّعيل الأَوّل فكان بعضهم أَمام انفصالٍ عن دَولة، وإِزاء إِقامةِ دَولةٍ جديدة على أَساس دينيّ إِسلاميّ في شبه القارّة الهنديّة، لذلك وجدوا أَنفسهم مدفوعين لِيُقدّموا تأطيرًا إِسلاميًّا للاقتصاد والسّياسية والاجتماع يُسوّغ هذا الانفصال وذيّاك القيام، ويأتي على رأسهم مَولانا أَبو الأَعلى المودودي ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩، وربّما بتأثير منه صرّح القائد محمّد علي جناح ١٨٦٧ ـ ١٩٤٨ بأَنّنا في دَولتنا المستقبليّة سنُقيم اقتصادًا يتماشى مع الإِسلام ولا يتعارض معه[1]، وكان بعضهم الآخر يحضّر لِثَوْرات أَو انقلابات أَو دعوات تُطيح بحكومات بلدانهم المدنيّة أَو العسكريّة، لِتأتي بأُخرى دينيّة، كَسيّد قطب ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦ ومحمد باقر الصّدر ١٩٣٥ ـ ١٩٨٠، ويمكن أَن نُضيف إِليهما عيسى عبده ١٩٠١ ـ ١٩٨٠، ولذلك احتاجوا إِلى التّأطير نفسه، والطّرح عَيْنه، وكان موّال هؤلاء الدّعاة في هذه التّأطيرات من رأسهم، من دون إِملاء أَو طلبٍ أَو تَوْجيه، حيث

(١) تيمور كوران، **الإِسلام والثّراء الفاحش: مأزق الاقتصاد الإِسلاميّ**، ترجمة منبر الحرّيّة، ومراجعة وتدقيق د. نوح الهرموزي، دار الأَهليّة للنّشر، الأُردن، ٢٠١٢، ط. ١. ص. ٣٧.

كانت المَسالك الّتي ارتادوها تُفضي بهم إِلى هذه الدّعوات على سبيل التّرتّب واللّزوم والاقتضاء.
اتّجه طرحهم أَوّلًا وبِالذّات إِلى اختراع شَيء اسمه الاقتصاد الإِسلاميّ، والتّأكيد على تميُّزه، عن الاقتصاد الرّأسماليّ أَو الاشتراكيّ، في المُنطلقات والمُرتكزات والأَداء والغايات، من دون الخَوْض المُسهَب في التّفصيلات والجزئيّات. كانت آمالهم عريضة، وتطلّعاتهم تَوّاقة للبرهنة على أَنّ الإِسلام يتحدّى، وأَنّه خَيْرٌ وأَبقى.
أَمّا الرّعيل الثّاني من دُعاة الاقتصاد الإِسلاميّ فَهُم الّذين استقطبَتْهم مؤسّسات ماليّة في طَوْرِ النّشأة والتّكوين، طرحتْ نفسها بديلًا إِسلاميًّا عن المؤسّسات الماليّة والبنوك التّقليديّة الّتي يُقاطعها قسم كبير من المُتديّنين، وطلبتْ من هؤلاء الدّعاة أَمرَيْن:
أَوّلًا: أَن يُروّجوا للاقتصاد الإِسلاميّ، وللبنوك الإِسلاميّة، وأَنْ يتحدّثوا عن خصائصهما ومزاياهما.
ثانيًا: أَنْ يُقدّموا التّنظير الفقهيّ اللّازم لهذه البنوك الإِسلاميّة حتّى تتمايز عن نظيرتها التّقليديّة.
فشمّر هؤلاء الأَساتذة الفقهاء عن ساعِد البحث والتّرويج، وبدأت دراساتهم تَظْهَر تباعًا، وعيّنتهم هذه المؤسّسات لدَيها، لقاء مبالغ ماليّة مُجزِيَة، أَعضاء في هَيْئات الرّقابة الشّرعيّة، لِيُقَوِّموا مسارها، ويَمدّوها بالحلول الإِسلاميّة للمعاملات الّتي تطرأ، والعقود الّتي تُستحدَث، وفي خضمّ هذا الشّغل ظهرت في البحرَيْن سنة ١٩٩١ منظّمة أَيوفي *AAOIFI* هَيْئة المحاسبة والمراجعة للمؤسّسات الماليّة الإِسلاميّة، من أَجل «تحقيق المَعْيَرة والتّجانس بَيْن المُمارسات الماليّة الإِسلاميّة الدَّوليّة والتّقارير الماليّة للمؤسّسات الماليّة بالتَّوافق مع أَحكام الشّريعة ومبادئها»، ومن أَموال التّرويج والتّنظير والتّأطير اشترى الرّعيل الثّاني

السّيّارات السّريعة، وسكنوا البُيوت الوسيعة، وتزوّجوا النّساء المُطيعة، وأَنشأ أَوْلادهم مشاريعهم التّجاريّة والصّناعيّة والتّعليميّة، وعاشوا في دَوْحة الرّفاه وبَحْبوحة الجاه، وكان معظم هؤلاء المُنظّرين الفقهاء من أَساتذة الجامعات في كلّيّات الشّريعة ومعاهدها، فقاموا باستحداث أَقسامٍ لدراسة الاقتصاد الإِسلاميّ، ووجّهوا طلّابهم لاقتحام هذا المجال، وهكذا نشأ الرّعيل الثّالث من طلّاب كّليّات الشّريعة في مرحلة اللّيسانس، وفي مرحلة الدّراسات العُليا من ماجستير ودكتوراه، يَدْعون إِلى الاقتصاد الإِسلاميّ، ويُنافحون عنه جازمين مُتحمّسين، يستفرغون وِسْعَهم في البحث، ولا يبخلون بجهدهم وطاقتهم في الدّرس، من دون أَنْ ينالوا لُحْسَةً أَو لُعْقَةً من أَموال هذه المؤسّسات، ومن دون أَنْ ينعموا بفِلس واحد من فلوسها. بعضهم يدفعُه لذلك أَملٌ مشرَئبّ لِلْوُلوج إِلى حظيرة قدس إِحدى هَيئات الرّقابة الشّرعيّة مُستقبَلًا، وبعضهم تَسوقه عاطفته الدّينيّة الخالصة الّتي تروم رِفعة الإِسلام وخدمة المسلمين، من دون أَنْ يكون له مطمع في دولار أَو دينار.

ولكن، ما لم يُدركه هؤلاء الطّلّاب والدّارسون والباحثون من أَبناء الرّعيل الثّالث أَنّهم لم يخدُموا في هذه الدّعوة سوى الحاكم والرّأسماليّ، كما خدم الرّعيل الثّاني، من قَبْل، جميع حيتان الرّأسماليّين العرب في دوَل الخليج من أَمثال صالح كامل، والوليد بن طلال، ومَنْ خَلَفَهما من ملوكٍ وحكّام. وفي سوريا تحديدًا كان دُعاة الاقتصاد الإِسلاميّ يخدمون السّيّد الأَعلى، الّذي أَصدر سنة ٢٠٠٥ المرسوم التّشريعيّ رقم /٣٥/ النّاظم لإِحداث البنوك الإِسلاميّة، وجاء في نصّ المرسوم: «يهدف المصرف الإِسلاميّ إِلى: تطْوير وسائل اجتذاب الأَمْوال والمدّخرات، وتَوجيهها نحو المشاركة في الاستثمار المنتِج بأَساليب ووسائل مصرفيّة لا تتعارض مع أَحكام الشّريعة الإِسلاميّة». وكان ذلك المُتَسَيّد في اللّحظة ذاتها

قد هيّأ الخُلّص من أتباعه من أَجل إِنشاء هذه المصارف الإِسلاميّة للهدف المذكور في نصّ القرار، وهو استدراج الأَمْوال والمدّخرات الّتي بيَد المُتديِّنين الرّافضين إيداعها في البنوك التّقليديّة، وإِغراء الّذين يرفضون التّعامل مع البنوك التّقليديّة والاقتراض منها، ويفضّلون عليها التّجّار الّذين يُقرضونهم بحِيَل شرعيّة معروفة مشهورة، لا داعي لذكرها وتطْويل المقال بها.

كان لسان حال الآمر بهذا المرسوم يقول:

ـ تريدون بنكًا تقليديًّا؟ أَهلًا وسهلًا، دونكم المصرف التّجاريّ السّوريّ، أَو المصرف الصّناعيّ، أَو العقاريّ، أَو بنك عَودة، أَو بنك سوريا والمهجر، أَو بنك بيبلوس، أَو بنك سوريا والخليج، أَو فرنسابنك، أَو بنك قطر الوطنيّ، إلخ.

ـ أَم تريدون بنكًا إِسلاميًّا؟ أَيضًا أَهلًا وسهلًا، دونكم البنوك التّالية: بنك سوريا الدَّوليّ الإِسلاميّ، أَو بنك شام الإِسلاميّ، أَو بنك بركة الإِسلاميّ.

ـ أَم تريدون شركة تأمين إِسلاميّة؟ ها قد أَتحنا لكم شركة العقيلة للتّأمين التّكافليّ. ولكنّكم هنا يجب أَن تدفعوا أَكثر، أَلَسْتُم تحبّون دينكم؟ إِذًا يجب أَنْ تدفعوا لنا أَكثر.

وكم كانت فَرْحَة بعض المتديّنين غامرةً وهُمْ يرَون لأَوّل مرّة في سوريا سنة ٢٠٠٧ شركة تأمين إِسلاميّة خالصة تُتيح جميع أَنواع التّأمين: التّأمين على المُمتلكات، والتّأمين الصّحيّ، والتّأمين الهندسيّ، والتّأمين على البضائع، والتّأمين على المَركبات، والتّأمين على الحياة، إلخ.

ومرّة أُخرى لم يُدرك الرّعيل الثّالث أَنّهم كانوا يقومون، من حيث لا يشعرون، بدَوْرٍ يشبه دَوْر فتيات الإِعلان، ولكن بالمجّان. يسهرون ليلهم، وتتبخّص عيونهم، وتُبَحّ أَصواتهم، وهُم يتدفّقون في أَدلّتهم تسويقًا وتلميعًا وترْويجًا ودفاعًا عن الاقتصاد الإِسلاميّ وأَهمّيته، والبنك الإِسلاميّ

وأدائـه، ولِيَصُـبّ سَـيْلهم الجـرّار فـي عنفـات مؤسّسـات السّـلطة، فتـدور وتتحـرّك، وتربـح وتكسـب، لأَنّ جميـع هـذه المؤسّسـات الماليّـة والبنـوك الإِسلاميّة مـن دون اسـتثناء هـي مُلكـه ومُلـك زبانيّتـه وعلـى الأَخـصّ رامـي مخلـوف وسـليمان معـروف، ومَـن هُـم علـى شـاكلتَيْهما، يتقاسـمونها مـع شـركائهم الرّأسـماليّين السّـوريّين والعـرب، ضِمْـنَ حِصَـصٍ مُتّفَـقٍ عليهـا، وكما أَنّ الرّأسـماليّ الخليجـيّ أَتـاح لِبشّـار وأَزلامـه أَنْ يُسـهموا بالمليـارات فـي بنوكهـم التّقليديّـة والإِسـلاميّة، فقـدْ وَجَـبَ بالمقابـل أَنْ يسـمح هـو لِشُـركائه الخليجيّيـن أَنفسـهم أَنْ يُسـهموا فـي البنـوك السّـوريّة الخاصّـة، ولذلـك أَتـاح القانـون رقـم /٢٨/ لعـام ٢٠٠١ للمسـتثمِرين غَيْـر السّـوريّين المساهَمة فـي تأسـيس مصـارف خاصّـة بنسـبة مسـاهَمة حدّهـا الأَقصـى ٤٩٪، وهكـذا كان بنـك سـوريا الدَّولـيّ الإِسـلاميّ إِضافـةً إِلـى مالكيـه مـن أَزلام السّـلطة ذا نكهة قَطَرِيَّـة خالصـة، وبنـك الشّـام الإِسـلاميّ ذا رائحـة كوَيتيّـة محضـة، وكان بنـك البركـة خلطـة بحرَيْنِيَّـة إِماراتيّـة كوَيْتِيَّـة، أَمّـا شـركة التّأميـن الإِسـلاميّة فـي سـوريا العقيلـة فتوزّعـت مُلْكِيَّتُهـا علـى عـدّة شـركات أَهمّهـا:

١ـ مركز التّجارة العالميّ دمشق، وتُمَثّله في مجلس الإِدارة آية دشتي.

٢ـ شركة مجموعة أَوْلاد الدشتي، وتُمَثّلها هالا قوطرش.

٣ـ شركة أَمان الشّام القابضة، ويُمَثّلها جورج إيلي بريمو.

ولعـلّ مـن المُناسـب أَنْ نذكُـر هنـا أَنّ آيـة دشـتي هـي ابنـة رجـل الأَعمـال والعضْـوِ السّـابق فـي البرلمـان الكُوَيْتـي عبـد الحميـد الدشـتي، وأَنّ هـالا قوطـرش هـي زَوجتـه، وقـد طُـرِد مـن البرلمـان الكوَيْتـي وحُكِـم علَيـه بالسّـجن غِيابيًّـا بسـبب دعْوَتـه لِقَصْـف السّـعوديّة، ولِمجاهرتـه بالـولاء لإيـران، علـى خلفيّتـه المذهبيّـة المتعصّبـة، ولِدعمـه حـزب اللـه وبشّـار الأَسـد دعمًـا وَقِحًـا، إِلـى درجـة أَنّ عائلتـه اضطُـرّت إِلـى أَنْ تتبـرّأ مـن مواقفه الطّائفيّـة المبالَـغ فيهـا.

ولَأنّ هذه البنوك والمؤسّسات الماليّة إسلاميّة كان لا بدّ لها من مجالس هَيْئات رقابة شرعيّة، وقد اخْتير معظمهم منذ اللّحظة الأولى من مشايخ التّشبيح، قَبْلَ الثّورة وبعدها: السّيّد عبد الله نظّام رئيس الجمعيّة المحسنيّة، والدّكتور مصطفى البغا، والدّكتور محمّد توفيق رمضان البوطي، والدّكتور عبد الفتاح البزم، والدّكتور علاء الدّين زعتري، إلخ، وقد تولّى الدّكتور عبد الستار أبو غدة رئاسة هَيْئة الرّقابة في بنكَيْن إسلاميَّيْن في الوقت نفسه: بنك سوريا الدَّوليّ الإسلاميّ ، وبنك البركة، وحقيقةً لا نعلَم ما مَوْقفه الرّقابيّ الشّرعيّ في بنك سوريا الدَّوليّ وهو يرى هذا البنك يسنُد الجَيش الأَسديّ الخائن، ويدعم مُسَرَّحيه القَتَلة بمبادرة عنْوانها كفّيتو ووفّيتو، ولا نستَوْعب كذلك كيف يُجيز هذا الدّكتور الشّيخ لنفسه أَنْ يكون رئيس هَيْئة رقابيّة في بنك البركة وهو يملك فيه مليون سَهْمٍ ، أيْ ما يُعادل ٢٪ من رأسماله كما هو مُثْبَت في مَوْقع البنك الإلكترونيّ . وخُلاصة الكلام: إنّ الرّعيل الثّاني والثّالث من دُعاة الاقتصاد الإسلاميّ لم يدعموا سوى نشاط رأسماليّ خالص مئة بالمئة، لَأنّ مالِكي البنوك الإسلاميّة هُمْ أَنفسهم مالِكو البنوك التّقليديّة، وأَمْوال هذه البنوك الإسلاميّة والتّقليديّة تتدفّق فيما بَيْنها كالسّواقي المائيّة ذات الشّبكة المتّصلة في أَرض واحدة، وما نقوله هنا عن سوريا نقوله عن بقيّة البلدان، فهي لا تخرج عن هذا العلامة شَروى قُلامة.

الاقتصاد الإسلاميّ مُتَشَبِّعٌ بما لم يُعْطَ

أَرأيتم طفلًا ضخمًا يتخلّع في مِشْيَته يُصِرّ على النّزول إلى مضمار سباق عالميّ لِيُسابق فُحول العدّائين، ويقف بجانبهم، ولكن خارج المضمار، ثمّ يجري معهم عند انطلاق الصّافرة؛ وعندما ينتهي السّباق يقف لاهثًا، وقد قطع عدّة أمتار، لِيَتقافز فَرِحًا مُتَخَيِّلًا أَنّ الجمهور يصفّق له ويهتف لِفَوْزه، فيلتفت إليهم ويُلوّح لهم بكلتا يدَيْه، ثمّ يسجد شاكرًا لله، وقد امتلأ كيانه افتخارًا وعَظَمة؟

إنّه الاقتصاد الإسلاميّ أو بالأَحرى دُعاته مِمَّن لم يعرف تاريخ الأَفكار والدّعْوات دُعاةً مكابرين ومعاندين وواهمين ومُنْتشين مثلهم. يُلبسونه تارة ثَوْب العِلم فيقولون: عِلم الاقتصاد الإسلاميّ، ثمّ يكتشفون أَنّ الخصوصيّة الذّاتيّة والحَيْثِيَّة المشتركة بَيْن مسائله المُتشتِّتة الّتي يطرحونها لِتَميّزه عمّا سواه لا تنهض به لِتَجعل منه عِلمًا مستقلًّا، فيَقولون: لا، هو ليس بعِلْم، ولكنّه مذهب اقتصاديّ، فيُلبسونه ثَوْب المذهب الاقتصاديّ. علمًا أَنّ قليل التّمعّن سيكشف لنا أَنّ كلا هذين الثَّوْبَيْن هما ثَوْبا زورٍ فضفاضان واسعان يُغطّيان جسدًا أَعْجَف ناحلًا، فيُبرزانه عَبْلًا فِطَحْلًا.

لماذا الاقتصاد الإسلاميّ ليس عِلمًا؟

لأَنّ مبادئه لا تجعله عِلمًا مستقلًّا، ولا عِلمًا مُتمايِزًا، ونحن نعلَم أَنَّ تمايُز العلوم، إنّما يكون بتمايُز مَوْضوعاتها، أَو بتعبير أَدقّ بتمايُز

ما هـو الجامـع لمَحمـولات مسـائلها، فبعـض العلـوم يكـون المحمـول فـي جميـع مسـائله أَمـرًا واحـدًا، كمـا فـي الفلسـفة الأولـى والّتـي تُسـمّى بالحكمـة المُتعاليـة فـإنّ مَوْضوعهـا واحـد هـو المَوْجـود بمـا هـو مَوْجـود، وبعـض العلـوم الأُخـرى يختلـف المحمـول فـي مسـائله، ولكـن توجـد بَيْـن محمولاتـه المختلفـة جهـةٌ جامعـة، تُشـكّل مَوْضوعـه، وتختـزن الغايـة منـه، فمَوْضـوع عِلـم النّحـو مَثَـلًا هـو الكلمـات وحـالات إعرابهـا وبنائهـا، والغـرض منـه صيانـة اللّسـان عـن الخطـأ، ومَوْضـوع المنطـق طُـرُق التّعريـف وطُـرُق الاسـتدلال، والغايـة منـه صيانـة الفكـر عـن الخطـأ، وهكـذا نـدرك أَنّ التّمييـز بَيْـن العلـوم يكـون فـي المَوْضـوع وفـي الغـرض. فهـل عِلـم الاقتصـاد الإسـلاميّ متميّـز؟ وبعبـارة أُخـرى: هـل أَعراضـه الذّاتيّـة متميّـزة؟

لقـد عـرّف الدّكتـور أَحمـد صفـيّ الديـن عَـوَض عِلـم الاقتصـاد الإسـلاميّ بقولـه: «هـو العِلـم الّـذي يبحـث فـي طُـرُق الكَسْـبِ والنّفقـة علـى ضَـوْءِ الأَحـكام والآداب الّتـي تضمّنتهـا شـريعة الإسـلام»[1]، وعرّفـه د. عبـد اللـه بـن عبـد المحسـن الطّريفـي بأَنّـه «العِلـم بالأَحـكام الشّـرعيّة العمليّـة مـن أَدلّتهـا التّفصيليّـة فيمـا يُنظّـم كَسْـبَ المـال وإنفاقـه وأَوْجُهـه»[2].

وهـذان التّعريفـان، كمـا تـرَون، إعـادة تعريـفٍ لِبـاب مـن أَبْـواب الفِقْـهِ يُدعـى بـاب المعامـلات، وهـذا البـاب بأَحكامـه ومُعالجاتـه لا يرتقـي لتأسـيس مـا يُسـمّى بعِلـم الاقتصـاد، وهـذا ليـس عَيْبًـا فـي هـذا البـاب، ولكنّـه عَيْـب فـي مَـن يُضخّـم مـا لا يقبـل التّضخيـم، ويلعـب علـى

(١) أحمد صفـيَ الديـن عـوض، «أُصـول علـم الاقتصـاد الإسـلاميّ»، مجلّـة أَضواء الشّـريعة، كلّيّة الشّـريعة، الرّيـاض، ١٩٨١، عدد ١٢، ص. ١٩٧.

(٢) عبـد اللـه بـن عبـد المحسـن الطريفـي، **الاقتصـاد الإسـلاميّ**، تَوْزيـع مؤسّسـة الجريسـي، السّـعوديّة، ٢٠٠٩، ص. ١٨.

التّسـميات ويُلقيهـا جِزافًـا بـدون تمحيـص ومسـؤولية، ولِتقريـب المسـألة أَكثـر نقـول: هـل يمكـن أَنْ نذهـب إِلـى أَحـكام الحـرب فـي الإِسـلام، ثـمّ نؤسّـس مـن خلالهـا عِلمًـا نُسـمّيه عِلـم الحـرب الإِسـلاميّ؟ نُنافـس بـه مناهـج الدّراسـة الحربيّـة المُعتمَـدة اليـوم فـي الأَكاديميّـات الحربيّـة؟ بـل وندعـو بـكلّ ثقـة وتَحَـدٍّ لِنخـوض بهـذه الحصيلـة العلميّـة وبأَدواتهـا الكلاسـيكيّة حربنـا ونِزالنـا؟

إِنّ بـاب المعامـلات فـي كُتُـب الفقـه، وكذلـك جميـع النّصـوص الـواردة فـي الكتـاب الكريـم والسّـنّة المطهّـرة حـول المـال وطريقـة التّعامـل معـه لا تُنتـج عِلمًـا يُفسّـر الحيـاة الاقتصاديّـة وأَحداثهـا وظَواهرهـا ويربـط تلـك الأَحـداث والظّواهـر بالأَسـباب والعَوامـل العامّـة الّتـي تتحكّـم فيهـا، وهـذا مـا ندعـوه علـم الاقتصـاد وهـو اليـوم زِنْبيـلٌ تجتمـع فيـه عـدّة علـوم وعـدّة فـروع محـدَّدة منهـا، فهـو مزيـج مـن الرّياضيّـات والإِحصـاء والدّراسـات الكمّيّـة ودراسـات الجـدوى ودراسـات التّسْـويق الّتـي تعتمـد علـى علـوم النّفـس والاجتمـاع إلـخ، وعندمـا نقـول: علـم اقتصـاد إِسـلاميّ فهـذا يعنـي أَنّ أَجـزاءه يجـب أَنْ تكـون إِسـلاميّة، فهـل هنـاك إِحصـاء إِسـلاميّ، ورياضيّـات إِسـلاميّة، وعلـم اجتمـاع إِسـلاميّ، ولوغاريتمـات وخوارزميّـات إِسـلاميّة تتميّـز عــن الإِحصــاء والرّياضيّــات واللوغاريتمــات والخوارزميّــات الّتــي يعرفهــا ويسـتخدمها البشـر؟

لقـد أَدرك محمـد باقـر الصّـدر هـذه المسـألة فقـال إِنّ الاقتصـاد الإِسـلاميّ ليـس بعِلـم، ولكنّـه مَذهـب: «فحيـن نُطلـق كلمـة الاقتصـاد الإِسـلاميّ لا نعنـي بذلـك عِلـم الاقتصـاد السّياسـيّ مباشـرةً، لأَنّ هـذا العلـم حديـث الـولادة نسـبيًّا، وإِنّمـا نعنـي بالاقتصـاد الإِسـلاميّ: المذهـب الاقتصـاديّ للإِسـلام الّـذي تتجسّـد فيـه الطّريقـة الإِسـلاميّة فـي تنظيـم الحيـاة

الاقتصاديّة، بما يملك هذا المذهب ويدلّ عليه من رصيد فكريّ يتألّف من أَفكار الإِسلام الأَخلاقيّة والأَفكار العلميّة الاقتصاديّة أَو التّاريخيّة الّتي تتّصل بمسائل الاقتصاد السّياسيّ أَو بتحليل تاريخ المجتمعات البشريّة»(٣).

وما لم يَنتبه له الصّدر ورفقاؤه من دُعاة الاقتصاد الإِسلاميّ، أَو بالأَحرى ما لا يعترفون به هو أَنّه ما كان لهذا المذهب الاقتصاديّ الإِسلاميّ ـ رغم بِدائيّة شكله ومضمونه ـ أَنْ يستقيم الحديث عنه لَولا أَنّهم استعانوا بشكل أَساسيّ وجَوهريّ بمقولات عِلم الاقتصاد العامّة الّتي لم يَرِدْ أَيّ مُفرَدة من مفرداتها لا في الكتاب ولا في السّنّة ولا في كلام الفقهاء، وأَنّه لَولا الرّؤيَتان الاقتصاديّتان اللّيبراليّة والماركسيّة، ولغة الحداثة الغربيّة لَما خَطَر في بال هؤلاء الدّعاة وجود مَذهب اقتصاديّ في الإِسلام. وفي ضَوْءِ ذلك يُمكن أَن ننقُد تعريف الاقتصاد الإِسلاميّ كما يقدّمه الدّكتور عبد الجبّار السّبهاني بأَنّه: «عِلم يُعنى بدراسة النّشاط الاقتصاديّ استهلاك، إِنتاج، توزيع، تبادل، وما ينشأ عن هذا النّشاط من ظَواهر وعلاقات، في ضَوْءِ أَحكام المَذهب الاقتصاديّ في الإِسلام، ومنظومته القيميّة»(٤).

إِنّ الرّصيد الفكريّ للمَذهب الاقتصاديّ الإِسلاميّ يتألّف من أَفكار الإِسلام الأَخلاقيّة والأَفكار العلميّة الاقتصاديّة أَو التّاريخيّة، أَمّا أَفكار الإِسلام وتَوْجيهاته الأَخلاقيّة فهيَ مبثوثة في كلّ المنظومات الدّينيّة والعلمانيّة على حدّ سواء، والفرق الوحيد بَيْنهما هو أَنّ الفئة الغالبة والعُظمى من مُنَظّري الاقتصاد الإِسلاميّ لا يفرّقون بَيْن الفائدة والرِّبا، في حين أَنّها

(٣) محمد باقر الصّدر، **اقتصادنا**، دار التّعارف للمطبوعات، بَيروت، ١٩٨١، ط ١٤، ص ٣١.

(٤) انظُر: https://al-sabhany.com/index.php/articles/islamic-economy-definition

تلقى تفريقًا معقولًا ومقبولًا لدى الآخرين. وهذه مسألة سَوْف نفرُد لها بحثًا مُستقلًّا(٥).

وأَمّا أَفكار الإِسلام العلميّة الاقتصاديّة أَو التّاريخيّة فتقع ضمن تاريخ تطوّر الرّؤية الاقتصاديّة في المرحلة الأولى من مراحله وتُسمّى بالمرحلة البدائيّة، وهذه المرحلة تستغرق الحضارات القديمة الصّينيّة والهنديّة والفارسيّة واليونانيّة والإِغريقيّة والعربيّة حتّى نهاية القرون الوُسطى، ثمّ تبدأ المرحلة الكلاسيكيّة الّتي افتتحَها في نهاية القرن الثّامن عشر، وبداية القرن التّاسع عشر آدم سميث ١٧٢٣ ـ ١٧٧٠، وديفيد ريكاردو ١٧٧٢ ـ ١٨٢٣، وتوماس مالتوس ١٧٦٦ ـ ١٨٣٤، وجون ستيوارت ميل ١٨٠٦ ـ١٨٧٣، وفي تلك الفترة ظهر الاقتصاديّون الاشتراكيّون المُعارِضون للرّؤية الكلاسيكيّة ذات الطّابع اللّيبراليّ، وكان على رأسهم: سان سيمون ١٧٦٠ ـ ١٨٢٣، وروبرت أوين ١٧٧١ ـ ١٨٥٨، وشارل فوريي ١٧٧٢ ـ ١٨٣٧، وكارل ماركس ١٨١٨ ـ ١٨٨٣، ثمّ تطوَّر الفكر الاقتصاديّ إِلى مرحلة أَعلى دُعِيَتْ بمرحلة الاقتصاد الكلاسيكيّ الجديد تِبْعًا لِما تضمّنته الثّورة الصّناعيّة من تغْييرات، وكان من أَهمّ روّاد هذه المرحلة: ستانلي جيفون ١٨٣٥ ـ ١٨٨٢، وليون وَالرَاس ١٨٣٤ ـ ١٩١٠، وكارل مانجر ١٨٤٩ ـ ١٩٢١، وألفريد مارشال ١٨٤٢ ـ ١٩٢٤، وجونماينور كينز ١٨٨٣ ـ ١٩٤٦، وأَخيرًا نحن اليوم في المرحلة المعاصرة، ومن أَهمّ رجالها: ثورستين فلبن

(٥) من المسائل الّتي أَثارت انتباه الباحث والمؤرّخ الألماني توماس فيليب وهو يدرس أُطروحات المؤلّفين المسلمين المعاصرين الدّاعين للاقتصاد الإسلاميّ أنَّه لم يتعامل أَحد منهم مع حُجَج ماكس فيبر بشأن الأَخلاق البروتستانتيّة باعتبارها أصلًا للرّأسماليّة، وأنّهم لم يذكروا الأُسُس الأَخلاقيّة لحُجج آدم سميث الاقتصاديّة الّتي تتناول فضائل الفطنة والعدالة والإحسان التّابعة من طاعة الإنسان لله بوصفها فضائل ضروريّة للازدهار، ويعلّل توماس هذا التّجاهل بأنَّه ربّما يعكس عدم الارتياح للتّعامل مع أَيّة حُجّة تشير إِلى قدر كبير من القوّة الأَخلاقيّة والمعنويّة في الرّأسماليّة. انظُر:

Thomas Philipp, *The Idea of Islamic Economics*, Die Welt des Islams. Volume 30 1990, Issue 1-4 Jan 1990. P 123.

١٨٥٧ ـ ١٩٢٨، وجـون كينـث غالبريـث ١٩٠٨ ـ ٢٠٠٦، وميلتـون فريدمـان ١٩١٢ ـ ٢٠٠٦، إلـخ.

إنّ دُعـاة الاقتصـاد الإسـلاميّ اليـوم يريـدون، مـن دون أَنْ يَلحظـوا تطـوُّر الظّواهـر الاقتصاديّـة وتطـوُّر نظريّاتهـا، أَنْ يُناطحـوا ويتّحـدوا بفكرهـم الاقتصـاديّ الّـذي انطلـق مـن مرحلـة الإقطـاع فـي صورتـه البدائيّـة، آخـر مـا توصّـل لـه هـذا الفكـر فـي مراحلـه المتعاقبـة، ويتسـلّح هـؤلاء الدّعـاة بمحمّـد بـن الحسـن الشّـيباني ٧٥٠ ـ ٨٠٥، أَو بِابْـنِ خلـدون ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦، أَو بالمقريـزي ١٣٦٤ ـ ١٤٤٢، ولا يُدركـون أَنّهـم يرمـون بضعـة أَشـخاص مهمـا كانـوا مـن ذَوي الاقتـدار والقـوّة فـي مُواجهـة جَيـش عرمـرم لا يقـلّ أَيّ فَـرْدٍ منـه عـن هـؤلاء الأَفـراد قـوّةً وحصافـة رأي، عِلمًا أَنّ أَعلامنـا هـؤلاء لـو كانـوا أَحيـاء فربّمـا لـن يضعـوا أَنفسـهم فـي حالـة تَحَـدٍّ ومُواجهـة، بـل فـي حالـة تَوافـق وتكامـل، ويَتَـدَرَّع هـؤلاء الدّعـاة كذلـك بمقـولات خصائـص التّشـريع الإسـلاميّ القائمـة علـى الشّـمول والمرونـة والتّـوازن بَيـن المصالـح العامّـة والخاصّـة والمِثاليّـة والواقعيّـة واليُسْـرِ ورَفْـع الحَـرَج إلـخ، لكـنّ هـذه المقـولات نفسـها هـي الّتـي تجعـل الاقتصـاد الإسـلاميّ بـدون ماهيّـة، وبُـؤرة لـلآراء المتناقضـة حيـن يُقبَـل الشَّـيء ونقيضـه بحسـب وجهـة نظـر أَحـد أَتباعـه هنـا، وأَحـد أَتباعـه هنـاك. آراء متناقضـة لا يمكـن التَّوفيـق بَينهـا بـأَيّ شـكل مـن الأَشـكال، والأَمثلـة كثيـرة وفيـرة، كالخـلاف حَـول تَوسـيع مُلكيّـة الحكومـة والتّخطيـط المركـزيّ، أَو تقليصهـا واعتمـاد المُلكيّـة الخاصّـة وآليّـات السّـوق، فـكلّ فئـة تدعـم وجهـة نظرهـا باستِئْناسـات مـن الكتـاب والسّـنّة وتَفرضهـا أَدلّـةً قطعيّـة فتضـع مـرّة الاشـتراكيّة جنبًـا إِلـى جنـب مـع الإسـلاميّة، ومـرّة أُخـرى الرّأسـماليّة بـدل الاشـتراكيّة، فـي حيـن تقـوم فئـة أُخـرى بِوَضـع الرّأسـماليّة والاشـتراكيّة فـي الخـلاّط وتضربهمـا، وتخـرج علَينـا بعَصيـر إِسـلاميّ يدّعـي عاصِـروه أَنّـه يجمـع بَيـن نقـاط القـوّة بَينهمـا،

ويتغلّب على نقاط ضعفهما. خلافات حَول كلّ شيء: حول نظام الضّريبة التّصاعديّ، والأَرباح، والأُجور، وقوانين العمل، واستراتيجيّات التّنمية، حَول تسديد الدّيون في ظلّ التّضخّم: هل نربطه بمُؤَشِّر التّضخّم أَم لا؟ لقد كانت دعوى الاقتصاد الإسلاميّ منذ انطلاقها وسيلة تأكيد للهويّة، ولم تكن مَبْعَثًا ولا وسيلةً للتّنمية، وبحسب الدّراسة التّفصيليّة المُستقصِيَة الّتي أَجراها الباحث تيمور كوران في كتابه **الإسلام والثّراء الفاحش** فإنّ باكستان أَكثر بلد إسلاميّ راعى ضوابط الاقتصاد الإسلاميّ، ولكنّه لم يستفِدْ شَيئًا، ويُرجِع السّبب في ذلك إلى وجود نقاط غامضة في هذا الاقتصاد تُتيح للقوى السّياسيّة المُهَيْمِنَة تفسيرها بالطّريقة الّتي تخدُم مصالحها.

وخُلاصة ما أُريد قَوله هنا: على دُعاة الاقتصاد الإسلاميّ أَنْ يبحثوا عن وسائل تأكيد الهويّة خارج إطار عمليّات التّجميل والتّزويق والادّعاء. يقول الرّسول الكريم علَيه الصّلاة والسّلام: «المتشبّع بما لم يُعطَ كَلابس ثَوْبَيْ زور»[٦].

(٦) مسلم بن الحجّاج القشيري النّيسابوري، **صحيح مسلم**، حديث رقم: ٢١٢٩، ج. ٣، ص. ٦٨١.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

عبادة الشِّعار: البنك الإِسلاميّ أُنموذجًا

في تاريخنا الإسلاميّ تُعَدّ حادثة رَفْع المصاحف على الأَسِنَّة والرِّماح في حرب صفّين أوّل استغلال فظيع ناجح للشِّعار الإسلاميّ الّذي حصد نتائجه معاوية بن أبي سفيان، فتربّع حاكمًا مُطلقًا قَرابة العشرين عامًا على رقاب نفس الأَفراد الّذين جرَوا وراء ذلك الشِّعار وتعبّدوا له، ظنًّا منهم أَنّ فيه خلاصهم وسعادتهم.

واستمرّت رحلة استغلال الشِّعار الإسلاميّ جيلًا بعد جيل إلى وقتنا الرّاهن بالآليّة نفسها والخطوات عَينها مع فارق واحد أَلا وهو أَنّ طموحات من ذكرْنا وآماله كانت جِسامًا كبارًا امتدّت لِتُمسك بِقَرْنَيْ إمبراطوريّة مُترامِيَة الأَطراف، بَينما طموحات مَنْ هُمْ أَمامنا اليوم لا تَعْدو أَنْ تكون ضَرْبًا من ضُروب الكُدْيَة والاستعطاء، لإنفاق سلعة أَو لاصطياد زبون. ولا عجب أَنْ بِتْنا نرى ونسمع عن مسحوق زمزم للغسيل الآليّ واليدويّ، وشراب مكّة كولا المنعش والمهضِّم، ومستشفى الطّبّ الإسلاميّ، والسّمك المذبوح على الطّريقة الإسلاميّة، وأَخيرًا ولَيس آخرًا البنك الإِسلامي، والتّأمين الإسلاميّ، والصَّيرفة الإسلاميّة، والصّكوك الإسلاميّة، وهَلُمَّ جرًّا وسحبًا وعَتْلًا.

وإنصافًا للتّاريخ، وإن كان التّاريخ لا ينتظر إنصافنا، نقول: إنّ فكرة البنك الإسلاميّ، أَو البنك اللاربوي انطلقتْ في الأَساس بدافع وهَمٍّ إيديولوجيّين، من رَحْمِ الإسلام السّياسيّ، أَو الإسلام الحرَكيّ. هذا الإسلام الّذي نفخت فيه الرّوح حركة الإخوان المسلمون في مِصْرَ

بقِيادة الأُستاذ الإمام حسن البنّا، وقد أَخذت هذه الحركة، ومثيلاتها في العالم الإسلاميّ، على عاتقها محاولة عمليّة أَسْلَمَة شاملة للمجتمع من تحت، تمهيدًا لقيام دولة إسلاميّة، يَزَعُ الله بسلطانها ما لا يَزَعُه بقرآنه، فنتج عن ذلك سعْيٌ مُلِحّ لإيجاد بدائل إسلاميّة لكلّ منحًى من مناحي الحَياة، وبدأت الدّراسات تتوالى لتبحث وتؤصِّل تأصيلًا إسلاميًّا الاقتصاد والمجتمع والتّشريع أَي القوانين: الجزائيّة والمدنيّة والدّستوريّة، بل والقصّة والرّواية والمسرح، وصولًا إلى أَسلمة المعرفة، وعلى رأسها العلوم الإنسانيّة، وعلى رأس رأسها العلوم الاجتماعيّة.

وفي هذه الأَجواء انبثقت فكرة إيجاد بنك إسلاميّ، وكان من أَوائل رُوّادها في الوطن العربيّ، إنْ لم يكن رائدها الأَوّل الدّكتور المرحوم عيسى عبده المقرَّب من الأُستاذ الإمام البنّا، واستمرّت محاولات إنشاء هذا البنك منذ نهاية الأَربعينيّات إلى أَنْ تكلّلت بالنّجاح التّامّ في أَواسط السّبعينيّات، وفي أَثناء هذه الرّحلة رحلة المشروع من الفكرة إلى التّطبيق والتّنفيذ ازدلف الاستغلال الشّعاريّ إلى الهَمّ الإيديولوجيّ فتزاوجت الإسلاميّة المصريّة والرّأسماليّة الخليجيّة وأَنجبا بنك دُبَي الإسلاميّ، وبنك فَيصل الإسلاميّ، وبيت التّمويل الكوَيتيّ إلخ، واستقطبت هذه البنوك المتديّنين بفئتَيْهم: الفئة الّتي تحرص على التِزام تعاليم الإسلام شكلًا ومضمونًا، والفئة الّتي تعبُد الشّعار الإسلاميّ بما هو جسد وصورة وظاهر وحرف بغضّ النّظر عن الرّوح والمضمون والباطن والمعنى.

ولمّا اكتشفت البنوك الأَجنبيّة ذلك، راح بعضها يلعب اللّعبة ذاتها، وفي كلّ مرّة أَعلن بنك تقليديّ من هذه البنوك الأوروبيّة أَو الأَمريكيّة أَنّه افتتح نافذة أَو منصّة إسلاميّة كَبّر المُطبّلون من خبراء الاقتصاد

الإسلاميّ، لهذا الفتح الاقتصاديّ المُبين، والنّصر الإسلاميّ العزيز، على اعتبار أَنّ هؤلاء الغربيّين يرجعون إلى ربّهم جبرًا وقهرًا بعد أَنْ لمسوا بأَصابعهم كلّها نَجاعَة الاقتصاد الإسلاميّ والحلول الماليّة الإسلاميّة، الّتي نأت بنفسها عن ذلك الانهيار الاقتصاديّ المريع الّذي يتعرّض الغرب له منذ عام ٢٠٠٧.

وفي هذه الأَثناء صعد منظّرو البنك الإسلاميّ بالاختلاف بَينه وبَين البنك التّقليديّ إلى الذّروة. ولعلّ أَهمّ فارق بيّنه هؤلاء، سوى أَنّ التّقليديّ مسؤول عن الانهيار الماليّ الحاليّ، هو أَنّ الإسلاميّ يقوم على مبدأ المُرابحة في العقود الجائزة شَرْعًا، وعلى رأسها المُضاربة والاستصناع والبَيع الآجل... إلخ، فينهض بوَظيفة الوساطة الماليّة دون عَزْل المخاطرة، بينما يقوم البنك التّقليديّ في جملة ما يقوم به على مبدأ القرض الرّبويّ فقط، مهما تعدّدت صُوَره وأَشكاله وطُرُقه: تسهيلات ائتمانيّة، أَو سندات، أَو سحب على المكشوف.

ونحن هنا لن نتجانف عن الواقع إنْ قلنا إنّ هذا التّفريق مجرّد كلام إنشائيّ، ذلك أَنّ نظام المُرابحة في العقود حين أَجازته الشّريعة، فإنّما أَجازته باعتباره نشاطًا تجاريًّا استثماريًّا، ولكنّها لم تُجِزه لِيَغدو ذريعة وتحايُلًا وتمْويهًا لعمليّة هيَ في جَوهرها وأَصلها وفصلها ووَصْلها قرض، لأَنّ النّتيجة ستغدو، كما سيتبيّن لنا في هذا المقال، أَفظع وأَفدح من الفوائد، وهذا ما يُدخل المُرابحة في باب الرّبا، الّذي لا نبتغي له تَوسيعًا ولا تضْييقًا، أَكثر ممّا تدخله الفوائد، لأَنّ مَناط تحريم الرّبا هو الظّلم النّابع من الاستغلال «فلَكُمْ رؤوس أَموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون» [البقرة: ٢٧٩]، ولا شكّ في أَنّ المُرابحة في البنوك الإسلاميّة أَكثر ظلمًا واستغلالًا من الفوائد في البنوك التّقليديّة.

الفروق الحقيقيّة بَين البنكَيْن

الفرق الأَوّل: إنّ للبنك الإِسلاميّ هَيئة رقابيّة شرعيّة تسدّد مساره وتُهديه سواء السّبيل، وأَمّا البنك التّقليديّ فما له من هادٍ.

الفرق الثّاني: إنّ البنك الإِسلامي ليس بنك تنمية.

الفرق الثالث: إنّ البنك الإسلاميّ أَقلّ رحمة من البنك التّقليديّ.

أَوّلًا: أَدْوار هَيئات الرّقابة الشّرعيّة

حرصت البنوك الإِسلاميّة على اختيار هذه الهَيئات من الأَسماء العلميّة المشهورة في عالم رجال الدّين والمتديّنين، وهي أَسماء محترمة ومُبجَّلة [١]، لَأنّها ذات تاريخ عريق في العِلم والتّعليم والتّأصيل الفقهيّ لمُستجدّات الحياة، ولا سيّما الماليّة منها، لكنْ إذا كان البنك الإِسلاميّ يدفع لهم رواتبهم بالدّولار لا بالعملة الوطنيّة، فلَيس من أَجل عيون الفتاوى الخارقة، ولا الحلول الشّرعيّة المُذهلة الّتي يقدّمونها لعمليّات هذا البنك، بل للأَدوار التّالية الّتي تقوم بها هذه الهَيئات:

فالدَّور الأَوّل: هو دَور البرستيج التّكميليّ التّزيينيّ للشِّعار الإِسلاميّ المُطَمْئِن لقلوب المؤمنين وعقولهم بأَنّ هذا البنك، فعلًا، بنك إسلاميّ.

والدَّور الثّاني: هو دَور المُتغاضي السّاكت عن الحقّ، وعن كَشْف ما تراه هذه الهَيئات نفسها أَنّه مُخالفات شرعيّة ترتكبها هذه البنوك الإِسلاميّة.

والدَّور الثّالث: هو دَور المُمثّل الإِعلانيّ الإِشهاريّ الّذي يستنفر كلّ المساحات المُتاحة له من لقاءات عامّة وخاصّة، وخُطَب ودروس وكُتُب

(١) نُعيد التّذكير بما أَوردناه في مقال «أَراعيل دُعاة الاقتصاد الإِسلاميّ ومنظّريه» من أَنّ معظم أَعضاء هَيئات الرّقابة الإِسلاميّة في سوريا وقفوا مع السّلطة الأَسديّة وأَيّدوها وشبّحوا لها ما خلا قلّة قليلة من الأَسماء الّتي احترمت ذاتها وضميرها.

ومقالات وفتاوى ونصائح وإرشادات ومواعظ وعِبَر، في تكديس تَوكيديّ يزيّن لجمهور المؤمنين الدّخول في حظيرة قدس البنك الإسلاميّ، والتّنعّم بأَجواء الحلال الدّافئة الوثيرة البَضَّة الّتي تسيل البركة من أَعطافها وأَردانها، على خلاف البنك التّقليديّ الرّبويّ العقيم الّذي مُحِقت البرَكة منه، فلم يهنأ مُتعامِل معه في يوم من الأَيّام.

أَمّا الدَّور الرّابع: فهوَ دَور المحامي عن هذا البنك، والمدافِع عنه، والمسوِّغ لمُجْمَل أَدائه، ودَوْر الآسي المسكِّن لآلام المُشتَكين من المُتعامِلين الّذين يكتشفون أَنّ هذا البنك يأخذ منهم أَرباحًا / فوائد أَكثر من البنك التّقليديّ.

ويهمّني هنا أَنْ أُبيّن وأُفصّل في دَور التّغاضي والسّكوت الّذي تقوم به هذه الهَيئات الرّقابيّة الشّرعيّة.

فمن الواضح أَنّ البنوك الإسلاميّة لا تنهج نهجًا مصرفيًّا يختلف في مضمونه عن نهج البنوك التّقليديّة، سوى في تبديل المصطلحات فقط، فالرّبح في البنك الإسلاميّ هو نفسه الفائدة في البنك التّقليديّ، بدليل أَنّ البنك الإسلاميّ لا يستخدم مؤشّرات خاصّة به لتحديد نسبة الرّبح في العمليّات الّتي يُجريها، بل يعتمد معدّلات الفائدة العالميّة والمحلّيّة في صعودها وهبوطها حَذْوَ النّعل بالنّعل، من مِثْل معدّلات فائدة ليبور السّائد بَين البنوك في سوق لندن أَو البرايم ريت. لكنّ هَيئات الرّقابة الشّرعيّة تتغاضى عن ذلك، بل تُسوّغه وتُحامي عنه(٢).

ومن الأَدلّة على أَنّ هذه الهَيئات لا دَور لها سوى السّكوت والتّغاضي، أَنّ البنوك الإسلاميّة لا تحترم قرارات المَجامع الفقهيّة، ولا تُقيم وَزْنًا

---

(٢) د. أُسامة قاضي، «لماذا تستخدم المصارف الإسلاميّة أَسعار الفائدة كمِعيار للحساب والتّقدير»، بحث منشور في موقع المُلتقى الإلكترونيّ: http://almultaka.org/author.php?idAu=52

لتَوصيات هَيئات الرّقابة الشّرعيّة نفسها، فقدْ أَجمعت هذه المَجامع والهَيئات على تحريم:

أ ـ التّورّق المُنظَّم(٣).

ب ـ المُرابحة في سِلَع دَوليّة. غير أَنّ معظم البنوك الإِسلاميّة لا تحترم هذا التّحريم، ولا تُلقي له بالًا. لأَنّها إِذا فعلت فسوف تَقِف وتنهار. وعلى الرّغم من ذلك فإِنّ هذه الهَيئات إِذا تكلّمت فإِنّما تتكلّم من باب رفع العَتَب، وتأبى نَزْعَ صفة الإِسلاميّة عن هذه البنوك لحاجة في نفوسها، أَو بتعبير أَدقّ في جيوبها.

وممّا يُثلج صدور أَرباب البنك الإِسلاميّ هو أَنّ هذه الهَيئات الشّرعيّة مُصابة بداء الولاء للشّكل في حُكمها على العقود، وهذا ما يُتيح لها حرّيّة الحركة بطريقة لا تختلف شَروى نَقير عن البنوك التّقليديّة، فبِإِمكانها حينئذ أَنْ تمارس البَيع أَو الشّراء بشكل صُوَريّ وافتراضيّ، لا بشكل حقيقيّ واقعيّ، أَو أَن تدمج عدّة بُيوع في بَيع واحد، وأَن تتعامل في الأَسواق الدَّوليّة على ذلك الأَساس، وبودّي هنا لَو يَتِمّ الاطّلاع على المناقشات الّتي دارت حول صكوك نخيل الإِسلاميّة الّتي أَصدرتها شركة نخيل التّابعة لشركة دُبَي العالميّة، ومعنى كَونها إِسلاميّة. هذا المعنى الّذي لا يعني شيئًا على الإِطلاق، وهذا المعنى الّذي لم يعصُم الشّركة من الغرق في بحر الإِفلاس، على خلاف أَوْهام الاقتصاديّين الإِسلاميّين الّذين لم يتّفقوا على تكْييف فقهيّ أَو شرعيّ لهذه الصّكوك.

أَمّا أَنفع بركات هذه الهَيئات فاختلافها الدّائم فيما بَينها في تأصيلها

(٣) المقصود بالتّورّق أَن يأتي المقترِض طالبًا قرضًا من البنك، فيعرض عليه البنك شراء سلعة بثمن يزيد عن سعرها الحاليّ، على أَن يقسّط المقترِض ثمن هذه السّلعة خلال مدّة معيّنة، ثمّ يقوم البنك ببَيع هذه السّلعة مباشرة لصالح المقترِض ويُعطيه ثمنها. والفرق بَين السّعرَيْن هو الفائدة الّتي يجنيها البنك والّتي تُراعى فيها مدّة التّقسيط أَو الوفاء. وفي المحصّلة هو مجرّد إِقراض بفائدة، مع شراء وبَيع صُوَريَّيْن لا يتمّ فيهما استلام البضاعة ولا حيازتها.

وتكْييفها وفهمها للعقود، وهذا ما يُتيح للبنوك الإسلاميّة اللّعب على جميع حبال هذه الهَيئات، أَمّا الدّعوات والمُناشدات لِتلافي هذا الاختلاف فلا أَظنّ أَنّها ستذهب سوى أَدراج الرّياح، وبِإمكان الدّكتور البوطي أَن يفرِد بحثًا خاصًّا بعنوان: «سُبُل إمكانيّة التّجانس في الفتاوى الماليّة في أَعمال هَيئات الرّقابة الشّرعيّة»(٤)، لكنّ سُبُله هذه لن تجد لها على أَرض الواقع من سبيل، فالأَمر لا يحتمل إلّا الصّورة الرّاهنة الحالّة، من الاختلاف وعدم التّجانس.

البنك الإسلاميّ لَيْس بَنكًا تنمَوِيًّا

نظريًّا لا شيء يمنع من انخراط البنك الإسلاميّ في عمليّة التّنمية بكافّة صُعُدها وصُوَرها، والمنظّرون والمروّجون للبنك الإسلاميّ ذَوو الأَفكار المخمليّة يردّدون دائمًا آمالهم وأَمانيَهم في الدَّور التّنمويّ الّذي يمكن أَن يؤدّيه هذا البنك، لكن عمليًّا وواقعيًّا لم ولن يكون هذا البنك كذلك، وهذا ما فصّله أولفيه روا في كتابه **تجربة الإسلام السّياسيّ** حيث عقد فصلًا تحت عنوان: الاقتصاد الإسلاميّ بين الأَوهام والبلاغة، وخلاصة ما أَوْرده في هذا المجال بعد دراسة ميدانيّة أَعْرِضُه في النّقاط التّالية:

١ـ لم يهدف إنشاء البنك الإسلاميّ إلى تغْيير المجتمع، وإنّما إلى اجتذاب زبائن جُدُد من نَوعيّة خاصّة.

٢ـ والمسوَّغ الّذي اتّخذته هذه البنوك هو أَنّها لا تُجَنِّب الزّبون الإِثْمَ فحسْب، بل إنّها توفِّر له ربحًا أَكبر.

٣ـ وبما أَنّها مَوجودة في بلدان ذات اقتصاد مترنّح، ومعدّلات تضخّم مرتفعة، فإنّها لا تستطيع أَنْ تستمدّ أَرباحها من الإنتاج الصّناعيّ، بل

(٤) د. محمد سعيد رمضان البوطي، **قضايا فقهيّة معاصرة**، دار الفارابي، دمشق، ٢٠٠٩، ط. ١.

ينبغي لها أَنْ تقدّم أَرباحًا تفوق نسبتها نسب التّضخّم. لذا لا تجد أَمامها سوى المُضاربة والعمليّات القصيرة الأَمَد.

٤ـ «والحال أَنّ المُضاربة تُفضي عاجلًا أَم آجلًا إِلى الإِفلاس، والأَمثلة على إفلاس المؤسّسات الماليّة الإِسلاميّة لا تُحصى. فمصرف الرّيّان [الإِسلاميّ] الّذي تأسّس في مطلع الثّمانينيّات في مصر، على أَساس مبدأ اقتسام الأَرباح كان يقدّم مداخيل تتراوح بين ٢٤ و ٣٠٪، في حين أَنّ مصارف الدَّولة كانت تقدّم ١٣٪، وسرعان ما تبيّن أنّ مِثْل هذه المداخيل كانت تستمدّ من المُضاربة في الأَسواق العالميّة، فقدْ كان النّجاح الموقّت الّذي حقّقَتْه المصارف الإِسلاميّة يعود إِلى لَعِبها على ما هو غَير مستقرّ في الأَسواق الغربيّة: سوق الذّهب في شيكاغو، مثلًا، بالنّسبة إِلى مصرف الرّيّان، وحين تعاكس الظّروف أَزمة وول ستريت في تشرين الأول ١٩٨٧ يقع الإِفلاس»(٥).

وهذا ما حدث لـ «مصرف الاعتماد والتّجارة الدَّوليّة *BCCI* وهو مصرف إدارتُه باكستانيّة ورَساميلُه إماراتيّة، وقد أَحدثَ إفلاسُه هزّةً في العالم الإِسلاميّ عام ١٩٩١»(٦).

أَمّا المفارقة الكبيرة هنا فكانت تأسيس بنك إسلاميّ اسمه البنك الإِسلاميّ للتّنمية *Islamische Entwicklungsbank*، سنة ١٩٧٥ في جدّة بدعوة من أَعضاء منظّمة المؤتمر الإِسلاميّ، وأَسهم فيه ٥٧ دَولة إسلاميّة لتشجيع التّنمية الاقتصاديّة باستخدام أَدوات التّمويل الإِسلاميّة، وقد تتبّع تيمور كوران أَداء هذا البنك وتبيّن له أَنّ هذا البنك قد تحوّل من بنك تنمية إِلى بنك استيراد وتصدير، حيث «يستخدم هذا المصرف الأَموال المتوفّرة له لتمويل التّجارة الدَّوليّة إِلى حدّ كبير، وخصوصًا صادرات

---

(٥) أولفيه روا، **تجربة الإِسلام السّياسيّ**، ترجمة نصير مروة، دار السّاقي، لندن، ١٩٩٤، ط. ١، ص. ١٣٦.

(٦) المصدر نفسه.

النّفط للبلدان الفقيرة في العالم الإسلاميّ، كما أنّ حصّة المشاركة في الرّبح والخسارة في البنك الإسلاميّ للتّنمية من العام ١٩٧٥ حتّى عام ١٩٨٦ والّتي تراجعت من ٥٥٪ إلى ١٪، بَينما ارتفعت حصّة المُرابحة من صفر إلى ما يزيد على ٨٠٪ يوحي بالكثير[٧]، كما أنّ التّمويل التّأجيريّ قد ازداد بصورة حادّة. رغم أنّ هذا النّشاط لم يُذكر حتّى في النّظام الأَساسيّ للبنك. يبذل البنك الإسلاميّ للتّنمية كباقي المصارف التّجاريّة غاية الجهد لتجنّب المخاطر، وقد حرّر نفسه من تحمّل المخاطر من خلال ضمانات حكوميّة وتأمينات خاصّة يتحمّلها العملاء مع أنّ ذلك يشكّل مخالفة لمبادئ البنك ذاتها، فإذا تضرّرت آلة شُريت نيابة عن شركة بنغاليّة في أَثناء نقلها فإنّ الخسارة تقع على الشركة البنغالية، أو شركة التأمين، أو حكومة بنغلاديش، ولكن ليس على البنك نفسه أَبدًا.

«ليس في كلّ ما سلَف ما يعني أنّ العمليّات التّمويليّة للمصارف الإسلاميّة مُضرّة بالمصلحة الاجتماعيّة. إنّها لا تسبّب ضررًا بامتناعها عن تحمّل مخاطر حقيقيّة، بل إنّ ترويج التّجارة الدَّوليّة هي خدمة اقتصاديّة قيّمة لا سيّما في البلدان الّتي تعاني من خلَل في تقسيم الموارد يُعزى إلى السّياسة الحمائيّة. يُنَشِّط تمويل سلع الإنتاج الاقتصاديّ، وعلى الأَقلّ بالنّسبة إلى البلدان الّتي تتنافس فيها المصارف الإسلاميّة مع المصارف التّجاريّة العاديّة فلعلّها ما كانت لِتستمرّ على الأَرجح لَو لم تكن قد تمكّنت من تلبيَة بعض الاحتياجات القائمة سلفًا. النّقطة الأَساسيّة الّتي أَوَدّ تأكيدها هي أنّ ممارسات الإقراض في

(٧) يعلّق الدّكتور تيمور كوران على هذه الإحصاءات قائلاً: «ممّا يدعو للدّهشة أنّ عددًا قليلاً من الاقتصاديّين الإسلاميّين قد أَبدوا معرفة بهذه الإحصاءات». تيمور كوران، **الإسلام والثّراء الفاحش: مأزق الاقتصاد الإسلاميّ**، ص. ٤٦.

البنـوك الإِسـلاميّة لا تتّفـق ببسـاطة مـع قواعـد الاقتصـاد الإِسـلاميّ»[٨].

البنك الإِسلاميّ أَقلّ رحمة

أَنْ يكـون هـذا البنـك رحيمًـا فهـذا مـن ثامـن المسـتحيلات، لأَنّ الفضيلـة الوحيـدة الّتـي قـام علـى أَساسـها غـدت كرباجًـا يُلهـب ظهـور مُتعامليـه، وهـذه الفضيلـة هـي أَنّـه لا يفـرِض فوائـد علـى المُسـتحَقّات المتأخّـرة، لكـنّ هـذا المبـدأ يُرهـق ميزانيّـة هـذه البنـوك، ويؤثّـر سـلبًا فـي منافسـتها للبنـوك التّقليديّـة الّتـي تفـرض فوائـد معيّنـة علـى المسـتحقّات المتأخّـرة.

وهنـا تأتـي الحلـول الّتـي لا يمكـن أَن أَصفهـا بالإِسـلاميّة علـى الإِطـلاق، لأَنّ فيهـا ضـررًا أَكبـر مـن دفـع فوائـد التّأخيـر. أَو فيهـا تحايُـل مـن خـلال اللّعِـب بالمُسمَّيات.

الحـلّ الأَوّل: رَفْـعُ هَوامـش الرّبـح خَوفًـا مـن المُماطلـة، وبذلـك يغـدو التّمويـل عـن طريـق البنـك الإِسـلاميّ أَعلـى كلفـة مقارنـة بفوائـد البنـك التّقليـديّ. فتتحـوّل المُرابحـة إِلـى مُذابحـة، والمذبـوح هنـا هـو ذلـك المضطَـرّ المسـكين، المحاصَـر بتهديـدات مشـايخنا وبِوَعيد علمائنـا، والغارق فـي مسـتنقع تسـويغاتهم القائلـة: إِذا كان دينـك وإِسـلامك عزيـزًا علـى قلبـك فيجـب أَن تدفـع أَكثـر، فهـذه ضريبـة الحـلال الّتـي يهـون عندهـا كلّ مرتخَـص وغـالٍ.

الحـلّ الثّانـي: المبالغـة فـي طلـب الرّهونـات والضّمانـات والتّشـدّد فـي إِعطـاء فُـرَص التّمويـل للعمـلاء خَوفًـا مـن التّأخّـر فـي السّـداد، ممّـا يجعـل تعامـل البنـك الإِسـلاميّ محصـورًا فـي فئـة مـن النّـاس تتوفّـر لدَيهـم مـا يتطلّبـه التّمويـل الإِسـلاميّ مـن الضّمانـات الممتـازة، وهـذا مـا يـؤدّي إِلـى

(٨) تيمور كوران، **الإِسلام والثّراء الفاحش: مأزق الاقتصاد الإِسلاميّ**، صص. ٤٥ ـ ٤٦.

جَعْل المال دُولَةً بَيـن الأَغنِيـاء، خِلافًا لِمقاصـد الإِسـلام وأَهدافـه الحريصـة علـى أَنْ يكـون المـال دُولَـةً بَيـن جميـع الطّبقـات.

الحـلّ الثّالـث: هَجْرالمبـدأ القرآنـيّ المطالـب بإنظار المعسـر، امتثـالًا لقولـه تعالــى: «وإن كان ذو عســرة فنظــرة إلــى ميســرة» [البقـرة: ٢٨٠]، وتعطيلــه تعطيلًا تامًّا، وهنـا نجـد أَنّ مـدّة الإنظـار لـدى البنـك التّقليـديّ أَطـوَل، أَمّـا البنـك الإِسـلاميّ فيُسـيّر الأُمـور فـي قسـوة علـى قسـوة، ويسـارع إِلـى تنفيـذ الحجـوزات والرّهـون، حتّـى يتلافـى الخسـارة، وفـي هـذا إيقـاع ضـرر بالـغ بالعميـل يفـوق أَضعافًا مضاعفـة مـا يترتّـب عليـه مـن دفـع الفوائـد علـى تأخيـر سَـداد المسـتحقّات فـي البنـك التّقليـديّ، كمـا ذكرنـا.

الحـلّ الرّابـع: توجّهـت هيئـات شـرعيّة أَخيـرًا فـي عـدد مـن البنوك الإِسـلامّية إِلـى اللّعـب علـى المسـمَّيات ففرضـت غرامـات تأخيـر علـى المتعثّريـن فـي السَّـداد بـدلًا مـن أَخْـذِ فوائـد، وقـد أَوْجبـت تلـك الهَيئـات صـرف تلـك الغرامـات فـي أَعمـال الخيـر للخـروج عـن دائـرة تحريـم الفوائـد. لكنّنـا نعلـم جميعًـا أَنّ البنـك مؤسّسـة رِبْحِيّـة ولَيسـت جمعيّـة خَيريّـة، لـذا نرجّـح أَنْ تأخـذ هـذه البنـوك بالشّـقّ الأَوّل مـن توجّهـات هَيئـات الرّقابـة دون شـقّها الثّانـي المتمثّـل فـي توزيـع هـذه الغرامـات علـى وجـوه الخَيـر.

علـى أَنّ بعـض البنـوك الإِسـلاميّة تقوم فـي بعض الأَحيـان برعاية بعـض أَعمال الخيـر، ولكنّهـا تُرفِقهـا بدعايـة إِعلانيّـة وتغطيـة إِعلاميّـة وعبثيّـة اسـتعراضيّة تفـوق فـي تكاليفهـا مـا قدّمتـه لهـذه الأَعمـال، وفـي هـذا مخالفـة واضحـة وصريحـة للمبـدأ الإِسـلاميّ فـي عمـل الخَيـر القائـم علـى الإِخـلاص وعـدم حـبّ الظّهـور، والكتمـان بحَيـث لا تـدري شـمال الإنسـان مـا أَنفقـت يمينـه، رعايـةً وسـترًا لِمَـنْ يقـدّم لـه هـذا العَـوْن والإِرفـاق، لكـنّ تصرّفـات البنـك الإِسـلاميّ تأبـى الانصِيـاع لتعاليـم الإِسـلام، وتَشْـمس وتجمَـح أَمامهـا.

وممّـا تقـدّم يتبيّـن لنـا أَنّ البنـك الإِسـلاميَّ إِسـلاميٌّ جـدًّا حينمـا لا تعـود

عليه إِسلاميّته بضرر، لذا فليس له في الواقع من الإِسلام سوى الشِّعار. شِعار يُمجَّد تمجيدًا حزبيًّا باهتًا رخوًا متكاسلًا. شِعار قد تصلّبت شرايينه وتكلّست فقراته. شِعار يُعبَد من دون الله الرّحمن، ويُراعى على خلاف مصلحة الإِنسان، لذا لا يتوقّعَنّ أَنصار البنك الإِسلاميّ منّا الاستسلام البليد لهذا الشّعار، ولا التّقديس الأَعمى له، أَمّا إِذا أَرادوا أَنْ تكون بنوكهم إِسلاميّةً بحقّ وبجدارة فليس أَمامهم سوى أَنْ يقدّموا القروض من خلال مبدأ القرض الحَسَن. أَمّا ما سوى ذلك فهو مجرّد تلاعب وتحايُل واستثمار مُنافق.

الباب الرّابع

نوافذ على التّاريخ الإسلاميّ

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

تحليل التّاريخ الإسلاميّ خوارزميًّا

يُعدّ التّراث الإسلاميّ المكتوب باللّغة العربيّة، وِفْقَ معظم الدّارسين في الشّرق والغرب، من أَعظم خزائن المعرفة في تاريخ البشريّة، وهو يغطّي عمليًّا كلّ جوانب الثّقافة الإسلاميّة، ويمتاز بغنى المصادر التّاريخيّة الشّاملة مثل: السّجلّات، ومجموعات السِّيَر الذّاتيّة ككتب التّراجم والطّبقات الّتي تُعَدّ بالمئات، وتتناول هذه النّصوص العديدة كلّ جانب من جوانب التّاريخ والثّقافة: الفتوحات، وتقلّبات الأُسَر الحاكمة، والاضطرابات الحضريّة، والثّورات، وأَسعار الموادّ الغذائيّة، والتّجارة البعيدة المدى، والكوارث الطّبيعيّة، والجوائح والأَمراض، وأَيّ شَيء آخر يمكن تصوّره والتّفكير فيه.

ورغم أَنّ نسبة التّراث المطبوع إلى المخطوط ضئيلة جدًّا فإِنّ هذا التّراث المطبوع يمدّنا بمادّة علميّة غنيّة بمضمونها، وتُغرقنا في لُجّة من المعلومات، ممّا يُحتّم علينا اتّباع تكتيكات واستراتيجيّات ناجعة للإبحار فيها بأَمان، ومَخْضها واجتباء زُبْدَتها باحتراف.

وفي هذا المجال سنقع على رأي صادم مع أَنّه لن يتجاوز تصوير الواقع ووصفه، وهو قَول المستشرِق الأَلمانيّ المعاصر كلاوس كلير: «ما زال الاستشراق بوَجه عامّ، والبحث في تاريخ المَشْرِق بوَجه

خاصّ في طَور الطّفولة إلى حدٍّ بعيد» [1]، وسوف يقرّر في كتابه المُهمّ: **خالد وعمر: بحث نقديّ في مصادر التّاريخ الإسلاميّ المبكر** أنّه لا يوجد حتّى هذه اللّحظة كتابٌ تعليميّ في نقد المراجع التّاريخيّة، في المجال الإسلاميّ؛ ومن أجل تدارك هذا النّقص يُقدّم لنا حوالَي خمسة عشر مُقترَحًا في منهجيّة التّعامل مع كتب التّاريخ الإسلاميّ، ومن هذه المُقترَحات استخدام الطّرائق الكمّيّة حيث يُجمِل في أَسطر مكثّفة حسنات استخدامها، من دون أَنْ يغفل عن ذكر محاذيرها. يقول: «لقد استعملتُ في بحثي طرائق كمّيّة في كثير من المواضيع، وكنتُ في أثناء ذلك أكتسب المرّة بعد الأُخرى خبرة مؤدّاها أَنّ الإحصاء المُتأنّي لبداية مَوصوفة بدقّة يتيح التّوصّل إلى نتائج هامّة، على أَنّ الحُكم لا يُتِمُّ إضفاء الصّفة الموضوعيّة عليه من جرّاء ذلك بالضّرورة، لأَنّ النّزعة الذّاتيّة لم يتوافر لها بعد ميدان واسع قائم بذاته من جرّاء وضع معايير الاختيار وتفسير الأَحداث، غير أَنّ التّحليل الكمّيّ يُعاكس مصدرًا مشهورًا للأَخطاء، وهو الحُكم العفويّ على أساسِ قليل من الوقائع، وعندما يكون المرء قد سبق له أَنْ درس دراسة تمهيديّة كمّيّة يستطيع أَنْ يُقدّم نتائج أَبحاثه في كثير من الأَحيان، في قالب أكثر إقناعًا [...] إلّا أَنّه ينبغي للمرء أَنْ يكون واعيًا تجاه خطر المَوضوعيّة الظّاهريّة» [2].

منذ سنة ١٩٥٠ بدأ المؤرّخون الغربيّون باستخدام الطّرائق الإحصائيّة في الدّراسات التّاريخيّة المتعلّقة بالسّكّان والبناء الاجتماعيّ، وقامت جامعة ستانفورد سنة ١٩٦٨ بتطوير برنامج الإحصاء والتّحليل للعلوم

(١) كلاوس كلير، **خالد وعمر، بحث نقديّ في مصادر التّاريخ الإسلاميّ المبكر**، ترجمة محمد جديد، دار قدمس، دمشق، ٢٠٠١، ط. ١، ص. ٣٨٧.

(٢) المصدر السّابق، ص. ٤٤٨.

الاجتماعيّـة SPSS، وبتخزيـن البيانـات علـى بطاقـات مثقبـة[٣]، ومـع بدايـة السّـبعينيّات بـدأت هـذه الطّرائـق تتسـلّل إلـى مجـال دراسـات التّاريـخ العربـيّ والإسـلاميّ، وكان المـؤرّخ والمستشـرِق الأمريكـيّ ريتشـارد دبليـو بوليـت مـن أَوائـل مَـنْ اسـتخدم هـذه الطّريقـة، ففـي سـنة ١٩٧٠ نشـر فـي مجلـة التّاريـخ الاقتصـاديّ والاجتماعـيّ للشّـرق مقـالًا عنوانـه: «منهـج كمّـيّ لمعاجـم السِّـيَر المسـلمة فـي العصـور الوسـطى»، ثمّ نشـر سـنة ١٩٧٢ كتاب **علمـاء نيسـابور: دراسـة فـي التّاريـخ الإسـلاميّ فـي العصـور الوسـطى**، وفـي سـنة ١٩٧٩ أَخـرج لنـا كتـاب: **اعتنـاق الإسـلام فـي العصـور الوسـطى: مقـال فـي التّاريـخ الكمّـيّ**، وعلـى الرّغـم مـن ظهـور أَوّل كومبيوتـر شـخصيّ سـنة ١٩٨٣ فـإنّ معظـم الدّراسـات الّتـي نهجـت المنهـج الكمّـيّ فـي السّـبعينيّات والثّمانينيّـات اعتمـدت علـى اسـتخدام الفـرز ميكانيكيًّـا: بطاقـات الفهرسـة، البطاقـات المثقبـة، ثـمّ أَجهـزة الكومبيوتـر المبكـرة الّتـي تخـزّن البيانـات علـى أَشـرطة مغناطيسـيّة.

وفـي السّـبعينيّات بـدأ العـرب أَنفسـهم بالتّنبّـه إلـى هـذا المجـال، فاشـتغل

---

(٣) لكـن قبـل جامعـة سـتانفورد بثمانـي سـنوات قـام المستشـرق الفرنسـي الأَب Michel Allard ١٩٢٤ ـ ١٨٧٦ مـع جماعـة مـن الباحثيـن المنتسـبين إلـى المركـز القومـي للبحـث العلمـيّ CNRS سـنة ١٩٦٠ فـي إعـداد بطاقـات مثقبـة سُـجّلت عليهـا الآيـات القرآنيـة، لتسـهيل الرّجـوع إليهـا، وصـدر هـذا العمـل عـن دار نشـر Mouton فـي باريـس ولاهـاي سـنة ١٩٦٣، والعجيـب أَنّ الدّكتـور عبـد الرحمـن بـدوي سـخّف هـذا العمـل، ووصفـه بمشـروع فاشـل سـخيف، فقـال فـي موسـوعة المستشـرقين فـي ترجمتـه Michel Allard: «وعـاد مـرّة ثانيـة إلـى بيـروت فأَمضـى فيهـا عامًـا ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩، أَخـذ أَثنـاءه فـي التّحضير لرسـالة الدّكتـوراه ، وعـاد بعـد ذلـك إلـى باريـس حيـث أَمضـى عاميـن يعمـل مـع جماعـة مـن الباحثيـن المنتسـبين إلـى المركـز القومـيّ للبحـث العلمـيّ CNRS فـي إعـداد بطاقـات مخرومـة سـجّلت عليهـا الآيـات القرآنيّـة لتسـهيل الرّجـوع إليهـا، وهـو مشـروع فاشـل سـخيف شـارك فيـه M. Elyzière, F. Hours, J. C, Gardin، وصـدر عـن دار نشـر Mouton فـي باريـس ولاهـاي سـنة ١٩٦٣، فلـم يفـد منـه أَحـد، ومـات المشـروع لتـوّه، إذ تغنـي عنـه المعاجـم المفهرسـة للقـرآن ومـا أَكثرهـا، ابتـداء مـن معجـم فلوجـل حتّـى معجـم فـؤاد عبـد الباقـي»، وكمـا نـرى فـإنّ رأي الدّكتـور بـدوي يـدلّ علـى عـدم اسـتيعابه لفكـرة الأَتمتـة ومفهومهـا، وعـدم تخيّـل الآفـاق الّتـي كانـت تعِـد بهـا. عبـد الرّحمـن بـدوي، **موسـوعة المستشـرقين**، دار العلـم للملاييـن، بيـروت، ١٩٩٣، ط ٣، ص ٤٥.

الدّكتـور التّونسـي المنجـي الكعبـي علـى حَوْسَـبَة بعـض تراجـم كتـاب **شـذرات الذّهـب** فـي أَخبـار مَـنْ ذهـب لابـن العمـاد الحنبلـي، وكذلـك اشـتغل الدّكتـور الأُردنـيّ أَحمـد الحسـو علـى حَوْسبة مئـة ترجمـة مـن كتاب **الضّـوء اللّامـع لأَهـل القـرن التّاسـع** للسّـخاوي، أَمّـا الباحـث السّـوري برهـان البخـاري فـكان جامـح الطّمـوح، فنـذر نفسـه لإِعـادة بنـاء الثّقافـة العربيّـة حاسـوبيًّا، وابتـدأ أَوّلًا بمشـروع أَتْمَتَـة الحديـث النّبـويّ الشّـريف، وكان يطمح إِلـى حَوْسـبة البيليوغرافيـا العربيّـة والمعاجـم الرّجاليّـة واللّغويّـة ومعاجـم البلـدان والبقـاع، والنّصـوص الدّينيّـة والأَدبيّـة، وتحويلهـا إِلـى مكتبـة رقميّـة تسـتطيع برامـج الكومبيوتـر معالجـة مواضيعهـا بطُـرُق سـريعة ودقيقـة.

أَمّـا الدّكتـور المصـريّ مصطفـى زايـد فكتـب سـنة ١٩٩٧ كتـاب **الإِحصـاء والبحـث التّاريخـيّ**، وكتـب سـنة ٢٠٠٠ **التّاريـخ الكمّـيّ مـع تطبيقـات فـي التّاريـخ الإِسـلاميّ.**

واعتمـد الدكتـور سـيّار الجميـل وسـائل البحـث الكمّـيّ، ضمـن المنهجيّـة الّتـي اتّبعهـا فـي كتابـه: **المجايلـة التّاريخيّـة: فلسـفة التّكويـن التّاريخـيّ. نظـرة رُؤيَوِيَّـة فـي المعرفـة العربيّـة الإِسـلاميّة** الّـذي أَصـدره سـنة ١٩٩٩، وخصّـص فيـه فصلًا للحديـث عـن حاجتنـا إِلـى التّاريـخ الكمّـيّ / الجدْوَلـيّ والتّحليـل القياسـيّ.

فـي هـذه الأَثنـاء كانـت تكنولوجيـا المعلومـات تقفـز قفـزات هائلـة، وشـهدت المكتبـة العربيّـة عمليّـة أَتمتـة هائلـة، ما كان يحلـم بها أَحـد مـن هـؤلاء الباحثيـن، الّذيـن كانـت تتنـاول بحوثهـم أَجـزاء مـن كتـاب واحـد، فـإِذا بهـم خـلال عقدَيْـن مـن الزّمـان تُتـاح لهـم آلاف الكُتُـب التّراثيّـة بصِيَـغ إِلكترونيّـة.

وفـي عامَـيْ ٢٠٠٩ و٢٠١٠ بـدأ تسـويق برنامـج SPSS تحـت اسـم SPSS Statistics والّـذي أَتـاح إِجـراء عمليّـات إِحصائيّـة تراكميّـة يمكـن معهـا تحديـد

العلاقـات الثّنائيّـة والمركّبـة بَيـن معلومـة وأُخـرى، أَو مجموعـة معلومـات غيرهـا ممّـا لـه علاقـة بهـا، وهكـذا وفّـر إِمكانيّـات بحثيّـة هائلـة.
أَمّـا أَهـمّ عَمَـلٍ يمكـن ذكـره فـي هـذا الصّـدد فهـو رسـالة الدّكتـوراه الّتـي قدّمهـا المستشـرق مكسـيم رومانـوف فـي جامعـة ميشـيغان سـنة ٢٠١٣ بعنـوان: **القـراءة الحاسـوبيّة لمجموعـات السِّـيَر الذّاتيّـة العربيّـة فـي العالـم السّـنّيّ مـا بَيـن عامَـيْ ٦٦١ و١٣٠٠**، ويُعَـدّ هـذا الباحـث اليـوم مـن أَهـمّ منظّـري مبـادئ الاسـتخراج والمعالجـة الرّقميّـة للبيانـات مـن المصـادر العربيّـة، وأَهـمّ مطبِّـق لمـا ينظِّـر لـه، وقـد قـام بمَسْـح أَكثـر من ثلاثيـن أَلف نـصّ عربـيّ مـن خـلال المكتبـات علـى النّـت: المكتبـة الشّـاملة، والمشـكاة، وصَيْـد الفوائـد، والـورّاق، ومكتبـة الشّـيعة، بالإِضافـة إِلـى مكتبـات رقميّـة علـى أَقـراص مضغوطـة، كمكتبـة المجمّـع الفقهـيّ فـي قُـمْ. إِيـران، ومكتبـة الجامـع الكبيـر، عمّـان ـ الأُردن.
كمـا أَنّـه قـام بتحليـل رقمـيّ مسـتقلّ لكتـاب **تاريـخ الإِسـلام للإِمـام الذّهبـي** الّـذي يضـمّ حوالَـي ثلاثيـن أَلـف ترجمـة، وبتحليـل كتـاب **هديّـة العارفيـن**: أَسـماء المؤلّفيـن وآثـار المصنّفيـن لاستكشـاف الإِنتـاج الثّقافـيّ الإِسـلاميّ حتّـى بدايـة القـرن العشـرين، حَيـث ذكـر مؤلّـف الكتـاب إِسـماعيل باشـا البغـدادي المتوفّـى سـنة ١٩٢٠ حوالَـي ثمانيـة آلاف وثمانمئـة مؤلِّـف، وأَربعيـن أَلـف عنـوان كتـاب.
لمكسـيم رومانـوف مدوَّنـة اسـمها: Al Raqmiyyat، يشـرح لنـا فيهـا عـن لغات البرمجـة فـي أَنمـاط البحـث التّاريخـيّ، وعـن تجريـد المعلومـة، وتفسـيرها، وعـن تحليـل الخوارزمـي لمجموعـات السِّـيَر العربيّـة، وعـن مبـادرة النّصوص الإِسـلاميّة OpenITI ، الّتـي تجمـع علمـاء مـن جامعـة لايبزيـغ، وجامعـة ماريلانـد كوليـدج بـارك، وجامعـة أَغاخـان لنـدن، وجامعـة فيينـا، وتهـدف إِلـى بنـاء أَوّل مجموعـة علميّـة تـدرس النّصـوص الإِسـلاميّة آليًّـا باعتمـاد خوارزميّـات الكومبيوتـر.

وله أَيضًا بَحْثٌ بعنوان: «تحليل خوارزمي للقرون الوسطى العربيّة: مجموعات السِّيَر الذّاتيّة»، ويحدّثنا في هذا البحث عن برامج الكومبيوتر الّتي يستخدمها في معالجة النّصوص العربيّة، وعن خطوات تحليل الخوارزميّات، من العثور على نصٍّ مقروء آليًّا، إلى تجميع كلمات رؤوس الفصول، وتحديد علاماتها وكياناتها المحدّدة، وتصنيف الوسوم: أَسماء الأَماكن، أَسماء الأَشخاص، الأَسماء الوصفيّة: فقيه، مُفْتٍ، قاضٍ، طبيب، مفسّر، إلخ، تواريخ السّنين، العلامات الاجتماعيّة، المهنيّة، الإِثنيّة، أَنماط الكُتُب الّتي أَلّفها المؤلّفون، وإِثراء البيانات وإِعادة تشكيلها وتنظيمها، في مجموعات فرعيّة لمجموعات منوّعة، علامات التّسلسل الزّمنيّ، والجغرافيّ، ويشرح لنا حلول إِزالة الالتباس والغموض: كيف نفرّق، على سبيل المثال، ما بين طرابلس بلاد الشّام وطرابلس الغرب.

وفي هذه المدوَّنة نقرأ أَيضًا بَحْثَه بعنوان: «التّغطيَة الزّمنيّة لمجموعة عربيَّة: تجربة مع بيانات التّاريخ»، وفيها تطبيق ممتاز لعمل الخوارزميّات في استنباط البيانات والمخطّطات والخرائط من المادّة التّاريخيّة التي تُتناول وتُعالج.

إِنّ البيئة الجديدة للبحث توفّر للمؤرّخين فرصةً للتّحقق ممّا إذا كان هنالك نصّ معيّن مُدرَج في مجموعة معيّنة، وكيف تترابط الكتب وتتكامل، أَو كيف يتداخل بعضها ببعض، وكيف تتشابك الأَحداث التّاريخيّة المختلفة، وكيف ترتبط المصطلحات والمفاهيم مع بعضها بعضًا، وكيف تتطوّر عبر الزّمان والمكان.

وسوف تقودنا تلك الآليّات إِلى اكتشاف أَخطاء كبيرة في كُتُب الأَنساب والأَدب واللّغة والتّاريخ، وكذلك إِلى اكتشاف الانحِيازات المعرفيّة والسّياسيّة، لصالح مَذهب، أَو بلد، أَو حِقْبَة تاريخيّة، وكلّ مَنْ طبّق هذا

النّمط من الدّراسة حدّثنا عن اكتشافاته ومفاجآته كبرهان البخاري، حين درس أَعلام الزركلي والمَوسوعة العربيّة الميسرة، وقارن بينهما، والدّكتور أحمد الحسو، في دراسته حول الواقع الحضاريّ لمدينة الموصل في عهد السّيطرة المغوليّة الإيلخانيّة، والدّكتور هاني الرفوع في أُطروحته الدّكتوراه: **الحياة الثّقافيّة والعلميّة في بغداد في عهد الدَّولة الإيلخانيّة.**

يقول كلاوس كلير: «لا يكاد يوجد محيط ثقافيّ تتوافر، تحت تصرّفه على مدى الماضي الّذي يمتدّ وراءه على مسافة شاسعة، مادّةٌ من الكتابة التّاريخيّة غنيّة المضمون كهذه المادّة الّتي تتوافر في العالم الإسلاميّ، وقد فضّت في الحقيقة جهود نَفَرٍ جَمٍّ من العلماء في العقود الأَخيرة جزءًا لا يُستهان به من كنوز المكتبات العربيّة، ومجموعات المخطوطات، ولكن لم يتحقّق بَعْدُ في مضمار التّحقيق الجيّد للنّصوص القديمة سوى الخطوة الأولى لاستغلال هذه المادّة، وكان ينبغي أَنْ تعقبها الخطوة التّالية الأَصعب: إذ لا بدّ من تقْييم النّصوص الجديدة تقْييمًا نقديًّا، ولكن ما زال من الواجب القيام بالكثير الّذي لا نهاية له في هذا المَيدان من ميادين العلم، فالمزيد من نصوص المَراجع لا يؤدّي، بصورة آليّة، إلى فَهْمٍ أَفضل للعصر الّذي نتحدّث عنه» (٤).

وأَقول: ربّما أَدّت بنا القراءة الكمّيّة، واعتماد آليّات تكنولوجيا المعلومات إلى هذا الفهم الأَفضل.

---

(٤) كلاوس كلير مصدر سابق، ص. ١٧.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

اعتناق الإسلام في العصور الوسطى
مقـــال في التّاريـــــخ الكمّـــيّ

إنّـه عنـوان كتـاب المـؤرّخ والمستشـرق والرّوائـيّ الأَمريكـيّ ريتشـارد دبليـو بوليـت المَولـود سـنة ١٩٤٠، والمُتخـرّج مـن جامعـة هارفـارد سـنة ١٩٦٧، والمُتقاعـد سـنة ٢٠١٥ بعـد سـبعٍ وأَربعيـن سـنةً مـن التّدريـس فـي أَقسـام التّاريـخ فـي جامعـات كولومبيـا وهارفـارد وبيركلـي، وخـلال هـذه المسـيرة العلميّـة التّعليميّـة المديـدة المشـفوعة بإِنتـاج أَكاديمـيّ رصيـن أَثبـت بوليـت تَميّـزه عـن باقـي المؤرّخيـن فـي أَنّـه كان دائـم الطّـرح لِأسـئلة غَيـر مُعتـادة، أَو غَيـر مطروقـة سـابقًا، وأَنّـه كان يستكشـف طُرقًـا مبتكـرة فـي محاولـة الإِجابـة عنهـا.

ركّـزت كتاباتـه المبكـرة علـى الجوانـب الاجتماعيّـة والاقتصاديّـة للإِسـلام فـي القـرون الوسـطى، وبعـد الثّـورة الإِسـلاميّة الإِيرانيّـة أَصبـح أَكثـر اهتمامًـا بالشّـؤون الإِسـلاميّة المعاصـرة، ولا سـيّما التّيّـارات السّياسـيّة الدّينيّـة فـي العالـم الإِسـلاميّ، وكان لـه أُطروحـة مضـادّة لهنتينغتـون وبرنـارد لويـس مجتمعَيْـن كَشَـفَ عنهـا فـي كتابـه: **دفاعًـا عـن مقولـة: الحضـارة الإِسـلاميّة ـ المسـيحيّة** الّـذي ترجمتـه دار النّهـار، ونشـرته سـنة ٢٠٠٥، وقـد رأى أَنّـه مـن الخطـأ أَنْ يُعبِّـر عـن الحضـارة الغربيّـة بأَنّهـا «الحضـارة اليهوديّـة ـ المسـيحيّة»، ودلّـل علـى أَنّ الأَدقّ والأَوْفـق أَنْ يُعبِّـر عنهـا بـ «الحضـارة الإِسـلاميّة ـ المسـيحيّة»، ولأَنّ مِثْـلَ هـذا الطَّـرح كان يوحـي بتعاطـف هائـل

مع الإسلام إلى درجة يظنّ المرء فيها أَنّ صاحبه مسلم فإنّه كان يُصرِّح، ربّما على سبيل الدّعابة، بأنّه ليس مسلمًا، وليس له أَقارب مسلمون. وتكشِف لنا قائمة كتبه الصّادرة حتّى هذه اللّحظة أَنّ اهتماماته انصبّت على ثلاثة مجالات مختلفة تمام الاختلاف:

أوّلًا: الإسلام بعوالمه الماضية والحاضرة.

ثانيًا: تاريخ علاقات الإنسان بالحيوان.

ثالثًا: تاريخ التّكنولوجيا القديمة.

لكن ما يهمّنا من كُتُبه الآن هو كتابه الفريد: **اعتناق الإسلام في العصور الوسطى: مقال في التّاريخ الكمّيّ** الصّادر سنة ١٩٧٩ عن جامعة هارفارد[1]، ورغم أَهميّة هذا الكتاب، وفرادة تناوُل موضوعه، وأَهميّة النّتائج الّتي تَوَصَّل إليها المؤلِّف فإنّه لم يُشَر إليه في الوطن العربيّ، وبالتّالي لم يُستفَد منه، ومن نتائجه.

يكشف هذا الكتاب عن لُبْسٍ خامَرَ تصوّراتنا حول التّحوّل الشّعبيّ إلى الإسلام في منطقة الشّرق الأوسط، فقدْ خُلط بَين شبه الجزيرة العربيّة وبَين ما جاورها من بلدان، عندما وسّعنا مدلول سورة الفتح في حديثها عن الدّخول في «دين الله أَفواجًا»، فظَنَنّا أنّ عمليّة التّحوّل السّريع الخاطف الّذي شَهِدْناه في شبه الجزيرة العربيّة نحو الإسلام خلال العقود الأولى من عمر الدّعوة الإسلامية تمّ بنفس النّسبة والسّرعة في بلاد العراق والشّام ومصر، أَو حتّى في بلاد فارس وإِسبانيا.

لقد كان اعتناق الإسلام حَدَثًا هائلًا جلَلًا في تاريخ البشريّة غيّر تاريخ العالم بتَوحيده شعوب الشّرق الأَوسط في دين جديد، وبخَلق

(١) Richard W. Bulliet, *Conversion to Islam in the Medieval Period, An Essay in Quantitative History,* Harvard University Press Cambridge, Massachusetts and London, England 1979.

إمبراطوريّة عالميّة واسعة المدى والنّطاق، وكان يجدر بالباحثين أَنْ يدرسوا نِسَب هذا التّحوّل بالقياس إلى كلّ بلد من البلدان، وكيف كانت تتصاعد هذه النِّسَب مع مرور الوقت، ولكن ربّما كانوا معذورين لأنّهم لم يهتدوا إلى وسائل القياس وآليّاته الّتي تُتيح لهم ملاحظة هذه النِّسَب الكمِّيَّة، ورَصْدَها بطريقة أَقرب ما تكون إلى الواقع من جهة، وإلى اتّباع منهجيّة علميّة لا شَطْح فيها ولا تعسُّف من جهة أخرى.

ومن هنا أَتت أَهميّة محاولة بوليت في رَسْمِه مخطّطات بيانيّة لكلٍّ من المناطق التّالية: إيران ـ العراق ـ سوريا ـ مصر ـ تونس ـ إسبانيا، ترصد نِسَب تحوّل شعوبها إلى الإسلام على مرِّ السّنين، ويقول في ذلك: «لقد اشتُقّت الرسوم البيانية بطريقة منهجيّة من مجموعة كبيرة ومَوثوقة من البيانات، ولكن يجب أَنْ يظلّ المعنى المخصَّص للرّسوم البيانيّة مسألة تفسير. وحتّى في الحالات الأَكثر مباشرة، فإِنّ غياب البيانات المستقلّة القابلة للقياس الكمّيّ يشكّل عقبة لا يمكن التّغلّب عليها. على أَنّه إذا لم يكن بإمكان المرء أَنْ يضع ثقته الكاملة في التّفاصيل الدّقيقة لرسم بيانيٍّ معيَّن، فإِنّ هذا لا يُعفيه من أَنْ يَجِد فيه محفِّزًا للتّفكير في مدلولاته التّاريخيّة»[٢].

(٢) تتوزع هذه الجداول والمخططات على مدار الكتاب كله، فنجد في الصفحة ٨ جدول التمثيل النسبي للمناطق من إيران إلى إسبانيا، كما وردت في كتاب **شذرات الذهب** في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، وهو كتاب يحوي زهاء العشرة آلاف سيرة ذاتية من العام الهجري الأول إلى العام ألف للهجرة. وفي الصفحة ٤٤ جدول ارتباط التطورات التاريخية بمنحى التحويل الإيراني، وفي الصفحات ٧٣ و٧٤ و٧٥ و٧٦ على التوالي جداول لانتشار الأسماء الإسلامية في العراق ومصر وسوريا وتونس، وفي الصفحة ٨٣ جدول يقارن بين منحيي التحويل بين العراق وإيران، وفي الصفحة ٩٧ جدول ارتباط التطورات التاريخية بمنحى التحويل المصري والتونسي، وفي الصفحة ١٠٩ جدول ارتباط التطورات التاريخية بمنحى التحويل السوري، وفي صفحة ١١٧ منحى التحويل الإسباني مشتقًا من الأنساب.

وسوف نختار ههنا جدولًا جامعًا وضعه الدكتور وقار حسيني بالاعتماد على جملة الجداول والمخطّطات البيانيّة العديدة الخاصة بكل إقليم من هذه الأقاليم، وهو جدول يلخّص لنا نتائج الكتاب الأساسية، ويعطينا زبدة هذا التاريخ الكمِّي، ويتناول الجدول نسبة الدخول في الإسلام من القرن الأول حتى الرابع الهجري/ من القرن السابع حتى العاشر الميلادي[٣]:

السّنوات بالهجريّ	إيران	العراق	سورية	مصر	إسبانيا
نسبة المسلمين مع نهاية أوّل مئة عام	٥ ٪	٣ ٪	٢ ٪	٢ ٪	أقلّ من ١ ٪
السّنوات الّتي صارت النّسبة فيها ٢٥ ٪ من السّكّان	١٨٥	٢٢٥	٢٧٥	٢٧٥	٢٩٥
السّنوات الّتي صارت النّسبة فيها ٥٠ ٪ من السّكّان	٢٣٥	٢٨٠	٣٣٠	٣٣٠	٣٥٥
السّنوات الّتي صارت النّسبة فيها ٧٥ ٪ من السّكّان	٢٨٠	٣٢٠	٣٨٥	٣٨٥	٤٠٠

إنَّ هذه النِّسَب، وقد لا تكون دقيقة مئة بالمئة، لا بدّ من أنْ تدفعنا لإثارة أسئلة عديدة:

- ما أسباب هذا التّحوّل وما دوافعه وبواعثه؟
- لماذا كانت نسبة التّحوّل في إيران والعراق أسرع من بلاد الشّام ومصر؟
- لماذا نرى نِسَب التّحوّل في بلاد الشّام ومصر متطابقة؟
- لماذا كانت نسبة الدّخول إلى الإسلام في إسبانيا أعلى في

(٣) سيد وقار حسيني، **الفكر الإسلامي في تطوير مصادر المياه والطاقة**، ترجمة سمية زكريا زيتوني، تقديم الدكتور محمود عكام، دار فُصّلت، حلب، ١٩٩٨، ط. ١، ص. ٧٤.

زمـن ملـوك الطّوائـف منهـا فـي زمـن الخلافـة الأُمَوِيَّـة فـي الأندلـس.

ـ هـل كانـت نِسَـب التّحـوّل فـي تلـك الأَقاليـم متسـاوِيَة مـا بيـن الأَريـاف والمـدن؟ أَم إنّ الرّيـف كان أَبطـأ فـي التّحـوّل؟ ومـا سـبب ذلـك؟

ـ ما عواقـب تجـاوُز عتبـة تحـوّل شـعوب هـذه المناطـق عتبـة الـ ٥٠ ٪ مـن السّـكّان علـى السّـلطة السّياسـيّة؟

وقـد حـاول بوليـت أَنْ يُجيـب علـى هـذه الأَسـئلة ومثيلاتهـا سـواء فـي فصـول الكتـاب المتعـدّدة، أَو فـي فصلـه الأَخيـر الّـذي عَنْوَنَـه بعواقـب التّحويـل، إجابـات تحمـل معنـى الاسـتنتاج والخلاصـات، ويبقـى الاسـتنتاج الأَهـمّ والأَبـرز فـي نظـر المؤلّـف هـو أَنّ التّحـوّل إلـى الإسـلام كان يـؤدّي إلـى إضعـاف الحكومـة المركزيّـة أَو تفكّكهـا، وهـذه النّتيجـة تُبيّـن أَنّ نشـوء القيـادة السّياسـيّة وتطوّرهـا جـاء اسـتجابةً لاحتياجـات المجتمـع الإسـلاميّ فـي تثبيـت وجـوده، مـن دون أَنْ يُنظَـر إليهـا علـى أَنّهـا مـادّة إيمـان أَو أَنْ تُعَـدَّ عنصـرًا ضروريًّـا فـي علاقـة الإنسـان باللـه، لذلـك تضاءلـت أَهميّـة وجـود مؤسّسـة سياسـيّة مركزيّـة مع تضـاؤل حاجـة المجتمـع إليهـا، لامتلاكـه الثّقـة بذاتـه، ولشـعوره أَنّ الإسـلام غـدا طريقـة حيـاة مسـتقرّة ودائمـة، ولـم يَعُـدْ مهـدَّدًا بالدّيانـات المحلّيّـة الأُخـرى، وللتّدليـل علـى هـذا الاسـتنتاج يَسـتعرض المؤلّـف حـالات تاريخيّـة لاحقـة تؤكّـد كلامـه، فعِنْـدَ كلّ تهديـد لحَـوْزة الإسـلام كان يُلجـأ إلـى فكـرة الخِلافـة أَو مـا يُعادلهـا، وفـي هـذا السّـياق يُفسِّـر المؤلِّـف موافقـة مُسـلمي إسـبانيا علـى الانضـواء تحـت رايـة المُرابطيـن ثـمّ المُوَحّديـن فـي مواجهـة القـوى المسـيحيّة الإسـبانيّة المُضـادّة، ويُفسِّـر أَيضًـا تجديـد الاهتمـام بمنصـب الخليفـة فـي نهايـة القـرن التّاسـع عشـر وبدايـة القـرن العشـرين، عندمـا بـدا أَنّ الإمبرياليّـة الغربيّـة تُهـدِّد أُسُـس المجتمـع المسـلم، ويُـدرك المؤلِّـف ههنـا أَنّ هـذه النّتيجـة تتعـارض مباشـرةً مـع المفهـوم الأَساسـيّ للإسـلام بوَصفـه دينًـا شـاملًا

يُوَحِّـد جميـع جَوانـب الحيـاة، فلطالمـا شَـعَر المسـلمون المعاصـرون بـأَنّ الإِسـلام يشـتمل علـى نظريّـة سياسـيّة إِسـلاميّة تسـتند إِليها مؤسّسـة سياسـيّة مركزيّـة، لكـن يبـدو أَنّ المُعطـى التّاريخـيّ، بحسـب المؤلِّـف، لا يدعـم هـذه الإِيديولوجيّـة الّتـي يتسـالم عليهـا معظـم المسـلمين اليـوم.

أَمّـا الاسـتنتاج الأَهـمّ فـي نظـري فهـو مـا خَتَـم المؤلِّـف بـه كتابـه فـي آخـر سـطوره: «إِنّ الخَيـط الأَساسـيّ الحقيقـيّ للتّاريـخ الإِسـلاميّ لا يكمُـن فـي المجـال السّياسـيّ للخلفـاء والسّـلاطين، بـل فـي المجـال الاجتماعـيّ، حيـث كان العلمـاء بمثابـة القلـب الفاعـل للمجتمـع المسـلم التّاريخـيّ»[٤].

ومـن هـذه الخلاصـة المدعومـة بأَرقـام نِسَـب التّحـوّل يتبيّـن لنـا بجـلاء أَنّ الفتوحـات الإِسـلاميّة لهـذه البـلاد لـم تُـؤَدِّ إِلـى الدّخـول الشّـامل فـي الإِسـلام مباشـرةً، لا طَوْعًـا ولا كُرْهًـا، وأَنّ ذلـك الاعتقـاد القائـل: إِنّ تلـك الشّـعوب قـد فُتِنـت بتعاليـم الدّيـن الجديـد فسـارعت لاعتناقـه طَوْعًـا وحُبًّـا، أَو القائـل: إِنّ تلـك الشّـعوب قـد بهرهـا شـعاع سـيوف الفاتحيـن فارتمـت فـي أَحضـان دينهـم كرهًـا وتقيّـةً مـا هـو إِلّا خيـالات وخرافـات!

(٤) Richard W.Bulliet, Conversion to Islam in the Medieval Period: An Essay in Quantitative HistoryHarvard University Press,1979, P. 138

علوم الحِيَل وثلاثة أَوْجه للحضارة الإِسلاميّة

عرفَتْ حضارتنا الإِسلامية ثلاثة علوم للحِيَل:

علـم الحِيَـل الميكانيكيّـة | علـم الحِيَـل السّاسـانيّة | علـم الحِيَـل الفقهيّـة.

وكلّ عِلـم مـن هـذه العلـوم يقـدّم وجهًـا مختلفًـا لهـذه الحضـارة شـديد الاختـلاف عـن الوجـه الآخـر، فمـرةً هـي حِيَـل تبنـي وتُنتـج وتُطـوِّر، ومـرّةً هـي حِيَـل تهـدم وتُقـوّض وتقلقـل.

عِلم الحِيَل الميكانيكيّة

تلقّفـت هـذه الحضـارة العِلـم الأوّل عِلـم الحِيَـل الميكانيكيّـة مـن الهنـد واليونـان، وعرفـتْ ضرورتـه ولزومـه، واسـتَوعبتْ مداخلـه ومخارجـه، فطَوَّرتـه وأَغْنَتْـه ونفخـت فيـه الـرّوح الإِبداعيّـة المبتكـرة. كان هـذا العِلـم فرعًـا مـن فـروع الهندسـة الّتـي ضمّـت إِلـى جانبـه الفـروع التّاليـة الّتـي يذكرهـا القلقشـندي فـي كتابـه **صبـح الأَعشـى فـي صناعـة الإِنشـا**، ويذكـر أَهـمّ مَـنْ أَلّـف فيهـا الكُتُـب والمصنّفـات: علـم عقـود الأَبنيـة، وصنّـف فيـه ابـن الهيثـم والكرخـي، وعلـم المنـاظر، وصنّـف فيـه علـي بـن عيسـى الوزيـر، وابـن الهيثـم، وعِلـم المرايـا المُحرقـة، وصنّـف فيه ابن الهيثم، وعِلـم مركـز الأَثقـال، وصنّـف فيـه أَبـو سـهل الكوهي، وعِلـم المسـاحة، وصنّـف فيه ابن مجلـى الموصلـي وابـن المختـار، وعِلـم إِنبـاط المياه، وصنّـف فيـه الكرخـي وابـن وحشـية، وعِلـم جـرّ الأَثقـال، ويبـدو أَنّ العـرب لـم يُصنّفـوا فـي هـذا

العِلـم فاكتفـى القلقشـندي بذكـر قليـلٍ مـن المصنِّفيـن فيـه، وعِلـم الآلات الحربيّـة، وقـد صنّـف فيـه أَبنـاء موسـى، وعِلـم الآلات الرّوحانيّـة، وأَشـهر كتـاب صُنِّـف فيـه هـو **كتـاب الحِيَـل** لأَبنـاء موسـى بـن شـاكر، وفيـه **كتـاب مبسـوط** للبديـع الجـزري.

ولـدى التّأمّـل نـدرك أَنَّ هـذه الفـروع كانـت تتداخـل جميعًـا فيمـا بينهـا، ولذلـك فـإِنّ عِلـم الحِيَـل قـد امتـدّت تطبيقاتـه إِليهـا كلّهـا، وهـذه التّطبيقات ومـا خالطهـا مـن روح علميّـة حقيقيّـة هـي الّتـي جعلـت مـؤرّخ العِلـم المشـهور جـورج سـارتون يقـول بـأَنّ العِلـم العربـيّ يحتـلّ فـي العصـور الوسـطى المكانـة الّتـي يحتلّهـا العِلـم اليونانـيّ فـي العصـر القديـم[1].

ونقرأ في مقدّمة ابن خلدون نصًّا بالغ الدّلالة يقول فيه:

«واعْلَـم أَنّ الهندسـة تُفيـد صاحبهـا إِضـاءة فـي عقلـه واسـتقامة فـي فكـره لأَنّ براهينهـا كلّهـا بيّنـة الانتظـام جليّـة التّرتيـب لا يـكاد الغلـط يدخـل أَقْيِسَـتها لترتيبهـا وانتظامهـا فيَبْعُـد الفكـر بممارسـتها عـن الخطـأ ويَنشـأ لصاحبهـا عقـلٌ علـى ذلـك المَهْيَـع، وقـد زعمـوا أَنّـه كان مكتوبًـا علـى بـاب أَفلاطـون: مَـنْ لـم يكـن مهندسًـا فـلا يدخلَـنّ منزلنـا، وكان شـيوخنا رحمهـم اللـه يقولـون: ممارسـة عِلـم الهندسـة للفكـر بمثابـة الصّابـون للثّـوب الّـذي يغسـل منـه الأَقـذار وينقّيـه مـن الأَوضـار والأَدران، وإِنّمـا ذلـك لِمـا أَشـرنا إِليـه مـن ترتيبـه وانتظامـه»[2]. وكأَنّ ابـن خلـدون هنـا يـورِد مقولـة مشـايخه ليُضاهـي بهـا مقولـة أَفلاطـون، ويقـول مـن خـلال ذلـك: إِنّ وعْيَنـا لأَهمّيّـة عِلـم الهندسـة يسـاوي وعْـيَ اليونانيّيـن إِنْ لـم يتفـوّق عليـه.

---

(١) جـورج سـارتون، **العلـم القديـم والمدنيّـة الحديثـة**، ترجمـة عبـد الحميـد صبـرة، تقديـم أَحمـد فـؤاد باشـا، المركـز القَومـي للتّرجمـة، القاهـرة، ٢٠١٠ ، ط. ١، ص. ١٣.

(٢) أَبـو زيـد عبـد الرّحمـن بـن محمـد ابـن خلـدون، **ديـوان المبتـدأ والخبـر فـي تاريـخ العـرب والبربـر ومـن عاصرهـم مـن ذَوي السّـلطان الأَكبـر**، تحقيـق خليـل شـحادة، دار الفكـر، بيـروت، ١٩٨٨، ط. ٢، ج. ١، ص. ١٣٩.

وبقليل من البحث في النّت اليوم سوف نشاهد تطبيقات عِلم الحِيَل المعتمدة على حركة الهواء والسّوائل، والصّمّامات الآليّة ذات التّشغيل المتباطئ، وطُرُق التّحكّم الآليّ والتّشغيل مِن بُعْد الّتي تفتّقت عنها مخيّلات أَجدادنا، ونرى فيها دقّة حساباتهم وبراعة تنفيذهم، وسوف نشاهد الآلات الموسيقيّة الذّاتيّة الحركة أَيضًا، وسنجِد كلامًا علميًّا كثيرًا عن مساهمات أَبناء شاكر ومَن تلاهم في هذا العِلم الّذي أَضفى على العالم الإسلاميّ في إبّان زمن أولئك المخترِعين الصّيت الّذي تمتلكه اليوم اليابان أَو أَلمانيا أَو أَيّة دولة صناعيّة متفوّقة.

عِلم الحِيَل السّاسانيّة

وفي وجه آخر من وجوه هذه الحضارة سنقع على العلم الّذي دُعِيَ بعِلم الحِيَل السّاسانيّة، ويعرّفه لنا حاجي خليفة في كتابه **كشف الظّنون** فيقول:

«عِلم الحِيَل السّاسانيّة: عِلم يُعرف به طريق الاحتِيال في جلب المنافع، وتحصيل الأَموال، والّذي باشرها يتزيّا في كلّ بلدة بزِيٍّ يناسب تلك البلدة، بأَنْ يعتقد أَهلها بأَصحاب ذلك الزِّيّ، فتارةً يختارون زِيَّ الفقهاء، وتارةً يختارون زِيّ الوعّاظ، وتارةً يختارون زِيّ الأَشراف، إلى غير ذلك.

ثمّ إنّهم يحتالون في خداع العَوامّ بأُمور تعجز العقول عن ضبطها، منها: ما حكى واحد إنّه رأى في جامع البصرة قردًا على مركب مُماثل لِما يركبه أَبناء الملوك، وعليه أَلبسة نفيسة نحو ملبوساتهم، وهو يبكي وينوح، وحوله خَدَم يتْبَعونه ويبكون، ويقولون: يا أَهل العافية اعتبِروا بسيّدنا هذا فإنّه كان من أَبناء الملوك، عَشِقَ امرأة ساحرة، وبلغ حاله بسحرها إلى أَنْ مُسِخ إلى صورة القرد، وطلبتْ منه مالًا عظيمًا لتخلّصه

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

من هذه الحالة. والقرد في هذا الحال يبكي بأنين وحنين، والعامّة يرقّون عليه ويبكون، وجمعوا لأجله شيئًا من الأموال، ثمّ فرشوا له في الجامع سجّادة فصلّى عليها ركعتَيْن، ثمّ صلّى الجُمعة مع النّاس، ثمّ ذهبوا بعد الفراغ من الجُمعة بتلك الأموال»[٣].

نُسب هذا العِلم إلى ساسان، وقيل إنّه كان رجلًا فقيرًا حاذقًا في الاستعطاء، دقيق الحيلة في الاستجداء، فنُسِب إليه المكدّون، أيْ: الشّحّاذون. ونحن نلحظ ههنا المعنى التّحقيريّ لدولة السّاسانيّين الفارسيّة الّتي انهارت بضربات الدَّولة الرّومانيّة أوّلًا ثمّ الدَّولة العربيّة الإسلاميّة ثانيًا، وربّما كانت هذه التّسمية ردًّا على النّزعة الشّعوبيّة الّتي استعلى بها الفُرس على العرب، فأراد العرب من خلال هذه التّسمية أَنْ يذكّروهم بأنّهم بعد أَنْ كانوا ملوكًا أَصبحوا شحّاذين.

ونَقَعُ في تراثنا الأدبيّ على أخبار التّطبيقات العديدة لهذا العِلم، وعلى قصصه الّتي يختلط فيها غباء العامّة وقلّة عقلهم بذكاء أرباب الحِيَل ودهائهم، لكنّ هذه القصص تكشف أَيضًا عن طابع الفقر والعَوَز والخلَل في توزيع المال والثّروة في المجتمع آنذاك، وتُنبئ عن ضعف بنْيَة النّسيج الاجتماعيّ، وإنَّ تتبُّع أَخبار هذا العِلم يُميط اللّثام عن نفاذ صبر النّاس وعدم تحمّلهم مكابدة الظّروف المعيشيّة القاهرة الّتي لا تنتج إلّا عن فساد وظلم. ولعلّ بديع الزّمان الهمذاني والحريري اسْتَشْعَرَا كلّ ذلك عندما كَتَب كلّ واحد منهما مقامة وَضَع لها العنوان نفسه: المقامة السّاسانيّة، وكان بطل مقامة الهمذاني المُكدي العظيم أَبو الفتح الإسكندريّ، وبطل مقامة الحريري أَبو زيد السّروجي.

---

(٣) مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي، المشهور باسم حاجي خليفة، **كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون**، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤٤، ج. ١، ص. ١٤٩.

عِلم الحِيَل الفقهيّة

أَمّا العِلم الثّالث الّذي يقدّم جانبًا آخر من جوانب هذه الحضارة فهو عِلم الحِيَل الفقهيّة، وهو العِلم الإسلاميّ الخالص الّذي نشأ من رَحْم هذه الحضارة من دون أَنْ تستعيره من رَحْمٍ آخر، نُسِب هذا العِلم للمَذهب الحنفيّ الّذي تبنّى القول بالحِيَل الفقهيّة وتوسّع فيها، وأَلّف المنتسبون إليه في ذلك المؤلَّفات العديدة، وأَتى المذهب الشّافعي دونه درجةً في الأَخْذِ به، أَمّا المذهب الحنبلي فأَنكره غاية الإنكار، وكان دونه في ذلك المذهب المالكيّ.

انطلق عِلم الحِيَل الفقهيّة على يد الإمام أَبي حنيفة من هدف نبيل، عبّرت عنه الكلمة المرادفة للحِيَل وهي المخارج، حيث تملّكت مؤسِّسَ المذهب روحُ التَّيسير على البشر وإيجاد المخارج لهم من الصّعوبات الّتي يصادفونها في رحلة ممارستهم الدّينيّة، غير أَنّ ما نُقل عنه من قصص وروايات حول هذه الحلول الّتي كان يقدّمها يجعلنا نعجب من اختلاف مستَوَياتها الّتي تتراوح ما بين الحِذْق والأَلمعيّة والرّكاكة والإسفاف، وقد حفظت لنا كُتُب الحِيَل الحنفيّة الكثير من هذه القصص الّتي نرى فيها جميع هذه المستوَيات.

أَمّا مَوقف المذهب الشّافعي فيقول المستشرق البلجيكيّ الأَب لامنس في مقال له عن الحِيَل والمخارج في الفقه الإسلاميّ وقد كَتَبَه بمناسبة صدور تحقيق المستشرق الأَلمانيّ جوزيف شاخت لكتاب الحِيَل والمخارج للخصاف الحنفي عام ١٩٣٠: «أَمّا الشّافعيّون فطرحوها في أَوّل الأَمر، كلّ الطّرح، حتّى إنّ البخاري وكان من الشّافعة [هكذا] حرّمها في صحيحه بكلام لا يحتمل التّأويل، إلّا أَنّهم عندما نظروا بَعْدَ ذلك إلى نجاح النّظريّة وتقدُّم المذهب الحنفي مالوا عن جفائهم

شيئًا فشيئًا، وأَخذوا هم أَيضًا يؤلّفون الرّسائل والكُتُب في الحِيَل»[٤]. غير أَنّ هذه الكُتُب الّتي انطلقت في البداية للتّخفيف عن النّاس وإراحة ضميرهم الدّينيّ تجاوزت الحدّ، وخرجتْ إِلى ضَرْبٍ من ضروب التّهتّك والاستهزاء بالقانون، وأَصبحت مدرسة تضاهي مدرسة الحِيَل السّاسانيّة، بل وغُيّب الضّمير تمامًا، وغدا الأَمر مَحْضَ تلاعُبٍ ومخادعة ومُماذَقَة، باجتراح حلول تُميت روح الشّرائع وتعبث بالقَوانين، بتعليم النّاس المُخاتَلَة في النّيّات والأَلفاظ على حدٍّ سواء. وأَغرب ما في الأَمر أَنّ هذه الحِيَل الفقهيّة دُعِيَت أَيضًا بالحِيَل الشّرعيّة، وأَكتفي هنا بضرب هذا المثال التّعليميّ من كتاب **جنّة الأَحكام وجُنَّة الخصام في الحِيَل والمخارج** للسّمرقندي الحنفي الّذي يقول فيه: «مَنْ أَراد أَن لا تَجِبَ عليه الزّكاة فالحيلة له أَنْ يترك الكَسْب، ولا يجمع المال أَكثر من قوّته وكفايته حتّى لا تجب عليه الزّكاة»[٥]. ويا لها من حيلة خارقة تبني الأَوطان وتدعم الإنسان!

ومن أَجل ذلك انبرى الحنابلة للرّدّ على هذه الكُتُب فكان ابن بطّة العكبري رائدهم في الكتابة ثمّ تلاه القاضي أَبو يعلى فنجم الدّين الطّوفي فابن تيميّة فابن قيم الجوزيّة.

ومع انهيار الخلافة العبّاسيّة بدأ عِلم الحِيَل الميكانيكيّة بالاندثار شيئًا فشيئًا، وترك المساحة كلّها لعِلم الحِيَل السّاسانيّة والحِيَل الفقهيّة يتغلغلان في روح هذه الأُمّة، وينزلقان بها من دَرْك إِلى دَرْك، وما زلنا حتّى هذه اللّحظة نتفاجأ بصورة جديدة من الحِيَل السّاسانيّة أَو الحِيَل الفقهيّة.

(٤) هنري لامنس اليسوعي، «الحيل والمخارج في الفقه الإسلاميّ» المشرق، العدد ٨ ـ ٩، ١ أغسطس ١٩٣١، ص ٦٤٦.

(٥) سعيد بن علي السّمرقندي الحنفي، **جنّة الأَحكام وجنّة الخصام في الحِيَل والمخارج**، مخطوط، لوحة رقم ٤.

تبسيط الإسلام السّنّي وتنميطه

وأَقصِدُ بالتّبسيط هنا انتزاع صورة واحدة من صُوَره المتعدِّدة والمركّبة، وتجميد تَجَلٍّ واحد من تجلّياته الكثيرة، وتقديمهما بوَصفهما المحدِّد لهويّته والشّارح لبنيته، وتجاهل جميع الوجوه والصُّوَر والتّجلّيات الأُخرى، وعدم الالتفات إليها، والدّلالة عليها.

يحدِّد توماس باور في كتابه **ثقافة الالتباس ـ نحو تاريخ آخر للإسلام**[1] أَشكال التّعدّد الحضاريّ في الإسلام بما يلي:

١ـ قبول تعدّدية الخطاب.

٢ـ قبول تفسيرات مختلفة.

٣ـ النّصوص والأَفعال والأَماكن متعدّدة المعنى.

٤ـ انعكاس التّعدّد والتّدرّب على التّعدّد.

والمُطَّلِع على دراسة باور سَيُدْرِك من أَوّل وهلة أَنّه عالج هذه الأَشكال واستفاض في شرحها والتّدليل عليها من خلال التّراث السّنّيّ، وهذا ما يضعنا وجهًا لوجه أَمام جريرة انتزاع صورة واحدة من هذا التّراث، وتقديمها ممثِّلًا له وناطِقًا باسمه وملخّصًا لوجوده.

وكي لا نبقى في مضمار الكلام العامّ والمُطلق سنعالج مسألةً تُقَدَّمُ عنوانًا من عناوين الإسلام السّنّيّ ونُبيِّن ما فيها من استهتار، أَلا وهي

(١) توماس باور، **ثقافة الالتباس ـ نحو تاريخ آخر للإسلام**، ترجمة رضا قطب، دار الجمل، بيروت | بغداد، ٢٠١٧، ط. ١.

مسألة الخروج على الحاكم، من خلال كتابَيْن تراثيَّيْن يحملان الاسم نفسه، ويقفان على طرفَي النّقيض من المسألة الّتي نحن بصددها. وهذا من غرائب الاتّفاقات الّتي تقتضي منّا عدم التّسرّع في عَنْوَنَة مذهب ما بعنوان معيَّن قائم على إطلاق الأوصاف والأحكام بتبسيط واختزال وتنميط.

كتابان يحملان العنوان نفسه، ويُدافعان عن فكرتَيْن متقابلتَيْن بل متناقضتَيْن:

الأولى: تَمنع الخروج على الحاكم، وتَعُدُّ كلّ خارِج عليه باغيًا ومفتئتًا، وتُجِدُّ وتجتهد في تجميل الحاكم وتسويغ جرائمه ولَو وصلت إلى عنان السّماء، وتتذرّع لذلك بالنّصوص وأَقوال الفقهاء، ونَقْد الرّوايات التّاريخيّة الّتي تذكُر الحكّام بما يشين ويقبح.

والثّانية: لا ترى بأسًا بهذا الخروج، وتستدعي أَيضًا النّصوص وأَقوال الفقهاء ومَواقفهم، ولا تأنف من ذكر عَورات الحاكم وسَلْقه بما فيه من أَوصاف وأَفعال.

اسم الكتاب الأَوّل **العواصم من القواصم** لأَبي بكر ابن العربي ١٠٧٥ ـ ١١٤٨.

واسم الكتاب الثّاني **العواصم والقواصم** لابن الوزير اليمني ١٣٧٣ ـ ١٤٣٦.

والمقصود بالقواصم في هذا العنوان الافتراءات والأَكاذيب والمطاعن والشّكوك الّتي يُوَجّهها مُناوِئو المذهب السّنّيّ إليه، وبالعواصم الرّدود والدّفوع والمعالجات الّتي تعصم من هذه الافتراءات القاصمة المدمّرة، فتكشف زَيفها وتجعلها هباءً.

يتضمّن كتاب ابن الوزير جميع القواصم الواردة في كتاب ابن عربي، ويزيد عليها قواصم أُخرى تتعلّق بالشُّبهات والمطاعن الّتي تَرِدُ على أئمّة الحديث، وفقهاء السّنّة، ومقولات الكلام الأَساسيّة للمذهب الأَشعري إلخ، ولكن تختلف معالجة العواصم بَين الكتابَيْن اختلافًا

جذريًّا. وأُخمّن أَنّ ابن الوزير تَعَمَّد أَنْ يسمّي كتابه بِاسْمٍ مُشابه لكتاب ابن العربي من أَجل أَنْ يُتيح المقارنة بَين مُعالَجتَيْن مختلفتَيْن إِلى حدّ التّناقض في الدّفاع عن الموقف السّنّيّ، والرّؤية السّنّيّة.

يناقش ابن العربي في كتابه ما شَجَرَ بَين الصّحابة فيذكر المآخذ على الخليفة الثّالث عثمان بن عفّان، ويتحدّث عن خروج طلحة والزّبير والسّيّدة عائشة إِلى البصرة، وحرب الجمل، ويتناول قتال الإِمام علي ومعاوية، وقصّة التّحكيم، وبَيْعة الحسن وصُلْحه مع معاوية، ومقتل الحسين في أَيّام يزيد.

تقوم معالجة ابن العربي المالكي على استراتيجيّات محدّدة تلخّصها كلمات التّسويغ والمكابرة والإِنكار والتّجميل والنّكاية، وبكامل الجرأة والقِحَة يقول: «وما وقع من روايات في كتب التّاريخ ـ عدا ما ذكرنا ـ فلا تلتفتوا إِلى حرف منها فإِنّها كلّها باطلة»[٢]، فهو فقط مصدر الخبر المَوثوق، ومنبع السّرديّة الحَقّة.

يُعدّد مآخذ الثّوّار على الخليفة الثّالث عثمان بن عفّان ثمّ يُفنّدها ويقول إنّها إمّا مكذوبة عليه، وإمّا لم تفهم على وجهها الصّحيح، وفي أَثناء ذلك يجمّل مروان بن الحكم، ويَعُدّه «رجلًا عدلًا من كبار الأُمّة عند الصّحابة والتّابعين وفقهاء المسلمين»[٣]، ويناقش مسألة أَخذه خِمْس غنائم إِفريقيا، فيكذّبها ويقول إِنّها لا تَصِحّ، ثمّ يعود ويسوِّغها، على فَرْضِ صحّتها، فيقول: «قد ذهب مالك وجماعة إِلى أَنّ الإِمام يرى رأيه في الخِمس، وينفذ فيه ما أَدّاه إِليه اجتهاده، وأَنَّ إِعطاءه لواحد

---

(٢) أبا بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، **العواصم من القواصم في**، تحقيق مواقف الصّحابة بعد وفاة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، تحقيق محبّ الدّين الخطيب، وزارة الشّؤون الإِسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإِرشاد، الرياض، ١٩٩٨، ط. ١، ص. ١٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ص. ٨٩.

جائـز» (٤). ويجمّـل كذلـك الوليـد بـن عقبـة، ويـرى أَنّ حـدّه فـي الخمـر لا يعيبـه ولا يقـدح فـي عدالتـه، فـ «ليسـت الذّنـوب مسـقِطة للعدالـة إذا وقعـت منهـا التَّوْبـة»(٥)، ويسـلّم بخـروج أَصحـاب الجمـل إلـى البصـرة، ولكنّـه لا يعلـم لمـاذا خرجـوا لأَنّـه «لـم يَصِـحَّ فيـه نَقْـلٌ، ولا يوثَـق فيـه بأَحـد، لأَنّ الثّقـة لـم ينقُلْـهُ، وكلام المتعصّـب غيـر مقبـول، وقـد دخـل مـع المتعصّـب مَـنْ يريـد الطَّعـن فـي الإِسـلام واسـتنقاص الصّحابـة»(٦).

وفـي قتـال علـيّ ومعاويـة يـرى أَنّهمـا معًـا علـى حـقّ، ولكـنّ طائفـة علـيّ أَدنـى إلـى الحـقّ، لأَنّ الرّسـول عليـه الصّـلاة والسّـلام حدّثنـا عـن الخـوارج فقـال: «تقتلهـم أَدنـى الطّائفتَيْـن إلـى الحـقّ»، ويعلّـق علـى هـذا الحديـث فيقـول: «فبيّـن أَنّ كلّ طائفـة منهمـا [يَقصـد طائفـة علـيّ وطائفـة معاويـة] تتعلّـق بالحـقّ، لكـنّ طائفـة علـيّ أَدنـى إليـه»(٧).

وفـي قصّـة التّحكيـم يُكـذّب خبـر التّحكيـم، ويحدّثنـا بعـد ذلـك عـن مزايـا معاويـة وسـيرته الممتـازة، وأَهليّـة يزيـد للولايـة، فيستشـهد بتسـليم ابـن عمـر لِإِمْـرَةِ يزيـد، ويذكـر أَنّ الفقيـه اللّيـث بـن سـعد سـمّى يزيـد أَميـر المؤمنيـن. وأَخيـرًا يقـول تلـك الكلمـة الّتـي سـارت بهـا الرّكبـان وتداولتهـا الأَلسـنة والأَقـلام: إنّ الحسـين قُتـل بِشَـرْعِ جـدّه(٨)، فـي تأكيـد منّـه علـى منـع الخـروج علـى الحاكـم، ولَـو بلـغ فـي العسـف والظّلـم مبلـغ يزيـد بـن معاويـة.

(٤) المصدر نفسه، ص. ١٠١.

(٥) المصدر السّابق، ص. ٩٤.

(٦) المصدر نفسه، ص. ١٠١.

(٧) المصدر نفسه، ص. ١٦٨.

(٨) يقـول ابـن العربـي: «ومـا خـرج إليـه أَحـد إلاّ بتأويـل، ولا قاتلـوه إلاّ بمـا سـمعوا مـن جـدّه المهَيْمـن علـى الرّسـل، المخبـر بفسـاد الحـال، المحـذّر مـن الدّخـول فـي الفتـن». وأَقوالـه فـي ذلـك كثيـرة: منهـا قولـه صلّـى اللـه عليـه وسـلّم: «إنّـه سـتكون هنـات وهنـات، فمـن أَراد أَن يفـرّق أَمـر هـذه الأُمـة وهـي جميـع فاضرِبـوه بالسّـيف كائنًـا مَـن كان. فمـا خـرج النّـاس إلّا بهـذا وأَمثالـه». المصـدر السّـابق، ص. ٢٣٢.

وسوف نرى أَنّ طائفة مُعْتَدًّا بها في المذهب السّنّيّ ستُكرِّر هذا المعنى وتؤكِّده وتضعه في إِطار نظريّة الأَحكام السّلطانيّة.

غير أَنّنا سنقع في المجال نفسه والدّائرة عَيْنها على نَوع آخر من المعالجة قدمّها لنا العلّامة المجتهد المطلق ابن الوزير اليمني في كتابه **العواصم والقواصم** المطبوع في تسعة مجلّدات، والّذي اختصره فيما بَعْد في مجلّد واحد بعنوان: الرَّوض **الباسم في الذَّبّ عن سنّة أَبي القاسم**.

نشأ محمّد بن إبراهيم الوزير ١٣٧٣ ـ ١٤٣٦ في اليمن في بيئة زيديّة، وتدرّج في مراتب العلم، وكان من المؤمَّل أَن يغدو من كبار مجتهدي الزّيديّة، ولكنّه حين بلغ مرتبة الاجتهاد أَعلن انتماءه لمدرسة أَهل الحديث السّنّيّة، فصدم محيطه وأَساتذته ومعارفه، وكتب أَحد أَهمّ أَساتذته وهو جمال الدّين علي بن محمّد ١٤٦٨ رسالةً «محبّرة مشتملة على الزّواجر والعِظات والتّنبيه بالكَلِم الموقِظات زَعْمَ صاحبها أَنّه من النّاصحين المحبّين، وأَنّه أَدّى به ما عليه من حقّ الأَقربين»[٩].

أَراد هذا الأُستاذ أَن يُبيّن لتلميذه السابق وقرينه اللاحق مكامن الخَطَل في المذهب السّنّيّ، والمطاعن الّتي تدفع المرء لِتَحاشي هذا المذهب في نصٍّ قصير مُحْكَم لا يتجاوز عدّة صفحات، فردّ عليه الإِمام ابن الوزير بكتاب تجاوز الأَربعة آلاف صفحة، ليكشِف عن اطّلاع وتدقيق قلّ نَظيره في التّراث الإِسلاميّ، وفي ذلك يقول: «فربّما أَوْردت عليه في بعض المسائل أَكثر من مئتَيْ إِشكال على مقدار نصف ورقة من كتابه»[١٠].

ومن جملة المطاعن الّتي يورِدها السّيّد الأُستاذ على فقهاء أَهل السّنّة

---

(٩) محمد بن إبراهيم ابن الوزير، **العواصم والقواصم**، تحقيق شعيب الأَرناؤوط، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٩٩٤، ط. ١، ج. ١، ص. ٢٢.

(١٠) المصدر السّابق، ج. ١، ص. ٢٥.

أَنّهـم يُجيـزون إمامـة الجائـر، ويحرّمـون الخـروج عليـه وهنـا ينبـري الإمـام المجتهـد ابـن الوزيـر فـي المجلّـد الثّامـن ليُبيّـن قصـور هـذه النّظـرة، وعـدم إحاطتهـا بعوالـم فقهـاء أَهـل السّـنّة واتّجاهاتهـم، ويدلّـل علـى كلّ كلمـة مـن كلماتـه بِسَـرْدِ أَقـوال الفقهـاء ووقائـع التّاريـخ الّتـي تؤيّـد مـا يَحكيـه ويقـرّره:

١ـ فالفقهاء لا يقولون إنّ الخارج على إمام الجَوْر باغٍ ولا آثِم.

٢ـ إنّ مَنْـعَ الخـروج علـى الظَّلَمَـة استُثنِي منـه مَـنْ فَحَـشَ ظلمـه وعظُمـت المفسـدة بولايتـه، مثـل: يزيـد والحجّـاج، ويقـدّم ههنـا أَعظـم شـهادة لأَهـل السّـنّة علـى البـراءة مـن تصْويـب يزيـد، ويسـرد أَقـوال أَئمّتهـم فـي هـذه البـراءة، حتّـى المشـهورين بالتّعصّـب للأُمَوِيّيـن كالإمـام ابـن حـزم.

٣ـ يؤكّـد أَنّ الفقهـاء مـن أَهـل السّـنّة لـم يخالفـوا فقهـاء الزَّيديـة فـي شـرائط الإمامـة الّتـي زعـم المعتـرِض والنّاقـد السّـيّد جمـال الدّيـن أَنّهـم خالفـوا فيهـا.

٤ـ يدلِّـل علـى أَنّ الفقهـاء مـن أَهـل السّـنّة وإن قالـوا بصحّـة أَخْـذِ الولايـة فـي المصالـح مـن أَئمّـة الجَـوْرِ فإنّهـم لـم يجعلوهـم مِثْـل أَئمّـة العـدل مطلقًـا فـي جميـع الأُمـور.

٥ـ يُثبِـت أَنّـه مـن الخطـأ الجسـيم الظّـنّ بـأَنّ الفقهـاء يُصوِّبـون أَئمّـة الجَـوْر فـي قتلهـم الّذيـن يأمـرون بالقسـط مـن النّـاس.

ضمـن هـذه المعطَيـات يُعيـد صياغـة العواصـم الّتـي تدفـع عـن المذهـب السّـنّيّ تُهَـمَ التّناقـض، وعـدم الاتّسـاق، وضبابيّة الرّؤيـة الأَخلاقيّـة، بمعالجات تحـاول النّـأي بنفسـها عـن اسـتراتيجيّات ابـن العربـي فـي عواصمـه وردوده، وهكـذا سـنراه يعالـج الوقائـع والأَحـداث والشّـخصيّات معالجـة هـي علـى النّقيـض مـن معالجـة ابـن العربـي، فلـن يُجمّـل شـخصيّة تَحـوم حولهـا إشـارات الاسـتفهام، ولـن يُسـوّغ لهـا، وسيكشِـف لنـا أَنّ هـذا المَوقـف هـو

مَوقف سنّيّ أَصيل له أَنصاره وممثِّلوه، وفي هذا الإِطار سيُعيد تَقْييم الشّخصيّات نفسها الّتي تناولها ابن العربي بطريقة مختلفة ومغايِرة، كمروان بن الحكم، والوليد بن عقبة، ويزيد بن معاوية.

إنّ هذَيْن الكتابَيْن المتوافقَيْن في الاسم، المختلفَيْن في المعالجة والمَوقف يَضَعانِنا أَمام كمّيّة الحَيْف الهائلة عندما ننساق اليوم في مجرى التّبسيط والتّنميط، فنقول بكلّ استخفاف: إنّ المذهب السّنّيّ يقول كذا، أَو إنّ أَهل السّنّة يقرِّرون كذا.

إنّ تبسيط الإِسلام السّنّيّ وتنميطه اليوم يستند إِلى هَوَس معاصر في استخلاص سِمات الفِرَق والمذاهب بل والعقول: العقل العربيّ، والعقل الإِسلاميّ، والعقل السّنّيّ إلخ، وتقديم هذه السِّمات في قَوالب تأسر هذه الفِرَق والمذاهب، وتسجنها في مقولات معيّنة، وعناوين جاهزة تغدو المحدِّد والمعرِّف والرّاسم، وتقضي على كلّ أَشكال التّعدّد والتّنوّع، وهذا في حدِّ ذاته، وِفْقَ شَرْح زيجموند باومان، أَحد أَهمّ تناقضات الحداثة الّتي تُعلي من شأن التّعدّد وتنوّع المعنى، ثمّ لا تَألو جهدًا في الحدّ منهما والقضاء عليهما.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

وُسوم المعلّـــم التّحقيريّة
في تراثنا العربيّ والإِسلاميّ

خـلال رحلتـي فـي عالـم الأَفـكار والأَشـخاص والكتـب الّتـي تسـاءلت السّـؤال الّـذي افتتحنـا بـه عصرنـا العربـيّ الحديـث: لمـاذا تأخّـر المسـلمون وتقـدّم غيرهـم لـم أَجِـد مَـنْ أَشـار إِلـى أَنّ العلّـة فـي مكانـة المعلّـم المنحطّـة فـي تراثنـا، علـى الرّغـم مـن تواتـر دعـوات ضـرورة البحـث فـي أَسـاليب التّعليـم وإِصـلاح مناهجـه وخُطَطـه، بـدءًا مـن العلّامـة الطّهطـاوي ومـرورًا بالإِمـام محمّـد عبـده ومَـنْ تَـلاه مـن المفكّريـن والكُتّـاب. غَيـر أَنّنـي أَزعـم ههنـا إِنّ المشـكلة لـم تكُـن فـي مناهـج التّعليـم وأَسـاليبه فحسـب، وإِنّمـا فـي مكانـة المعلّـم نفسـه، هـذه المكانـة الّتـي سـنُصْعَق عندمـا نحـاول أَنْ نُميـط اللّثـام عنهـا فـي تراثنـا العربـيّ والإِسـلاميّ.

والمُفارقـة الهائلـة الّتـي تُطالعنـا دائمًـا وأَبـدًا هـي ذلـك الانزيـاح الهائـل مـا بَيـن النّـص الدّينـيّ الرّائـع الدّاعـي إِلـى طلـب العلـم وتَوقيـر المعلّـم، ومـا بَيـن التّطبيـق المريـع المهيـن، فلَـو افتتحنـا كتـاب الإِمـام أَبـي حامـد الغزالي إِحيـاء علـوم الدّيـن، وهـو مِـن أَهـمّ دَواويـن الإِسـلام فإِنّنـا سـنراه قـد قسّـم كتابـه إِلـى أَربعـة أَربـاع: رُبْـع العبـادات. رُبْـع العـادات. رُبْـع المُهلِـكات. رُبْـع المُنجِيـات. وسـنرى أَنّـه افتتـح رُبْـعَ العبـادات بكتـاب العِلـم، فالعِلـم أُسّ العبـادة، وشـرطها وركنهـا فـي الوقـت ذاتـه، وفـي هـذا الكتـاب كتـاب العِلـم ينهـل الإِمـام مـن النّـصّ الإِسـلاميّ فيحدّثنـا فـي أَبوابـه عـن:

فضيلة العِلم | فضيلة التّعلّم | فضيلة التّعليم.

ويعقد فصلًا عن آداب المتعلّم والمعلّم، وفصلًا آخر عن آداب المُرشد المعلّم، وسوف نقع على صورة لا تُدانيها صورة تراثيّة أُخرى في إشراقها ونصاعتها وعظَمتها ورقيّها، وفي مقابل هذه الصّورة التّنظيريّة سنرى صورة أُخرى تطبيقيّة ملطّخة ومُعتمة ومرسومة بفراشي الغَمْض والاحتقار والازدراء.

يقسم التّراث العربيّ المعلّمين إلى ثلاث طبقات: الطّبقة الّتي تعلّم أَولاد العامّة، والطّبقة الّتي ارتفعت عن تعليم أَولاد العامّة إلى تعليم أَولاد الخاصّة، والطّبقة الّتي ارتفعت عن تعليم أَولاد الخاصّة إلى تعليم أَولاد الملوك أَنفسهم المرشّحين للخلافة. دُعِيَ أَرباب الطّبقة الأولى بمعلّمي الصّبيان، ودُعِيَ أَرباب الطّبقتَيْن الأُخريَيْن بالمؤدِّبين.

وسنرى في مرآة الجاحظ المصقولة صورة معلّمي الصّبيان، كما كانت على أَرض الواقع حينئذ، وسوف تتظهّر الصّورة بشكل أَفدح كلّما امتدّ الزّمن وجرى بنا نحو العصور اللّاحقة وصولًا إلى عصور الانحطاط الّتي ما غدت كذلك إلّا لِسوء مكانة المعلّم واحتقاره.

وسنجد، في هذا التّراث، تسالمًا على هذا الاحتقار عند عامّة النّاس وخاصّتهم وفقهائهم وعلمائهم وحكمائهم، فالعامّة تقول: أَحمق من معلّم كتّاب[١]، وتقول: الحُمق في الحاكة والمعلّمين والغزّالين[٢]، والشّاعر يتساءل عن إمكانيّات المعلّم العقليّة:

وكيف يُرجّى الرّأي والعقل عند من يروح على أُنثى ويغدو على طفل؟[٣]

---

(١) أبو بكر، محمد بن العباس الخوارزمي، **الأمثال المولدة**، المجمع الثّقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٣، ص. ١٤٦.

(٢) أَبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتّبيين**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٢، ص. ٢١٠.

(٣) المصدر نفسه، ص. ٢٠٩.

والحكيم ينصح: لا تستشيروا معلّمًا ولا راعيَ غنم ولا كثيرَ قُعودٍ مع النّساء[٤].

وأَمام هذه النّصيحة يستنفر الجاحظ وتأخذه الحَمِيّة فيدافع عن رُعاة الغنم فيقول: «وأَمّا استحماق رُعاة الغنم في الجملة فكيف سيكون ذلك صَوابًا، وقد رعى الغنم عدّة من جملة الأَنبياء»[٥]، ولكن لا يحظى معلّمو الصّبيان بفرصة دعم أَو انتصار، وإِنّما يُنتصَر للمؤدّبين مِمَّن يعلّمون أَبناء الخلفاء والخاصّة من أَمثال الكسائي وقطرب وأَضرابهما.

ويفتتِح الجاحظ، في هذا التّراث، بابًا من أَبواب ذكر مثالب المعلّمين على سبيل الطُّرفة والتّندّر، ولكنّه يكشِف لنا في الوقت نفسه عن مكانة المعلّم الحقيقيّة، الّتي أَزرَت به، وأَثّرت على شخصيّته فجعلتها مضطربةً مريضة.

وينقل ابن الجوزي عن الجاحظ: «مِن أَعجب ما رأيتُ معلّمٌ بالكوفة وهو شيخ جالس ناحية من الصّبيان يبكي، فقلت له: يا عمّ مِمَّ تبكي؟ قال: سرق الصّبيان خُبزي»[٦]!

ويحدّثنا كذلك عن معلّم ضرب غلامًا، فقيل له: لِمَ تضربه؟ فقال: إِنّما أَضربه قبل أَن يُذنب لِئَلّا يُذنب[٧].

ولم يقصِّرِ الفقهاء في تحقير المعلّم، فهذا الفقيه التّابعيّ قاضي الكوفة ابن شبرمة و: ٧٦١ لا يقبل شهادة المعلّمين[٨]، وابن شبرمة

---

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) أبو الفرج عبد الرّحمن بن علي بن محمد الجوزي، **أخبار الحمقى والمغفّلين**، تحقيق عبد الأَمير مهنا، دار الفكر اللّبناني، بيروت، ١٩٩٠، ط. ١، ص. ١٠١.

(٧) المصدر نفسه، ص. ١٥٠.

(٨) انظُر: المصدر السّابق، ص. ١٤٩.

مـن أوائـل الفقهـاء ومؤصّليـه جنبًـا إلـى جنـب مـع الإمـام أبـي حنيفـة. ويذكـر لنـا الجاحـظ أنّ بعـض الفقهـاء كان يقـول: «النّسـاء أَعْـدَلُ شـهادةً مـن معلّـم»[٩]، وفـي العصـر الحديـث أراد بعـض الباحثيـن أنْ يُجمّـل هـذا الـرّأي فاختـرع لـه تبريـرًا وقـال: «ولا يجـوز للمعلّـم أن يتـرك عملـه للصّـلاة علـى الجنـازة أو السَّـير فيهـا أو عيـادة المريـض أو حضـور شـهادة البَيْـع والنّـكاح، وربّمـا مـن هنـا جـاءت فكـرة عـدم قبـول شـهادة معلّـم الصّبيـان لا لنقـص فيـه، ولكـن لأنّـه مَنْهِـيٌّ عـن الانشـغال عـن التّعليـم وهـو واجبـه بأعمـال أُخـرى».

وسـنقع فـي كتـب الفقـه علـى فتـوًى غريبـة تتكـرّر فـي أكثـر مـن كتـاب، سـنراها عنـد الرّافعـي والنّـووي والحصنـي والزّيلعـي وغيرهـم وهـذا نصّهـا: «ولَـو قـال معلّـم الصّبيـان: اليهـود خَيْـرٌ من المسـلمين بكثيـر، لأنّهـم يقضون حقـوق معلِّمـي صبيانهـم كفـر»[١٠]، ولا يهمّنـا ههنـا مناقشـة هـذه الفتـوى بمقـدار مـا يهمّنـا البحـث فـي فَحْواهـا ومغزاهـا ودلالاتهـا، فهـي تقـول لنـا: إنّ بعـض المسـلمين كانـوا لا يُنصفـون المعلّميـن ولا يحترمونهـم ولا يوفـون باتّفاقاتهـم معهـم إلـى درجـة تُلجـئ المعلّميـن إلـى المقارنـة بينهـم وبيـن اليهـود، وتفضيلهـم معاملـة اليهـود لِمعلّمـي صبيانهـم علـى معاملـة المسـلمين إيّاهـم، ولَـو أنّ فقهيًّـا واحـدًا كان ذا بصيـرة فـي تعاملـه مـع هـذه الفتـوى لَكفّـر المماطـل المـُخلِف، ولَشـدّد لـه الوعيـد والتّحذيـر بـدلًا مـن أنْ يُوَجّـه التّكفيـر فـي هـذه الفتـوى للمعلّـم المسـكين المسـتكين، ولَحسـم هـذا القـول مـن أساسـه، ولَمـا جعـل المعلّـم يحتـاج إلـى هـذه المقارنـة الّتـي تَلْحَـفُ القلـبَ لا لِشـيء سـوى أنّهـا تُخبـر عـن وضعـه المُـزري الّـذي

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) أبـو زكريـا محيـي الدّيـن بـن شـرف النّـووي، **روضـة الطّالبيـن وعمـدة المفتيـن**، تحقيـق زهيـر الشّـاويش، المكتـب الإسـلامي، بيـروت، دمشـق، عمّـان، ١٩٩١، ط ١ ج. ١٠، ص. ٦٩.

يتلبّسه ويُحيق به، وفي هذا السّياق نقرأ القصّة التّالية الّتي تُساق للطُّرفة، لكنّها تحكي عدم وفاء الآباء مع المعلّمين، وانتقام المعلّمين منهم: «مررت بمعلّم وقد كتب لغلام (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه، يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك، فيَكيدوا لك كَيْدًا وأَكْيَد كَيْدًا فمهِّل الكافرين أَمهِلهم رُوَيدًا) فقلت له: وَيْحك فقد أَدخلت سورة في سورة، قال: نعم. إذا كان أَبوه يُدخل شهرًا في شَهر، فأَنا أَيضًا أُدخل سورةً في سورة فلا آخذ شيئًا ولا ابْنه يتعلّم شيئًا»(١١).

ويتلقّف التَّوحيدي ذلك الإرث التّندّري على المعلّمين من شيخه الجاحظ، ويُتحفنا بفكاهات وطُرَف تثبّت صورتهم الملطّخة، وتُعمّق وَسْمَهم المهزوز، وأَذكر من ذلك على سبيل المثال:

«كان معلّم يُقعِد أَبناء المياسير في الظّلّ وأَبناء الفقراء في الشّمس، ويقول: يا أَهل الجنّة ابزِقوا على أَهل النّار»(١٢)، و«جاءت امرأة إِلى معلّم تشكو ابنها، وكانت جميلة، فقال المعلّم للصّبيّ: مِثْلُ هذه الأُمّ يوحِشها إِنسانٌ فيُؤذيها، كان يجب عليك لَو كان لك عَقْلٌ أَن تلحس خراها كل يَوم طلبًا لرضاها»(١٣).

أَمّا الأَنكى من ذلك فصنيع الإمام ابن الجوزي الّذي كَتَب في جملة ما كَتَب مؤلَّفَيْن شديدَيِ الطّرافة والإمتاع، الأَوّل بعنوان: **الأَذكياء، والثّاني** بعنوان: **أَخبار الحَمقى والمغفّلين**.

والمُجحف في عمله أَنّه عَقَدَ فصلًا في كتابه الثّاني بعنوان: في ذِكْرِ المُغفّلين من المُعلّمين، وأَمسك عن ذِكْرِهم في كتابه الأَوّل الّذي طَفَح بذِكْر قصص أَذكياء السّلاطين والأُمراء والوزراء والعلماء والشّعراء والعُبّاد

(١١) ابن الجوزي، **أَخبار الحمقى والمغفّلين**، ص. ١٠١.

(١٢) أَبو حيّان علي بن العبّاس التّوحيدي، **البصائر والذّخائر**، تحقيق وداد القاضي، ١٩٨٨، ط. ١، ج. ٤، ص. ١٩٥.

(١٣) المصدر نفسه، ج. ٤، ص. ٦٩.

والزُّهّـاد والنّسـاء المُتفطّنـات وصـولًا إلـى عُقـلاء المجانيـن، غَيـر أَنّـه لـم يَجِدْ مُتّسـعًا ضِمْـن كلّ هـذه الأَبـواب ليَذكُـر المعلّميـن فـي ما يُعلـي مـن شـأنهم مقـدار قُلامَـة، ويُسـهم فـي رَفْعِ خسيسـتهم قَيْـدَ أُنْمُلـة.

إنّ مـا تقولـه لنـا هـذه الإشـارات المكثّفـة الّتـي أَتيْنـا علـى ذِكْرِهـا للتّـوّ: لا تنفعـك الخاصّـة إذا أَضْـرَرْتَ بالعامّـة، ولا ينفـع تعليـم المؤدّبيـن/ المـدارس الخاصّـة الدَّوليّـة مهمـا كان متقدّمًـا متطـوّرًا راقيًـا، إذا كان تعليـم العامّـة ضعيفًـا ومتخلّفًـا ومتهالـكًا.

الخاتمـــــــــة:
مسيرةٌ نحو التّسامح

لا شكّ في أنّني وُلدتُ متسامحًا، لكنّني نشأتُ متعصّبًا صارمًا عنيفًا، شأن كلّ مَولود يولَد لَدِنًا ليّنًا، سهلًا سَمْحًا، فأَبَواه أو معلّموه أو دينه أو إيديولوجيّته تجعله مُتعصّبًا مُتشدِّدًا عنيفًا، أو مُتشنّجًا مُتزمِّتًا مُقاضيًا، أو عَفُوًّا مُتغافِلًا مُتسامحًا.

وبالقياس إلى إنسان يمشي كحوض ضخم مُلِئَ بأَحكام التّقْييم وتصنيف البَشَر بناءً على مُعتقَداتهم، وأُتْرِع بالفَرَق من المُخالف من أفكارهم، يغدو التّسامح أمرًا عَسير المنال، ولا سيّما إذا كان يعيش في خلطة مُشوَّشة من مبدأَي الولاء والبراء والحبّ في الله والبُغض في الله، هذان المبدآن اللّذان يُصيبان أوّل ما يُصيبان الأقرب فالأَقرب، قَبْلَ الأَبعد فالأَبعد، ويجعلان المرء في تحفّز وتَوَفّز دائمَيْن لِسَفْحِ ذمّة المُخالف، وإراقة عِرْضه، والتّحذير من آفته، ويُلجئانه إلى مسالك لا يُفضي ضيقها إلّا إلى ضيق أكثر، ولا تؤدّي مساربها إلّا إلى مسالك تصطدم بتجلّطات التَّوَجُّس وتكلّسات الحذر فلا يكون أَمامها إلّا الانسداد أَوِ الارتِداد.

لقد كنتُ ذلك الإنسان في ناشئة أَمري، ولَكَمْ أَحْبَبْتُ في الله، وأَبغضتُ في الله، ولَكَمْ بادرتُ إلى التّصنيف وإلى الإدانة، فلا هَدَادَ في دين الله ولا استكانة.

هل يَحُقّ لي، وقد ذرّفتُ على الخمسين أن أَتحدّث عن تجربتي

الشّخصيّة الطّويلة المتراكمة في التّحوّل من شابٍّ يافع أُتْرِع حماسةً ونَزَقًا وتعصّبًا وشغفًا وَوَجْدًا، إلى رجل يسير باضطراد نحو الكهولة والرّحابة والتّسامح المَمزوجين سَكينَة وتَطامُنًا؟

بَعْدَ نجاحي في الصّف التّاسع بتفوّق دخلتُ إلى الثّانويّة الشّرعيّة الخسروية سنة ١٩٨٤، وكانت بالقِياس إليّ الجنّة الّتي أَحلُم بأَن تطأها قدماي. أَردتُ أَن أَدخُلها في الصّف السّابع، لكنّ والدتي منعتني من ذلك إشفاقًا على وحيدها من مصير ولَدَيْ أُختَيْها اللّذيْنِ اعتقلهما النّظام أوّلًا، ثمّ أَعدمَهما لاحقًا بحجّة انتمائهما للإخوان المسلمين.

لسبب ما، لا أدري ما هو، فُتنتُ، وأَنا في الصّف الأوّل الإعدادي بالمَوضوعات الّتي تُدرَّس في هذه الثّانوية، وبخاصّة حينما اطّلعت على كتاب الفقه الحنفيّ **الاختيار لتعليل المختار**، وقرأتُ فيه بحث الشُّفعة، ويا لَهَوْلِ هذه اللّغة والمصطلحات الغريبة على طفل في الصّف الأوّل الإعداديّ... وكان تحدّي امتلاك ناصية هذا النّصّ إحدى دوافعي في التّصميم على دخول هذه الثّانويّة حين يشتدّ عودي.

في الصّف العاشر امتلكتُ زِمام أَمري وقَوِيَتْ شَكيمَتي، فعاندتُ الوالدة، وسجّلتُ في الخسرويّة، وسرعان ما باركَتْ انتقالي أَمام عزمي وإصراري.

كان عالم الثّانويّة الشّرعيّة يذخر بالجُبَب والعمائم الّتي يلبسها ويعتمرها مشايخ من كلّ الأَعمار، بدءًا من الطّلّاب الُمعمَّمين، وانتهاءً بالمشايخ المدرِّسين الّذين تتجاوز أَعمار بعضهم السّبعين.

كانت محاسن هذه الثّانوية لا تُعَدّ، فهي الّتي خرّجت رجالات سوريا الأَفذاذ: معروف الدّواليبي ومصطفى الزّرقا وعبد الفتّاح أَبو غدة، وسواهم، غير أنّ بعض المساوئ كانت تتحاذى مع محاسنها، فقد ترافق طلب العِلم والبناء المعرفيّ الممتاز مع بناء التّعصّب والتّشكّك

والاتّهام، بل مع ارتشاف ذلك من جميع الجهات، فحيثما التفتَّ ثمّة حلمة تُلَقّمُك التّعصّب، وتَمُدّك بالقسوة في الاتّهام.

كلمات بسيطة قليلة. إشارات ولمحات مُقْتَضَبة كانت كفيلة بأَن تدمّر شخصًا وأَن تقضي عليه، أَو أَن تقذف به في قَفْرٍ وبَلْقَعٍ من النّفور منه والتّباعد عنه. يكفي أَن ينقل طالب عن أَحد الأَساتذة قوله: «انتبهوا من فلان، لديه آراء شاذّة» حتّى يفرّ الطّلّاب منه فرارهم من الأَسد. ويا لَهَوْل كلمة «آراء شاذّة» في ذلك العمر. كم كانت مُرعبة وذات دهاليز غامضة مُربكة تبعث على اتّخاذ كامل الحيطة والحذر لدى نُطقها وسماعها عن أَوّل وَهْلَة.

في تلك السّنة في الصّفّ العاشر درّسني مادّة الفقه الأَحْوال الشّخصيّة الشّيخ العلّامة الفقيه الحنفي محمد الملاح رحمه الله. قضيتُ الفصل الدّراسيّ الأَوّل وأَنا في تَوَجّس منه وحَذَر، لأَنّ أَحد أَساتذتنا رمى كلمة ومشى: «انتبِهوا منه لديه آراء شاذّة»!

فصلٌ دراسيّ كامل وأَنا مُنْتَبِه منه ومُترقّب ومُنتظِر أَن يدسّ السّمّ في العسل، من دون أَنْ أَعلم ماهيّة هذا السّمّ ولا حقيقته.

كان، رحمه الله، أُنموذج الشّيخ العالِم الفقيه الكلاسيكيّ المُمتلئ بالفقه وعلوم الآلة، وسرعان ما تفتّقتْ مَلَكَة التّمييز لديَّ للمقارنة بَينه وبَين بعض الأَساتذة الّذين تمتلئ دروسهم بالقصص والحكايات الشّخصيّة والعامّة، على خلاف هذا الشّيخ الّذي ينهمك وينهمر في مُقرَّره فلا يَحيد عنه إلى لَغْوٍ ومُباسطة وانتِشاء في سَرْدِ تجارب شخصيّة إلّا ما قلَّ وندر. وبدأتُ أَتلمّس روَيدًا روَيدًا الجَوانب الفريدة في هذه الشّخصيّة، وغَدَوْتُ من المقرَّبين منه. أَزوره في بيته، وأَحضر دروسه في الجامع الكبير بين صلاتَيِ المغرب والعشاء. وكان هذا أَوّل مسمار يُنتزَع من صندوق التّسليم بكلّ ما يُقال ويُتداوَل.

لكنّنا لم نكن نسير بصندوق واحد فقط، بل بصناديق متعدّدة مُحْكَمَة الإغلاق: صندوق التّعصّب. صندوق الاتّهام. صندوق الإقذاع البلاغيّ والشّتائم الأَدبيّة. وكنتُ، فيما بعد، بحاجة إلى نَزْعِ مساميرها وخَلْخَلَتِها وفَتْحِها وفضِّها جميعًا.

كان مَثَلَنا الأَعلى في الإنشاء والأَدب مصطفى صادق الرّافعي، وكان يُعلّمنا: فَلْنَتَعَصَّبْ. وكانت كِياناتُنا الصّغيرة تتشرّب هذه الدّعوات وتنفعل بها، وتتحوّل إلى مبادئ وقِيَم، تُخوِّلك أَن تتحدّى بها الكرة الأَرضيّة مجتمِعة بكلّ إباء وشَمَم. وكانت كتاباته زادَنا الأَوّل في إطلاق مَوجاتنا السّاخرة من الخصوم الحقيقيّين والمفترَضين، وكان معلّمنا في نَحْتِ العبارات التّحقيريّة الازدرائيّة، فكما أَنَّه سمّى طه حسين بطاحين، فنحن أَيضًا سنسمّي مُناوِئينا فاحين وماحين وما سواهما، وسنُشَبِّههم اقتداءً بالرّافعي بالذّباب تارة، وسنتوَسَّع في التّشبيهات تارة أُخرى لِبَقِيّة أَصناف الحيَوانات والحشرات والهَوام.

وزادَ من ضراوَتنا وحِدَّتنا تشبُّعنا بكتابات الشّيخ محمّد زاهد الكوثري ومقالاته الّتي قَصَّتْ مُفَصَّلًا معاركه مع السّلفيّة وجماعة أَنصار السّنّة المحمّديّة، وتحديدًا مع مؤسِّسها الشّيخ محمّد حامد الفقي. تلك المعارك الّتي بَرَعَ في إدارتها أَيّما براعة فتجاوَر فَيْضٌ دفّاق من المعلومات التّاريخيّة والعلميّة، وفَيْضٌ طافِح من السّخرية والهجاء والتَّوبيخ وشدّة الاتّهام، وكان كلّ ذلك يتجمّع في نفوسنا، ثمّ ينقِّر عن متنفَّس له وعَمَّنْ يُمكِن أَنْ يكون أَهْلًا لِشتائمنا واتّهاماتنا، ولَو على أَدنى شُبْهَة وأَوْهى سبب.

ثمّ أَمدَّتنا مُناوَشات الدّكتور محمّد سعيد رمضان البوطي ومحمّد عيد عباسي وناصر الدّين الأَلباني حول المذهبيّة واللّامذهبيّة بعُصارة جديدة من القحّة في جَزِّ الآخر المُخالِف جَزًّا، والجسارة في حزّه حزًّا،

فعَنْوَنْتُ أوّل كتاب فكّرتُ في كتابته **بسِهام المَنِيَّة في الرَّدِّ على ابن تيميّة**، وكانت دفاتري تمتلئ بهذا العنوان وبتفصيلات عناوين المُحتوى المُزْمَع كتابته، ولم يكن هذا العنوان اللّئيم العنيف بدعًا من العناوين، فقد كنتُ خارجًا للتّوِّ من قراءة تحقيق الشّيخ الكوثري لكتاب تقيّ الدّين السّبكي السَّيف الصّقيل في الرّدّ على ابن زفيل، والمقصود بِابْن زفيل ههنا ابن قيم الجوزيّة تلميذ ابن تيميّة.

تراث كامل يُذكي التّعصّب، ويُغذّي الشِّدّة والحِدّة، ويُنمّي الشَّنْع والقَذْع وعناوين كُتُبٍ مدجّجة: الصّارم المسلول على شاتم الرّسول، والصّارم المنكي في الرّدّ على السّبكي، والإعلان بالتَّوبيخ لِمَنْ ذمّ التّاريخ، والكاوي لدماغ السّخاوي، وصولًا إلى التّنكيل بما في تأنيب الكَوثري من الأَباطيل، وعلى السّفّود، وأَشعارٌ وأَقوالٌ تُمَجِّد التّمذْهُب، وتنتصر لإمامٍ بعَيْنه، كأَنّ الله لم يخلُق سواه، وتمنحه صفة العِصمة الّتي تُخوِّل صاحبها امتلاك الحقيقة الفقهيّة والعقديّة دون غَيره. يقول الإمام الحصكفي:

ولعنةُ ربّنا أَعدادَ رمل   على مَن ردَّ قَوْل أَبي حنيفة [1]

ويقول أَبو إِسماعيل الأَنصاري الهروي:

أَنا حَنْبَلِيّ ما حَييت وإِن أَمُت   فوَصيّتي للنّاس أَن يتحنبلوا[2]

ويقول بعض جُهلاء أَتباع الإمام مالك: لولا مالك لَكان الدّين هالك[3].

وأَمّا الجويني إِمام الحرمَيْن فيُوَبِّخ كلّ مَنْ لا يُقلِّد الشّافعي، ويقول:

---

(١) محمد بن إِسماعيل الأَمير الصّنعاني، **إرشاد النّقّاد إلى تَيسير الاجتهاد**، تحقيق صلاح الدّين مقبول أحمد، الدّار السّلفيّة، الكويت، ١٤٠٥، ط. ١، ص. ١٧.

(٢) شمس الدّين محمد بن أَحمد الذّهبي، **سِيَر أَعلام النّبلاء**، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦، ج. ١٤، ص. ٣٨.

(٣) مقبل بن هادي الوادعي، **نشر الصّحيفة في ذكر الصّحيح من أقوال أئمّة الجرح والتّعديل في أبي حنيفة**، دار الحرمَيْن، القاهرة، ص. ١٦.

«نحـن ندّعـي أَنّـه يجـب علـى كافّـة العاقليـن وعامّـة المسـلمين شـرقًا وغربًـا بُعْـدًا وقُرْبًـا انتحـالُ مذهـب الشّـافعي ويجـب علـى العَـوام الطّغـام والجهّـال الأَنـذال أَيضًـا انتحـال مذهبـه بحيـث لا يَبغـون عنـه حَـوْلًا ولا يُريـدون بـه بـدَلًا»(٤).

لقـد سِـرْنا فـي حقـول أَلغـام مـن اللّعنـات والهـلاك والتَّوبيـخ والتّنكيـل كانت تنفجـر فـي نفوسـنا وأَرْواحنـا وعقولنـا آنًـا بَعْـدَ آن، ومـا كنّـا نتلقّـى البلسـم والضّمـاد والسّـكينة إلّا مـن خـلال الاتّجـاه الصّوفـي العـامّ الّـذي كان يسَـيطر علـى أَجوائنـا. كنـتُ مـن مُنْتَسِـبي الطّريقـة الرّفاعيّـة أَلتـزم أَوْرادهـا، وأَنتمـي لِسلسـلتها، وكنـتُ مـن المُفْتَتَنيـن بالتّـراث النّثـريّ والشِّـعريّ للإمـام الـرّواس والشّـيخ أَبـي الهـدى الصّيـادي المطبـوع فـي نهايـة أَيّـام الدَّولـة العثمانيّـة فـي الآسـتانة، وكان هـذا التّـراث الّـذي لملمـتُ كُتُبَـه مـن مكتبـات حلـب: الزّيتونـي والقطّـان والمقيّـد والجزماتـي والطّعمـة يمدّنـي بتيّـار وجدانـيٍّ عـالٍ، وبنَغَـمٍ روحانـيٍّ مُشـرق، فيُعيـد إلى نفسـي شـيئًا مـن التّـوازن، ويُقصي عنهـا القعقعـة والصّليـل والشّخشـخة، وعلـى خـلاف كُتُـب الحِجـاج والـرّدود كانـت عناويـن كُتبهـم، شـأن عناويـن كُتـب التّصـوف، مزركشـة بالأَنـوار والحدائـق والرّيـاض والأَزهـار والرّياحيـن والطّيـور والبلابـل والفيوضـات والقلائـد والجواهـر: الـرَّوض البسـيم، حديقـة المعانـي فـي حقيقـة الرّحـم الإنسـانيّ، برقمـة البلبـل، بـوارق الحقائـق، قـلادة الجَواهـر، صَـوْت الهـزار، عقـود الأَلمـاس فـي منهـج الـرّواس، رفـرف العنايـة، الـدّرّ المنتظـم، أَزهـار الحقيقـة. إلـخ إلـخ. لقـد كنـتُ بحـقّ بَيـن تـراث الـرّدود والحِجَـاج وتـراث التّصـوّف والعرفـان كتلـك الطّائـرة الّتـي ينحـرف أَحـد جناحَيْهـا بهـا إلـى الأَسـفل والثّانـي إلـى الأَعلـى.

كانـت فتـرة المرحلـة الثّانويّـة الشّـرعيّة فتـرة التّلقّـي والتّكديـس، وعلـى

(٤) **إرشاد النّقّاد إلى تيسير الاجتهاد**، ص. ١٧.

الرّغـم مـن أنّ الله حَبانـا فيهـا بمحمـود عـكام المديـر الشّـابّ القـادم للتّـوّ مـن السّـوربون حامـلًا الدّكتـوراه منهـا، والسّـاعي لتخفيـف غَلْوائنـا وغلـواء كلّ المنـاخ المحيـط بنـا، فإنّنـا كنّـا نسـارع إلـى اسـتخدام الرّواسـم ودَمْـغِ الشّـخصيّات والأَفـكار بالأَحـكام الصّارمـة الجاهـزة المُبرمـة. لـم يَشُـذَّ عـن هـذا كبـار الشّـخصيّات المؤسِّـسـة للنّهضـة العربيّـة، سـواء كانـوا مـن الاتّجـاه المُحافـظ كالأفغانـي ومحمـد عبـده ومحمـد كـرد علـي، أَو مـن الاتّجـاه اللّيبرالـيّ كَفـرح أَنطـون وطـه حسـين وسـلامة موسـى.

لقـد كنّـا نعـرف جميـع هـذه الأَسـماء، ونعـرف شـيئًا مـن أَفكارهـم مـن خـلال الـرّدود عليهـم وتسـفيههم ورَمْيِهـم بـكلّ منجنيـق أَو مدفَـع أَو مـا سـوى ذلـك ممّـا يقـع تحـت أَيـدي مُناوئيهـم، ويأتـي علـى رأس المُناوئيـن محمـد محمـد حسـين الّـذي حَشـانا بِضيـق أُفُقِـه مـن خـلال كتابـه الّـذي فُتِنّـا بـه فـي تلـك الآونـة **الاتّجاهـات الوطنيّـة فـي الأَدب المعاصـر**، ثـمّ يَليـه كاتبنـا الأَثيـر الدّكتـور محمـد سـعيد رمضـان البوطـي عـدوُّ كلِّ صَـوْتٍ نهضَـويٍّ مـرّ علـى أُمّتنـا فـي تاريخنـا الحديـث والمعاصـر.

وجـاءت المرحلـة الجامعيّـة لتكـون فتـرة موازنـة ومقارنـة وفَـرْزٍ وإِعـادة تصنيـف. فتـرة معرفـة الشّـخصيّات والأَفـكار مـن منابعهـا ومصادرهـا، وعلـى لسـان أَهلهـا وأَربابهـا، وليـس علـى لسـان مُناوئيهـم وأَعدائهـم.

ابتـدأتُ مـع ابـن تيميّـة الّـذي راعَنـي فيـه ذلـك العقـل النّقـديّ الهائـل الّـذي تمتّـع بـه، مـن خـلال نقـده المنطـق الأَرسـطيّ نقـدًا قائمًـا علـى معرفـة تامّـة بالموضـوع، مـع تقديـم حلـول وبدائـل ذكيّـة، خِلافًـا لِنَقْـدِ ابـن الصّـلاح والسّـيوطي اللّذَيْـن اكتفَيـا بالتّحريـم ولـم يقتربـا مـن هـذا الفـنّ لا مـن قريـب ولا مـن بعيـد. لقـد وضعَنـا علـي سـامي النّشّـار فـي كتابـه **مناهـج البحـث عنـد مفكّـري الإِسـلام** علـى جـادّة معرفـة ابـن تيميّـة فـي جانـب كان خَفِيًّـا عنّـا، وأَبـرزَه لنـا فـي كامـل حيَوِيّتـه الذّهنيّـة وجَبَروتـه العقلـيّ،

فدفعَنا إِلى العودة إلى تراثه واستكشاف المحيط الواسع الدّافق الّذي رسمه بمؤلَّفاته الكثيرة المتنوّعة. كان هذا الاطّلاع كفيلًا بأَن أَكْسِر سِهامي الّتي أَرصدتها لابن تيميّة، وأَن أَستغفر الله من وِبال الجهل، والاسترسال بالخَطَل.

كانت خطّتي أَن أَقرأ المؤلَّفات الكاملة لكلّ شخصيّة شغلَتْني في الماضي، وأَلّا أُوَكّل، من الآن فصاعدًا، أَحدًا غَيري في إعطاء الحُكْم عليها وتصنيفها، فقد كان لديَّ من الجرأة والشّجاعة ما يُخوّلني أَن أَستقلَّ برأيي تمام الاستقلال، وأَن أبنيه بوَسائلي وعَيْنَيَّ لا بوَسائل الآخرين ولا بأَعيُنهم. وكأَنَّني أَدركتُ مَقولة شمس التّبريزي في مقالاته قَبْلَ أَن أَقرأَها بسنَوات وسنَوات: «كلّ فساد وَقَعَ في العالَم، فإِنّ مبعثه اعتقاد إِنسان بإِنسان بطريق التّقليد، وإِنكار إِنسان على إِنسان بطريق التّقليد».

كانت تلك الفترة زمن اكتشافات زَيْفِ الصُّوَر السّابقة المرسومة الّتي تلقّيْناها بالتّقليد والتّسليم، فملأَتْنا حنقًا وغَيْظًا، وكان ذلك أولى درجات الصّعود في مَرقاة التّسامح الّتي كانت تمتدّ وترتفع بي كلّما تقدّمتْ بي التّجارب والخُبُرات.

في الصّباح داوَمْتُ في كلّيّة الشّريعة وعَبَبْتُ من نهر القدس ومكّة والمدينة، وبعد الظّهر داوَمْتُ في المكتبة الوطنيّة فارتشفتُ من نهر أَثينا وباريس ولندن. في الصّباح خالطتُ الدّريني والبوطي والزّحيلي والسّلقيني والعتر، وبعد الظّهر مازجتُ فوكو وول ديورانت وراسل وأركون والجابري وعبد الرّحمن بدوي وجميل صليبا وعادل العوا وبديع الكسم، وفي البيت ترنّمتُ بأَشعار أَهل الذَّوق والوَجْد واستجمَمْتُ بأَسمارهم وأَخبارهم.

بدأتْ بِذْرَة القُدرة الانفتاحيّة والتّسامحيّة تنمو روَيدًا روَيدًا، لِتُتيح لي البدء بصفحة جديدة. هذا البدء الّذي تكرّر في كلّ مرّة شعرتُ

فيها أَنّني ما زِلْتُ ملطّخًا بآثار الآباء والمعلّمين والدّين والإيديولوجيا. الإيديولوجيا ههنا هي لاهوت التّحرير الّذي كنّا نتتبّع أَخباره وقصصه من أميركا اللّاتينيّة، والّذي كان يُتيح للمُتديّن أَن يكون يساريًّا على نَحْوٍ ما، وكان حسن حنفي أَحد أَهمّ نَوافذنا عليه.

حُف التّسامح بالامتحان والمُعضلات

في بؤرة تلك الصّفحة الجديدة وقعْنا في امتحان عمليّ صارخ وهو قضيّة سلمان رشدي. كان اختبارًا حقيقيًّا لمدى تطوّر وَعْينا وارتقائنا، ولكنّنا سقطْنا فيه سقوطًا مُريعًا، فقد ناصرْنا فيه فتوى الإمام الخُمَيْني الدّمويّة الرّهيبة، ووقفْنا في صفّ مصطفى طلاس الّذي انتهزَها فرصةً لِيَرُدَّ على صادق جلال العظم. وسوف أَسقط أَيضًا مرّة أُخرى في سنة ١٩٩٢ يَوم حزنتُ على مقتل فرج فودة حزنًا صُوَرِيًّا، وسوّغتُ لقاتله المجرم، تأثّرًا بتسويغ الشّيخ الغزالي. لقد كنّا، وربّما ما زلنا، خلطة عجيبة غريبة من التّناقض الظّاهريّ والتّشوّش الباطنيّ على حدٍّ سواء. كنتُ من أَنصار أَبي تمّام القائل: السّيف أَصدق إنباءً من الكُتُب، وكنتُ أَقرأ عن غاندي، وحركته، وعن عبد الغفّار خان وجَيشه، وأَحضُر بعض لقاءات الأُستاذ جَودت سعيد المهمومة بقضيّة واحدة هي شرح مضار العنف، والتبشير بعالم يترفّع عنه، غير أنّ ذلك كلّه لم يكن يؤثّر بي، فقد كان قلبي صخرة صلداء لا تتشرب قطرات هذه الدعوة، ملساء، تستقرّ عليها أَفكاره بتاتًا. هذه الأَفكار الّتي لا تُبنى بالحجّة والبَيان والبرهان فقط، ولكن تنبثق من التّفاعلات الذّاتيّة للإنسان الّتي تحدِّد مدى نُضجه واختِماره وأَهليّته لتلقّيها وفهمها وتحمّلها.

كان أَهمّ وسائل إنتاج التّسامح، وأَوْثق بُناته، الأَدب والفلسفة والتّصوّف. أَمّا الأَدب فكانت رِوايةٌ واحدةٌ من رِواياته قَمينَةً بأَن تُسهِم في

صِياغة عالَمي الدّاخليّ صِياغة جديدة، وتُحكِم بناءه بطريقة تؤثِّر في توَجّهي الفكريّ، وتأهيل ذائقتي الفهميّة، فمنذ قراءتي رواية **الأبله** لدوستويفسكي ظلَلْتُ أتساءل: هل يمكن لقارئها أن يُفلِت من قبضة شخصيّة بطلها الأمير ميشكين؟ هذا الشّابّ الّذي جعل وُكْدَه أن يكون مصدر سعادة لأعدائه وأَصدقائه على حدٍّ سواء، بِطيبَتِه الّتي لا تعرف أَيّ شكل من أَشكال الخُبث، وبساطته الّتي تتجاوز كلّ أَصناف التّكلّف، وبروحه الّتي شُبِّهَتْ دائمًا بأَنّها روح المسيح في تجلّيها الرّوسيّ. بَعْدَ هذه الرّواية بدأتُ أَتذوَّق معنى اللّاعنف وَجَدْواه، بل وأَستَوعب ضرورته وآكديّته.

أَمّا الفلسفة فعلّمتني أَنّ الإيمان والإِلحاد لَيْسا أَفعالًا تحكّميّة، فأنتَ تؤمن لأَنّك تمتلك أَسبابًا دامغة تَدفعك لكي تؤمن، فتمتلئ نفسك باليقين وتفيض به، فلا يسَعُك أَن تُلحِد، ولا تُطيق أَن تُلحِد، فالإيمان بهذا بدلًا من ذاك يتضمّن أَسبابًا موجِبة، وإِلّا كان الإيمان عَبَثًا خالصًا، أَوَ لَمْ يَقُلْ توما الإِكويني: «ما كان لأَحدٍ أَن يؤمِن من دون أَن يرى أَنّه يجب أَن يؤمن». وأَنتَ تُلحِد لأَنّك تستند، من وجهة نظرك، إِلى «وقائع مُثبتة، ومبادئ صادقة» تَفْقِد بموجبها أَسباب الإيمان، فتُستنفَد الطّاقة الرّوحيّة فيك، وتتلاشى القدرة على الإيمان لدَيْك، ولا يعود في وسعك أَن تؤمن، ولا تُطيق أَن تؤمن.

وعلّمتْني أَيضًا أَنّه لا أَهميّة لكَوْن البرهان يستند على العقل، أَو على التّجربة أَو على الشّهادة، وهذا ما يُتيح لنا تقريب الحقيقة الدّينيّة من الحقيقة الفلسفيّة، وأَنّه بإِمكان الفلسفة أَن تنظر إِلى الدّين، من دون أَن تتعرّض لِواقعة الوَحْيِ بأَيّة مناقشة، على أَنّه نَسَق من الحقائق الّتي تبرهن وتثبت ويترابط بعضها ببعضها الآخر ترابطًا مقبولًا، وعلى أَنّه

يتضمّن بُنْيَة فلسفيّة باعتباره يتمركز حَول معنى الوجود، ومبدأ العالم وغائيّته، ومعنى الوجود الإنسانيّ، ومثاله الأعلى ومصيره. وبذلك كانت الفلسفة تمدّ جسورًا من أَجل أَن يتفهّم الأَطراف المتقابلة مواقفهم ومسوّغاتها، وهذا هو حَجَر الزّاوية في بناء التّسامح.

تابعتُ صعودي للخروج من الوَهْدَة العميقة الّتي كنّا ننغرز فيها. كان رائدي في ذلك الصّعود قول شَيخنا الجاحظ: «الأدب عقل غيرك تزيده في عقلك»[٥]، من أَجل ذلك بحثت عن روّاد التّسامح، وفتّشت عنهم، لأَستصبح بهم وأَستهدي، وكان أَصحاب نزعة التّنوير الّذين مهّدوا للثَّورة الفرنسيّة روّادًا حقيقيّين لالتّسامح، لتأصيله، وتأطيره، والتّحمّس له. وإِقامة الحُجَج والبراهين الدّاعمة له. صعدتُ برفقتهم، وصعدتْ معي الأسئلة أَيضًا، فقد ولّى زمن التّسليم وحلَّ زمن المحاكمة.

كنتُ أُنْشُد التّسامح في صيغته الأَصفى والأَعلى، ولذلك وجدتُ تسامح هؤلاء الرّوّاد مثلوم الفضيلة، فهذا التّحمّس للتّسامح لم يكن نابعًا إِلّا من حالة الإِلحاد الّتي أَعلنها ديدرو صاحب الإنسكلوبيديا، أَو من حالة الشّكّ الّتي لازمت بيير بيل صاحب معجم تاريخيّ نقديّ، أَو من حالة النّزعة الدّينيّة غير المرتبطة بدين الّتي عاشها فولتير صاحب رسالة عن التّسامح، ففي حالة الإِلحاد الّذي ما عاد يعني له الدّين شيئًا نشأ التّسامح الدّينيّ عن عدم الاكتراث، وفي حالة الشّكّ انبعثَتِ الدّعوَة إِلى التّسامح المُطلق من حالة اللّايَقين المُطلق.

لقد كان هذا التّسامح الّذي هو قفزة هائلة في تاريخ البشريّة، في رأيي، ناقصًا، فجون لوك داعيَة التّسامح العنيد استثنى من تسامحه فئتَيْن: الكاثوليكيّين، والملاحدة، أَمّا بقيّة الرّوّاد ممَّنْ أَتيْنا على ذكرهم

---

(٥) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **رسائل الجاحظ**، تحقيق عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤، ط. ١، ج. ٤، ص. ٧٣.

فقد سَهُلَ عليهم أَن يتسامحوا دينيًّا، ولكن صَعُبَ عليهم أَن يتسامحوا سياسيًّا، لذلك رأيْنا ديدرو يقول: «لن يتحرَّر النّاس إطلاقًا إلى أَن يُشنَق آخر ملك بمَصارين آخر قسّيس»[٦]. لكنّ هذه الملاحظات لم تكن لِتَنفي، لديّ، أَهميّة المَهَمّة الباسلة الّتي نذروا أَنفسهم لها في إيقاف مدّ التّعصّب الدّينيّ العنيف الّذي كان أَشدّ ضراوة وفداحة من اللّاتسامح السّياسيّ، وأَكثر إسالة للدّماء منه، حيث كان ضحايا التّعصّب الدّينيّ أَكثر بأَضعاف مُضاعفة من ضحايا روبسبير الرّسول المرعب للعدالة السّياسيّة.

كان المهمّ بالنّسبة إليّ أَن أَبْنِيَ التّسامح الحقيقيّ مع ما يُكْرِثُني ويَعنيني ويهمّني! أَنْ أَعيش تسامحًا صعبًا مستصعبًا خاليًا من الشَّقّ والشَّنق، ومن الأمعاء والمصارين، وأَنْ أُكابده مكابدةً إلى أَن يغدو سهلًا مُستسهَلًا، مُوَطَّأ الأَكناف، ينبع من حالة اليقين لا من حالة الشّكّ، وينبعث من الإيمان، ولا يَجِدُ غضاضةً في قبول عدم الإيمان. أَن أَكون كذلك من دون أَن أَفقِد ماهيّتي وذاتيّتي كما قال هوستن سميث: «العقل المُنفتِح شَيء جيّد بشرط أَلّا يبلغ بانفتاحه حدّ فقدان مفاصل الباب نهائيًّا». حقًّا إنّها مُعضلة حقيقيّة. أَن يكون تسامحك شاملًا، وأَلّا تَفقِد مفاصل الباب نهائيًّا.

كان التّصوّف معلِّمًا عظيمًا، لأَنّه يرتقي بك إلى حدودٍ أَوْسع وأَرْقى وأَنْقى التّصوّف الّذي يقول لك:

«يا مَنْ يطعن الهندوسيّ في صَنَمِه عليك أَن تتعلّم منه الإخلاص في العبادة» فيتجاوز في تسامحه حدود المعقوليّة، فلا يدعو لمجرّد

---

(٦) ول ديورانت، **قصّة الفلسفة**، ترجمة فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ص. ٢٨٩.

قبـول الآخـر المختلـف، بـل للاسـتفادة مـن كلّ بارقـة خَيْـرٍ قـد تلـوح منـه، والتّلمـذة عليهـا بصـدق.

لقـد كنـتُ أَرى فـي مواقـف أَئمّـة نزعـة التّنويـر الأوروبـيّ شَـميمًا مـن تلـك الـرّوح الصّوفيّـة، وروحًـا مـن روحـه، ولكـنّ التّصـوّف كان يَعِدُنـي بمـا هـو أَعمـق وأَشـمل.

يخبرنـا التّصـوّف علـى لسـان مولانـا الرّومـي: «لقـد نظـر آدم ذات مـرّة إلـى إِبليـس بعَيْـن الاحتقـار والاسـتصغار. لقـد قـام بالعجـب، وكان مفضّـلًا لذاتـه، وضحـك سـاخرًا مـن فعـل إِبليـس اللّعيـن، فصاحـت غيـرة الحـقّ قائلـة: أَيّهـا الصّفـيّ إِنّـك لا تعلـم شـيئًا عـن الأَسـرار الخفيّـة»(٧).

وينبِّهنـا إِلـى أَنّ «أولئـك الّذيـن قالـوا بالاثنَيْـن والثّلاثـة ومـا فـوق ذلـك متّفقـون يقينًـا علـى الواحـد»(٨).

أَمّـا مهـدي الدّيـن الـرواس فيسـمع برقمـة بُلْبُلَيْـنِ بجانـب الكعبـة يقـول أَحدهمـا للآخـر: «آه يـا عبـد اللـه! عالَـم البشـر عالَـم عظيـم! إِنّـي لا أَحتقـر ذرّةً آدميّـة عظمـتْ أَم حقـرتْ، لأَنّ طـيّ التّكرمـة يُمكـن أَن يكـون مُشـتملًا علـى نَشْـرٍ فـي تلـك الـذّرّة الّتـي يحتقرهـا الشّـخص. الجـزء المظلـم يُحتـرَم لأَجـل الـكلّ المُنيـر، وكَـوْن وُلـوج نـور الـكلّ فـي الجـزء مـن الممكـن، والعاقبـة مجهولـة، فعَلَـيَّ وعليـك أَن نتـأدّب مـع النَّـوْع الإِنسـانيّ، بـل علـى النَّـوْع الإِنسـانيّ أَيضًـا أَن يتـأدّب كلّ فَـرْدٍ منـه مـع بقيّـة أفـراد نَوْعـه: قـلّ أَو جـلّ، شـكر أو كفـر»(٩).

يتجـاوز التّصـوّف معضلـة شـمول التّسـامح وعـدم فقـدان مفاصـل البـاب

(٧) جـلال الدّيـن الرّومـي، **مثنـوي**، ترجمـة إِبراهيـم دسـوقي شـتا، المجلـس الأَعلـى للثّقافـة، القاهـر، ١٩٩٦، ج. ١، ص. ٣٤٢.

(٨) المصدر نفسه، ج. ٢، ص. ٥٠.

(٩) محمـد مهـدي آل خـزام الصّيـادي الـرّواس، **برقمـة البلبـل**، تحقيـق عبـد الحكيـم بـن سـليم عبـد الباسـط، ص. ٧٢.

نهائيًّا من خلال مراعاته ثنائيّة الظّاهر و الباطن، واعتبارهما معًا، والتّأكيد عليهما معًا. فأئمّة التّصوّف من أّهل الباطن يُعيدون ويَصقلون: «طريقنا مبنيّة على الشّرع». أَيْ: على الظّاهر، ذلك أَنّهم يَرَون أَنّ للدّين جانبَيْن متّصلَيْن اتّصالًا وثيقًا يجعل منهما مظهرَيْن لشَيء واحد، أَحدهما خارجيّ يُطلَق عليه اسم الظّاهر أَو الشّريعة الّتي هي قاعدة للسّلوك، والآخر داخليّ يُطلَق عليه اسم الباطن أَو الحقيقة الّتي هي المعرفة المحضة، والّتي تُعطي الشّرع معناه السّامي العميق، بل وتُسوِّغ وجوده.

إذا نظرْنا إلى الأَديان من فوق في مستواها الظّاهريّ فسنرى بحارًا مختلفة بتسميات مختلفة، وسنرى حواجز بَيْنها، ومدًّا وجَزْرًا، وأَمْواجًا واضطرابًا، ولكن إذا غُصْنا إلى العمق في مستوى الباطن فسنجد أَنّها متّصلة ممتزجة، وأَنّها بحر محيط واحد. إنّها الميتافيزيقيا الواحدة الّتي تجمع في العمق البحار جميعًا. فمجموعة النُّظُم العقديّة والدّينيّة الأَصليّة الّتي وإن بَدَتْ متباينة ومختلفة في ظاهرها فهي في الباطن تقود إلى الغايات والأَهداف ذاتها إذا ما تمثّلناها حتّى النّهاية، لأَنّ الميتافيزيقيا الحقيقيّة، كما في التّعليم الباطنيّ الصّوفيّ، ليست مسيحيَّة أَو إسلاميَّة أَو هندوسيَّة أَو بوذيَّة أَو غَيرها. إنّها واحدة بِوَحْدَةِ مصدرها، ولكنّها تُعرَض وتُقدَّم في أَشكال مختلفة في الأَنماط الدّينيّة باعتبارها وُجوهًا مختلفة للحقيقة الواحدة.

يقول مَولانا:

«الحقيقة مرآة إلهيّة | تحطّمتْ بنُزولها إلى الأَرض | ونال كلّ إنسان منها شظيّة | ورَغم ذلك يُؤمّل كلّ امرئ أَنّه حاز الحقيقة كاملة | حين ينظر إلى الشّظيّة الّتي استقرّت في يده»(١٠).

---

(١٠) جلال الدّين الرّومي، **٣٦٥ حكمة مختارة كلّ يوم**، انتقاها وعرّبها عبد الرّحمن أبو ذكري، تنوير للنّشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٢١، ط. ٣، ص. ٣٦.

الظّاهـر هـو الشّـطيّة الّتـي لا تشـهد إلّا نفسـها، وتتصـوّر أنّهـا تمتلـك الحقيقة المُطلقـة، وأنّهـا المـرآة كلّهـا، وهـذا مـا يُعطـي الظّاهـر اقتناعًـا بـأنّ الصّـواب إلـى جانبـه، ويُولّـد لديـه شـعورًا بالرّاحـة، ولكنّـه فـي المقابـل يُصبح مَظَنّـة للدّوغمائيّـة والتّعصّـب، ويُمسـي حالـةً مـن حـالات المحافظـة. أمّـا الباطـن فيَـرى الحقيقـة مبثوثـة واسـعة ممتـدّة، لا تُحتكَـر لجهـة واحـدة، ولا تُطـوّب باسـم أحـد، فتُولّـد هـذه الرّؤيـة سـعةً وتسـامحًا وانفتاحًـا ذهنيًّـا وحالـة ليبراليّـة، لكـنّ هـذا الانفتـاح يحتـاج أيضًـا إلـى حـدٍّ يقـف عنـده، وإلّا فَقَـدَ معنـاه وسُـلِبَتْ فضيلتـه، لأنّـه يغـدو، إذا انزلـق إلـى مـا لا نهايـة، أقـرب إلـى العدميّـة ومـن هنـا قلْنـا: إنّ التّصـوّف يتجـاوز مُعضلـة تثبيـت التّسـامح مـع عـدم فقـدان مفاصـل البـاب نهائيًّـا بكَوْنـه حصيلـة جَـداء الظّاهـر والباطـن، أو المحافظـة واللّيبراليّـة، بحَيْـث يُعـدّل كلّ منهمـا الآخـر، ويخفّـف مـن غلوائـه وتطرّفـه، ويجمـع حسـناته وفضائلـه.

إيصاد

تقـوم درامـا الوجـود الإنسـانيّ علـى ثنائيّـات متقابلـة منهـا: العنـف والسّـلام، والتّعصّـب والتّسـامح، وفـي كلّ حقبـة تاريخيّـة يعـود العنـف والتّعصّـب بشـكل مـن الأشـكال، ويتجـدّدان ويتمظهـران مـن خـلال مهووسـين بالـذّات أُحاديّيـن، يتجاسـرون علـى اعتبـار حقيقتهـم الدّينيّـة أو السّياسـيّة هـي الوحيـدة القابلـة للحيـاة، واعتبـار إرادتهـم المُنفـردة هـي الجديـرة بتحريـك العالـم وفكرتهـم هـي الوحيـدة الّتـي تبنيـه، لـذا كان علـى رجـال الفكـر والأدب والقلَـم تَبْيـان تفاهتهـم بهَتْـكِ وَقارهـم، وكَشْـفِ جُرمهـم بفضـح ممارسـاتهم، ومقارعتهـم بالدّعـوة إلـى الحرّيّـة، ومناجزتهـم بالتّبشـير بالسّـلام والتّسـامح، وبتأصيـل ذلـك بالحُجّـة، وتدعيمـه بالبرهـان المـرّة تِلْـوَ المـرّة، مـن دون تـراخٍ ولا تَـوانٍ ولا فشـلٍ ولا ملَـلٍ، وإنّ اللـه لا يَمَـلّ حتّـى تَمَلّـوا.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

المراجع والمصادر باللّغة العربيّة:

ابن العربي المالكي، محمد بن عبد الله، **أحكام القرآن**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٣، ط. ٣.

ابن العربي المالكي، أبو بكر محمد بن عبد الله، **العواصم من القواصم في**، تحقيق مواقف **الصّحابة بعد وفاة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم**، تحقيق محب الدين الخطيب، وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، الرّياض، ١٤١٩ هـ، ط. ١.

ابن حنبل، أحمد بن محمد، **مسند الإمام أحمد**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسّسة الرّسالة، سنّ الفيل، بيروت، ٢٠٠١، ط. ١.

ابن جرير الطّبري، **جامع البّيان في تأويل القرآن**، تحقيق الدّكتور عبد الله بن عبد المحسن التّركي بالتّعاون مع مركز البحوث والدّراسات الإسلاميّة، الدّكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر، القاهرة، ٢٠٠١، ط. ١.

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرّحمن بن محمد، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر**، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨، ط. ٢.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرّحمن بن علي بن محمد، **أخبار الحمقى والمغفّلين**، تحقيق عبد الأمير مهنّا، دار الفكر اللّبناني، بيروت، ٩٩٠١، ط. ١.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرّحمن بن علي، **تلبيس إبليس**، دار الفكر للطّباعة والنّشر، بيروت، ٢٠٠١، ط. ١.

ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرّحمن، **أدب المفتي والمستفتي**، تحقيق د. موفق عبد الله عبد القادر، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنوّرة، ٢٠٠٢، ط. ٢.

ابن عاشور، محمد الطّاهر، **تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير القرآن المجيد**، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، ١٩٨٤.

ابـن عبـد البـرّ، أَبـو عمـر يوسـف بـن عبـد اللـه، **جامـع بيـان العلـم وفضلـه**، تحقيـق أَبـو الأَشـبال الزّهيـري، دار ابـن الجـوزي، السّـعوديّة، ١٩٩٤، ط. ١.

ابـن عبـد البـر، أَبـو عمـر يوسـف بـن عبـد اللـه، **الاسـتيعاب فـي معرفـة الأَصحـاب**، تحقيـق علـي محمـد البجـاوي، دار الجيـل، بيـروت، ١٩٩٢، ط. ١.

ابـن عربـي، محيـي الديـن، **الفتوحـات المكّيّـة**، صحّحـه محمـد شـهاب الديـن، القاهـرة مطبعـة بـولاق المحروسـة، ١٢٦٩.

ابـن قيـم الجوزيـة، محمـد بـن أَبـي بكـر بـن أيـوب، **إعـلام الموقعيـن عـن ربّ العالميـن**، تحقيـق محمـد عبـد السّـلام إبراهيـم دار الكتـب العلميّـة، بيـروت، ١٩٩١، ط. ١.

ابـن قيـم الجوزيـة، محمـد بـن أَبـي بكـر بـن أَيـوب، **المنـار المنيـف فـي الصّحيـح والضّعيـف**، تحقيـق عبـد الفتّـاح أبـو غـدة، مكتبـة المطبوعـات الإِسـلاميّة،حلب، ١٩٧٠، ط. ١.

ابن منظور، أَبو الفضل محمد بن مكرم، **لسان العرب**، بيروت دار صادر، ١٤١٤ هـ ط. ٣.

ابن نبي، مالك، **مجالس دمشق**، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٥، ط. ١.

ابن نبي، مالك، **مشكلة الثّقافة**، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤، ط. ٤.

ابـن الوزيـر، محمـد بـن إبراهيـم، العواصـم والقواصـم، تحقيـق شـعيب الأَرناؤوط، مؤسّسـة الرّسـالة، بيـروت، ١٩٩٤، ط. ١.

أَبـو حيّـان التّوحيـدي، **الإشـارات الإلهيّـة**، تحقيـق عبـد الرحمـن بـدوي، مطبعـة جامعـة فـؤاد الأول، القاهـرة، ١٩٥٠، ط. ١.

أَبـو ذكـري، عبـد الرحمـن، **٣٦٥ حكمـة مختـارة كلّ يـوم**، تنويـر للنّشـر والإِعـلام، القاهـرة، ٢٠٢١، ط. ٣.

أَبـو غـدة، حسـن عبـد الغنـي، «المـزاح فـي الإِسـلام، سلسـلة دعـوة الحـقّ»، رابطـة العالَـم الإِسـلاميّ، السّـنة الثّالثـة والعشـرون، العـدد ٢١٦، العـام ١٤٢٧ هـ.

الأَشقر، عمر سليمان، **عجائب صنع الله**، تصميم وإِخراج موقع معرفة الله، بدون تاريخ.

الأَصبهانـي، أَبـو نعيـم أَحمـد بـن عبـد اللـه، **دلائـل النّبـوّة**، تحقيـق محمـد رواس قلعـه جـي وعبـد البـر عبـاس، دار النّفائـس، بيـروت، ١٩٨٦، ط. ٢.

الأَصبهانـي، أَبـو نعيـم أحمـد بـن عبـد اللـه، **حليـة الأَوليـاء وطبقـات الأَصفيـاء**، مطبعـة السّـعادة، القاهـرة، ١٩٧٤.

الأَصبهانـي، أَبـو نعيـم أحمـد بـن عبـد اللـه، **معرفـة الصّحابـة**، تحقيـق عـادل العـزازي، دار الوطـن للنّشـر، الرّيـاض، ١٩٩٨، ط. ١.

إقبـال، محمـد، **تطـوّر الفكـر الفلسـفيّ فـي إيـران إسـهام فـي تاريـخ الفلسـفة الإِسـلاميّة**، ترجمـة أ. د. حسـن محمـود الشّـافعي و أ. د محمـد السّـعيد جمـال الديـن، الـدّار الفنّيّـة للنّشـر والتّوزيـع، القاهـرة، ١٩٨٩، ط. ١.

الألوسي، محمود بن عبد الله، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني**، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤١٥ هـ، ط. ١.

باور، توماس، **ثقافة الالتباس نحو تاريخ آخر للإسلام**، ترجمة رضا قطب، بيروت/ بغداد دار الجمل، ٢٠١٧، ط. ١.

البخاري، محمد بن إسماعيل، **التّاريخ الكبير**، تحقيق محمد عبد المعيد خان، حيدر آباد دائرة المعارف العثمانيّة، بدون تاريخ.

البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقيق محمد زهير النّاصر، دار طوق النّجاة، الرياض، ١٤٢٢، ط. ١.

البركوي، محمد بن بير علي، «رسالة المصافحة»، ضمن كتيّب «المقامات»، تحقيق إبراهيم صوباشي التوقادي، دار سعادت، آستانة، بدون تاريخ.

البغا، مصطفى ديب، **أثر الأدلّة المختلف فيها مصادر التّشريع التّبعيّة في الفقه الإسلاميّ**، دار الإمام البخاري، دمشق، ط. ١.

البوطي، محمد سعيد رمضان، **قضايا فقهيّة معاصرة**، دار الفارابي، دمشق، ٢٠٠٩، ط. ١.

البيروني، أبو الريحان، **في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، حيدر آباد الدكن مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، ١٩٥٨.

الترمذي، محمد بن عيسى، **الجامع الكبير ـ سنن الترمذي**، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٨.

التّوحيدي، أبو حيان علي بن العباس، **البصائر والذّخائر**، تحقيق وداد القاضي، ١٩٨٨، ط. ١.

الثّعلبي، أحمد بن محمد، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأُستاذ نظير السّاعدي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ٢٠٠٢، ط. ١.

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، **البيان والتّبيين**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٢.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **رسائل الجاحظ**، تحقيق عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤، ط. ١.

الجمل، بسّام، **أسباب النّزول**، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء | بيروت، ٢٠٠٥، ط. ١.

الحدّاد، محمد، **ديانة الضّمير الفرديّ**، دار المدار الإسلاميّ، بيروت، ٢٠٠٧، ط. ١.

حسيني، سيد وقار، **الفكر الإسلامي في تطوير مصادر المياه والطاقة**، ترجمة سمية زكريا زيتوني، تقديم الدكتور محمود عكام، دار فُصّلت، حلب، ١٩٩٨، ط ١.

الحميدي، محمد بن فتوح بن عبد الله، **الجمع بين الصّحيحين**، تحقيق علي حسين البواب، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٢، ط. ٢.

الخوارزمي، أبو بكر، **محمد بن العبّاس، الأمثال المولّدة**، المجمع الثّقافيّ، أبو ظبي، ١٤٢٤ هـ.

دوركهايم، إيميل، **الانتحار**، ترجمة حسن عودة، وزارة الثّقافة، دمشق، ٢٠١١، ط. ١.

ديورانت، ول، **قصّة الفلسفة**، ترجمة فتح الله المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ٢٠١٤.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، **ديوان المعاني**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٤، ط. ١.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، **سِيَر أعلام النّبلاء**، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦.

الذّهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، **ميزان الاعتدال**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت ١٩٦٣، ط. ١.

الرّازي، فخر الدين، **مفاتيح الغَيْب ـ التّفسير الكبير**، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٩٩٩، ط. ٣.

الرّازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادري، **مختار الصّحاح**، تحقيق يوسف الشيخ محمد، بيروت ـ المكتبة العصريّة، صيدا، ١٩٩٩، ط. ٥.

رستم، سعد، **الإسلام والقانون الدّوليّ الإنسانيّ**، الهلال الأحمر القطريّ، الدوحة، ٢٠١٥.

روا، أولفيه، **تجربة الإسلام السّياسيّ**، ترجمة نصير مروّة، دار السّاقي، لندن، ١٩٩٤، ط. ١.

الرّومي، جلال الدين، **مثنوي**، ترجمة إبراهيم دسوقي شتا، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، ١٩٩٦.

الزّحيلي، وهبة، **فتاوى معاصرة**، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨، ط. ١.

الزّرقا، مصطفى، **المدخل الفقهيّ العام**، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٤، ط. ٢.

سارتون، جورج، **العلم القديم والمدنيّة الحديثة**، ترجمة عبد الحميد صبرة، تقديم أحمد فؤاد باشا، المركز القوميّ للتّرجمة، القاهرة، ٢٠١٠ ، ط. ١.

السّرخسي، شمس الأئمة محمد بن أحمد، **شرح السِّيَر الكبير**، تحقيق أبي عبد الله محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشّافعي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٢.

السّرخسي، شمس الأئمة محمد بن أحمد، **المبسوط**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٣.

السّقاف، حسن بن علي، **قاموس شتائم الألباني وألفاظه المنكرة الّتي يطلقها في حقّ علماء الأُمّة وفضلائها وغيرهم**، دار الإمام النّووي، بيروت، ٢٠١٠، ط. ٢.

السّمرقندي الحنفي، سعيد بن علي، **جنّة الأحكام وجنّة الخصام في الحِيَل والمخارج**، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥.

السّيوطي، عبد الرّحمن بن أبي بكر، **الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور**، دار الفكر، بيروت، ٢٠١١.

الشّعراني، عبد الوهاب، **اليَواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر**، دار إحياء التّراث، ومؤسّسة التّاريخ العربيّ، بيروت، بدون تاريخ.

الصّدر، محمد باقر، **اقتصادنا**، دار التّعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨١، ط. ١٤.

الصّدّيق، عبد الحي بن محمد، **حكم اللّحم المستورد من أوروبا النّصرانيّة**، تقديم مفتي مصر علي جمعة، بدون تاريخ، ط. ٣.

الصّنعاني، محمد بن إسماعيل الأَمير، **إرشاد النّقّاد إلى تَيسير الاجتهاد**، تحقيق صلاح الدين مقبول أحمد، الدّار السّلفيّة، الكويت، ١٩٨٥، ط. ١.

الصّيادي الرّواس، محمد مهدي آل خزام، **برقمة البلبل**، تحقيق عبد الحكيم بن سليم عبد الباسط، حماه، بدون تاريخ.

الطّبري، محمد بن جرير، **تاريخ الرّسل والملوك**، دار التّراث العربيّ، بيروت، ١٩٥٨، ط. ٣.

الطّريفي، عبد الله بن عبد المحسن، **الاقتصاد الإسلاميّ**، توزيع مؤسّسة الجريسي، السّعوديّة، ٢٠٠٩.

العسقلاني، أَحمد بن علي ابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تحقيق عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي ومحبّ الدّين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٩.

عوض، أَحمد صفي الدين، **أصول علم الاقتصاد الإسلاميّ**، مجلّة أَضواء الشّريعة، كلّيّة الشّريعة، الرّياض، ١٩٨١.

الغزي، كامل بن حسين، **نهر الذّهب في تاريخ حلب**، دار القلم العربيّ، حلب، ١٩٩٨، ط. ٢.

القشيري النيسابوري، **مسلم بن الحجّاج بن مسلم**، الجامع الصّحيح، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ٢٠١٣.

القليوبي، أَحمد سلامة، والبرلسي عميرة، أحمد، **حاشية على شرح العلّامة جلال الدين المحلي على منهاج الطّالبين للشّيخ محيي الدين النّووي**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.

كاتب جلبي المشهور باسم حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، **كشف الظّنون عن أَسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى**، بغداد، ١٩٤٤.

كزانتزاكيس، نيكوس، **تقرير إلى غريكو**، ترجمة ممدوح عدوان، دار الجندي، دمشق، ٢٠٠٤، ط. ١.

كوران، تيمور، **الإسلام والثّراء الفاحش مأزق الاقتصاد الإسلاميّ**، ترجمة منبر الحرّيّة، ومراجعة وتدقيق د. نوح الهرموزي، دار الأَهليّة للنّشر، الأُردن، ٢٠١٢، ط. ١.

لامنس اليسوعي، هنري، «الحيل والمخارج في الفقه الإسلاميّ»، العدد ٨ ــ ٩، المشرق، ١ أغسطس ١٩٣١، ص. ٦٤٦.

لويس، برنارد، **ظهور تركيا الحديثة**، ترجمة قاسم عبده قاسم وسامية محمد، المركز القوميّ للتّرجمة، القاهرة، ٢٠١٦، ط. ١.

مجلّة الثّقافة، تحرير جميل صليبا وكامل عياد وخليل مردم بك.

مختار باشا، اللّواء محمد، **التّوفيقات الإلهامية في مقارنة التّواريخ الهجريّة بالسّنين الإفرنكيّة والقِبطيّة**، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ١٩٨٠، ط. ١.

الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، وزارة الأَوقاف والشّؤون الإسلاميّة، الكويت.

النّجّار، زغلول راغب محمد، **من آيات الإعجاز العلميّ الحيوان في القرآن الكريم**، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٦، ط. ١.

النّسائي، أَحمد بن شعيب، **السّنن الكبرى**، تحقيق حسن عبد المنعم شبلي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ٢٠٠١، ط. ١.

النّووي، أَبو زكريا محيي الدين بن شرف، **روضة الطّالبين وعمدة المفتين**، تحقيق زهير الشّاويش، عمان المكتب الإسلاميّ، بيروت ـ دمشق، ١٩٩١، ط. ١.

النّووي، محيي الدين يحيى بن شرف، **المجموع شرح المهذب**، حقّقه محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدّة، ٢٠١٤.

الوادعي، مقبل بن هادي، **نشر الصّحيفة في ذكر الصّحيح من أَقوال أئمّة الجرح والتّعديل في أبي حنيفة**، دار الحرمين، القاهرة، ٢٠١٢.

مراجع باللّغات الأُخرى

Ali, Abdullah Yusuf, The Meaning of the Holy Qu'ran, English, Arabic and Arabic Edition.

Brockmann, Elisabeth: Selbsttötungen in der Bibel. Kirche – Umgang mit Suizid. S.

Colucci, Erminia and Lester, David: Suicide and Culture: Understanding the Context, Hogrefe, 2012.

Bulliet, Richard W. Conversion to Islam in the Medieval Period: An Essay in Quantitative History, Harvard University Press Cambridge, Massachusetts and London, England 1979.

Islâm Ansiklopedisi.

Goethe, Johann Wolfgang von: West-östlicher Divan, Stuttgart.

Muhammad Asad: The Message of the Quran – The Book Foundation. April 1, 2005.

PHILIPP, THOMAS: THE IDEA OF ISLAMIC ECONOMICS, Die Welt des Islams. Volume 30 1990: Issue 1-4 Jan 1990.

Rosen, Georg: Geschichte der Türkei von dem Siege der Reform im Jahre 1826 bis zum Pariser Tractat vom Jahre 1856, Leipzig 1866/67.

Michael Blume: Islam in der Krise. Eine Weltreligion zwischen Radikalisierung und stillem Rückzug, Patmos-Verlag 2017.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

«فها نحن ذا نبذُلُ جاهَنا لكم، بل نبذُلُ ماء محيّانا لكم، ألا فكافئونا، أوَ لم تَسمَعوا غوته يقول: «نُكرانُ الجميل أعظمُ الآثام»...

فإنْ لم تَجِدوا فقَبِّلوا أياديَنا، شُكْرانًا لأياديناِ، فنحْنُ من ريحة الاستِبداد يسرّنا ما يسرّه، ويُبهجُنا ما يُبهجه؛ وكما أنّنا دَعَوْنا للفاسدين في خُطَبِنا وصَلواتِنا فَلْتتدفّقوا دعاءً لنا، قيامًا وقعودًا وعلى جُنوبكم، ولْتَرْسِفوا في أغلال الشّكر والحَمْد والثّناء إلى يَوْم الدّين، وأَبَدِ الآبدين...»

«على أنّنا لا نعتِبُ على المشايخ ورجال الدّين حين يتلهّفون لأداء هذا الدَّور، ويستميتون لعطف القلوب والعقول إليهم، فهُمْ من ناحية جُبِلوا على أنْ يكونوا كاللّبلاب يسرّه أنْ يلعَبَ الدّور الرّئيسيّ حيثما الْتَصَق، وهُمْ من ناحية أُخرى لم يأتِهم نبأ الدَّولة المدنيّة الحديثة الّتي غَدَا القانونُ ومؤسَّساتُه فيها الوسيلة الوحيدة لإقرار الحقوق والحصول عليها، وتحديد الواجبات وفَرْضِها.

ولكن هل لنا أنْ نحلُمَ بمشايخ ورجال دين يتعالَون على واقعهم مهما كان مشؤومًا بالقَبَليّة، منخورًا بالعشائريّة، ويكفّون عن ترسيخ ما هو عَفِن، وتثبيت ما هو منحطّ؟»



بعد دراسة الشَّريعة في المدرسة الخُسْرَوِيَّة المُكَنّاة بأزهر حلب بمسقِطِ رأسه، تابع تَفَقُّهه في كلّية الشريعة بدمشق وجامعة بيروت الإسلاميّة.

عُيِّنَ مُديرًا لدار الأيتام (٢٠٠٦ ـ ٢٠١٣) وإمامًا خطبَ في أشهر جوامع الشهباء. ودّع المصلّين من محراب جامع عُبيس في المدينة القديمة قبل أن هُجِّرَ.

نجا مع من نجا وهو اليوم مقيمٌ في ألمانيا يبحثُ ويكتب.

تاريخُ الإسلام ومآلاتُه من مواضيعه الأثيرة.

لـه:

من ينابيع التجديد، ٢٠٠٥ | الدهر والعطار، ٢٠١٢، دار فصّلت.

9 789953 112343

